

سلطة الهاشمية

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠٢٠/٧٥٦٥

بطاقة فهرسة

حموتي، عيسى
سلطة المهشاشة: رواية/ عيسى حموتي ط ١ - القاهرة:

دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠٢٠

٣٥٠ صفحة؛ ١٤ X ٢٠ سم

تدمك: ٨-٢١٥-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١ - القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣



دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر - القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

رائد مجدي

التنسيق الداخلي

أحمد البسيوني

سلطة الشاشة

رواية

عيسى حموتي

الفصل الأول

وجد نفسه يحمل شعارات يعتقد أنها أسس هويته، يرددها دون أن يدرك أنه يعيش على هوامشها، لا يحل له الانخراط فيها سوى من أبواب هشاشتها، التي صممت وفق برنامج محكم يهدف لنخرها، فهو حتى وإن شاء الرفض الذي لم يعرف له يوما معنى يفتقد الحول على ذلك. يعيش على هامش هوية جعلت من سلطة الهشاشة كل دعائمها، تعمل على شدها إلى الماضي بأسباب لا تنقطع عمّرت دهورا دون أن تهَي، بل كلما أحس الشيوخ بتهديد نشروا المريدن من أهل الارتزاق يبذلون الغالي والنفيس لرعاية وتعهّد قوة الهشاشة وجبروتها حتى لا تفقد مكانتها... يعيش مشردا، لا هو يقوى على الابتعاد عن سياجها ولا هو يستطيع الولوج إليها عبر مسالكها المنحرفة. عاش في وسط فرضت عليه ظروفه الانكماش حول الذات بكل أطياف هشاشتها، والعجز على الانخراط في بلاد العجمة والتأقلم مع الحياة هناك. هذا الوضع المتأزم أحدث في النفس جراحا تزداد عمقا مع الزمان،

تعمل على تعميق البون بينه وبين الهوية بأسماها ألوانها الشاحبة. وكلما رثت الأسما أكثر وأوشك اللون أن يتعرض نهائيا للتلف، أسرع الهشاشة المديرة لشؤون الهوية ، إلى إضافة خرقه ترقع بها الثقوب، أو إضافة طبقة من ألوانها فوق طبقة اللون الأصلي ليحدث المزيد من التشوهات على اللون الأصلي دون أن تتلفه. وهكذا تجني الهشاشة على اللونين كلاهما. فلا اللون الأصلي استطاع المحافظة على نصاعته، ولا اللون الدخيل استطاع أن يحل محل الأصلي. فتضحى نفسيته لوحة ملطخة لا يستطيع الناظر إليها إلا استهجانها والنفور منها.

ما كاد يملأ رئتيه بلوث ثقافة أسست لها الخرافة والأسطورة، وحملها إليه موكب الجهل والأمية مسافة تزيد عن عشرة قرون، حتى حمله والده على جناح الهجرة، ليجد نفسه في تربة جديدة مختلفة، تربة ندية أنبتت أبناءها، وفقا لما تجود به عليهم من دمها الذي يسري في عروقهم. وهو الدم نفسه الذي تحقن به شرايين الوافدين عليها من كل أنحاء الأرض، حقنة سليمة غير أن شريانه وشرايين كل من هم مثله يعيشون على هامش هوياتهم تأتمر بأمر الهشاشة الملازمة له. وعليه يكون مفعول الحقنة عكسيا.. جيء به إلى تربة ليس له فيها سوى رائحة عرق والد (جدّي)، قضى العمر يشقى معتقدا أنه يحسن ظروف عيشه وظروف عيش عائلته، وهو في الحقيقة، من جهة كان لا يرغب إلا في تحسين الظرف المادي وحده، ومن أخرى كان يجهل أن هناك ظروفًا تتطلب الشقاء لكي تتحسن. كما كان يجهل أيضا أن شقاءه

يزيح الشقاء من طريق "الباترونا"، وأنه يقايض سيول عرق تنساب جداول من جسده، بحفنة من الفرنك الفرنسي. عرقٍ يستحيل حبات لؤلؤ في قلب خزان أكبر الأبنك، تنظمها عقدا يزين جيد رفاهية بلادهم، وتحول قطراته قطعاً من نعيم الحياة، وجنات تجري من تحتها "كبرا" الأنفاق، ومن فوقها بسطت حدائق تحيط بالناطحات، فيها مراقص وحانات وما لذ وطاب من الخيرات. من عائداتها تستفيد البلاد في بناء المرافق وتشيد المنشآت. وتعرج إلى السماوات تحوز لها فيها حيزاً تتخذة قاعدة من خلالها تراقب تحركات العالم الذي بوّأته خيراته المغتصبة مديراً لها، يرسم لها مسالكها في التبعية .

جيء به إلى بيئة منافقة، "سكيزوفرينية" في المنابر، تدعي المساواة بين بني البشر، لا فرق بين أشقر وأسود، لهما نفس الحقوق، وعليهما نفس الواجبات. أي نعم لهما الحقوق عينها نتيجة لوفرة الأموال التي سرقت من وطن السود، وهو مال لا حق للأشقر فيه بالأساس، لقد نهبت وما تزال تنهب، ما زالت تغتني على حساب تفكير الشعوب المغلوبة. تدعي الأخوة، والتكافل وهي تلبس أبناءها صوف الأعنام وبر الإبل التي سرقها رعاة أبقارها من ديار المغلوبين على أمرهم. بيئة تعتمد في إعادة بنائها على حساب هشاشة الأحياء والديار الرسمية الطللية. إذ تسلبهم اللب وترميهم بالقشور، يقابلون سلوكها بابتسامة ذابلة وهم راضون. بيئة تبرع في الاستفادة من باطن الأرض ومن عمق البحر، بيئة تعمل بخلاف محتوى شعارها. بيئة، تربتها وارت جثمان أمه ورفات أخته، لما رفضت استقبالها، وقوضت لهما حادثاً أودى بهما...

لم يكن لوالده المهاجر هو الآخر محل كريم من الإعراب في هذه الحياة. في موطنه الأصلي، كان بتلة كباقي بتلات الأزهار والورود البرية، نبت على قارعة طريق الحياة، إن نجا من قضمة، لا ينجو من وطأة قدم أو حافر، إن كتبت له النجاة من هذه وتلك لا يسلم من وخزات الأشواك المتعاقبة، وقد تنال منه أشواك الوردة التي هو أحد بتلاتها، والتي من المفروض أن تحميها وترعاها حتى تحمل الرياح عطرها لتشره بين مختلف جهات الحي، يستفيد منه السكان قاطبة، الصغار قبل الكبار، والنساء قبل الرجال.. كان والده نكرة لا يُلتفت إليه، وإذا حدث أن أولي القليل من الاهتمام، فلكي تداس كرامته أو يُمشى فوقها، أو يتخذ سلماً على كاهله يرتقي الأولياء الدرجات تلو الأخرى، أما إن أبدى مقاومة وأبان عن كسر إباء، يتهم بالإساءة للمقدسات.. ولهذا الأغراض وغيرها فرضت عليه الإقامة الجبرية في معقله، ولم يسمح له حيّه بالهجرة إلى الديار الأوربية التي كانت في حاجة إلى اليد العاملة لتعيد بناء ما هدته الحرب. فرصة حلم بالنسبة لهذه الشريحة من أبناء الرسوم والأطلال. امتدت إليه يد من هناك، من وراء البحر، تمنحه فرصة عمل، طالما حرمه منها حيه. غير أن السفر يتطلب جوازا للسفر، وجواز السفر وثيقة عصية بل بعيدة المنال، بل تدخل الرغبة في الحصول عليه في خانة الرغبات التي لا يرجى تحقيقها. فالراغب في النظر إليه أشبه بمن يطلب لبن العصفورة. كان صفقة تجارية مدرة لأرباح طائلة على محتكري سوقه، لا ترسو صفقة الجواز إلا على أحد المقربين من النخب، وقد يكون فردا منها. تعينه الإدارة المسؤولة بكتاب لا يناقش ولا يرد. يبيع الصفقة

جملة، مدةً سيران مفعولها سنة كاملة. لا يستفيد منها سوى المسؤولين في إدارته المركزية للحى. وهؤلاء يبيعون لمسؤولي إدارتهم في الربوع. وهؤلاء بواسطة أعوان لهم وسامسة يبيعون بالتقسيط للمستهلك. ما على المرء إلا أن يتصور الربح الذي يحظى به السمسار والعون والمسؤولون على مستوى الربع، وعليه أن يحصي عدد الربوع وعدد المسؤولين المركزيين ليقدر تسعة جواز السفر...

بعد وفاة زوجته في الحادث المشؤوم، وهي في الطريق إلى بيتها في ديار الغربية لتجميع العائلة والعيش في ثبات ونبات، في إحدى ضواحي مدينة "الجن والملائكة"، لم يعدل "قويدر" ذلك الحماس المعهود فيه، بسبب الضعف الذي أصابه جراء ما ألم بعائلته، وما ألم به على إثر الحادث. حادث فقد على إثره زيادة على ابنته وزوجته الكثير من إمكانياته المادية والمعنوية والنفسية والكثير من أدواته الذهنية حتى لم يعد أهلاً لتربية ابنه صالح على القيم التي يؤمن بها والتي يستمد منها هويته..

لم يسمح لنفسه كما أشار عليه الكثيرون بالعودة بابنه إلى الحى، ليلقي به في حضن جده "لفقير موسى" بعيداً عن المدرسة وعن الحاضر. بل أخذ برأي "روز" المرأة التي وضعت بصيصاً من النور في دروب ذهنه المظلمة. ظل محافظاً على ثقته بها، في ظل الفتور الذي أصبح يطغى على شخصيته. استطاعت "روز" أن تقنعه أن التربية تستدعي القدرات والوسائل والآليات لإعداد الطفل إعداداً يُغنيه عن إرث سر أب لا طعم له ولا لون، يُغنيه عن

ولاية عهد بلا عرش. و أن الحياة لا تستقيم بدون مؤهلات بنيت على أسس صلبة. لذلك لم يجد اعتراضا على اقتراح "روز" القاضي بأن تمد له يد المساعدة في هذا الشأن إلى حين. أشارت عليه أن يضع "صلاح" في مؤسسة تعنى بمثل حالة ابنه، وأخبرته أنه إذا لم يسلمه بنفسه، ستجبره السلطات المعنية على ذلك.

ظل الطفل تحت صدمة فقدان أمه وأخته، لم يعد يرى من حوله ممن ألف حضورهم في حياته سوى وجه أب شاحب، هجرته النظارة على إثر ما ألم بعائلته.. تحمله رغبة ملحة إلى النظر في وجه أمه، ليخفي فيه آلامه. يتتابه شوق عارم إلى وجه أخته الذي خلفت عليه حرارة الشمس أثرها، يبحث فيه عن إسوة وعن أنس.. افتقد كل دفء عائلي، صدر جدته لفقر الزهرة بقي هناك بعيدا قد يفصل عنه إلى الأبد. لا بد أن جده الفقير موسى ما يزال يحمل ذلك الحنو، ولا بد أنه يؤلم صدره، وهل سيراتح من ذلك الألم دون أن يسكبه خارج قلبه؟ محال فهو إحساس خاص بصلاح، ولن يشفى لفقر موسى إلا إذا بنظرة وعناق وضمة لحفيده. افتقد الدلال الذي ألفه في حضن عمته عائشة دون أن يدري أن ذاك الدلال أصبحت تجارته باثرة في غيابه، وكأنني بها تبكر به صباحا للسوق لتعود به مضاعفا. كما اشتاق لغضب عمه سعيد منه.. أصبح صلاح يعيش في بيت ضيق مظلم تحرم فيه الرؤية في غياب نور الكهرباء، بسقف يحول بين بصره والسماء، حتى كاد ينسى منظر النجوم المزروعة على رقعة الظلام. فيه تزورهما هو ووالده امرأة لا تلبس

كنساء الحي الذي جاء منه، لا تضع غطاء على رأسها، ولا تستر ساقها، وزيادة على ذلك تكلمه بلغة لا يفهمها.. في حيرة من أمره، أسئلة كثيرة تزدحم بها ممرات ذهنه، لا تعرف كائناته الحيوية كيف تجيب عليها، ليعيش غربته طولا وعرضا، لا اللغة تسعفه، ولا الواقع يقدم له جوابا يريحه ومكانا يلجأ إليه، قد يتخلص مم يثقل كاهله من هم يستحيل عليه إشراك غيره فيه جراء العجز الذي يحيط به من كل جانب...

بعد وقت قصير وجد نفسه بعيدا حتى عن والده، وجد نفسه في مؤسسة تربوية، بها أطفال من مختلف الأعمار كلهم لا يتكلمون لغته، بل لا يتحدث لغتهم، لا يشاركونهم مرحهم، بل على العكس يتبعد عنهم وينزوي، وكأنه يأخذ حذره منهم.. انتبهت السيدة المشرفة لانزوائه، اقتربت منه كما يدنو البيطري من غزال جريح، لم تكن تملك هي الأخرى سوى ابتسامة وتربيت على الكتف، وقبلت ترسمها على خده وسيلة للتواصل معه، بالإضافة إلى هدية بسيطة غالبا ما تكون قطعة شوكولاته. وحينما تشعر أنه أحس بنوع من الألفة تشفع في تمرير أناملها بين خصلات شعره، تكلمه برفق وتقوده نحو صغير من أترابه حرصا منها على الانسجام ومشاركة الأطفال لعبهم. كان يتلقى دروسا في اللغة وأخرى في طريقة التعامل داخل المؤسسة، بدءا بكيفية استعمال المرافق الصحية، وطريقة الأكل واللباس، واحترام نظام المؤسسة. وكان والده حسب ما تسمح به المؤسسة يأخذه ليقضي معه نهاية كل أسبوع. وغالبا ما كانت "روز" تقضي معها الكثير من الوقت. بل كانت تعمل على أن تقترب منه ما أمكن، تغريه بما يسيل له لعاب الأطفال في مثل سنه..

مر من الوقت ما يكفي لتعلم اللغة، والانخراط في صف الدراسة ليجد نفسه في بيت والده ومعها "روز" لا تفارق البيت إلا للعمل. لقد أصبحت ربة البيت وأماً لـ "صالح". أرضعته من لبن الحياة الباريسية وسقته خلقاً مشوباً بنسمات الشمال، ممزوجاً بقيم المدنية الحديثة، وبلوث البيئة الغربية الموبوءة. أحاطته بعطف غير عطف الأمومة، رعته رعاية من يتعهد مشروعاً من نوع خاص، وكأن هشاشة أهالي بني عبد رسم، وديار بني طلل هي ما سيقرر مصيرهم.



قبل أن تتيح لي الأقدار الاطلاع على صحائف والدي، لأطل من خلالها على جوانب أكثر وضوحاً من حياته، جوانب لم يعلم بها من قبلي بشر، كنت أجهل أن لي إخوة غير عمرو وزيد. منحني قدري نوعاً من الحياة العجيبة، إن جاز أن ترقى إلى حياة - لم يحياها قبلي إنسان على حد اطلاعي المتواضع - حظيت بفرصة فوق الواقعية، مكنتني قدري من إلقاء نظرة على صحيفة والدي بكل محتوياتها؛ نعم تلك الصحيفة التي سيؤتاها يمينه وتلك التي سيؤتاها بشماله. كما مكنتني وضعي الفريد من نوعه من الوصول إلى كل ما أردت أن أعرفه عن حياته في ماضيها وحاضرها. هكذا علمت أن لي أخاً، من صلب والدي المسمى (صمو) .. يكبرني بأكثر من عقد من الزمان، عاد إلى كنف أمه العليلة (زوجة والدي الأولى) بعد عمر قضاء في كنف العائلة التي تبنته. من يومها وأنا على الحالة التي صرت إليها، كلي شوق لملاقاة أخي

"آدم"، وكلي خوف من استحالة هذا اللقاء الأخوي . من جانبه لم يكن يعرف أن له إخوة يعيشون في بعض أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل غير شقيقته "حواء" الغائبة التي ابتلعها صروف الحياة. لتظل والدتها "نجاة" لا تتوقف عن النحيب، غارقة في دمعها ليل نهار. لا تغيب عنها صورة وحيدتها لحظة واحدة، تعيش على ذكرها حتى أضحت حالتها أشبه بحال يعقوب.. رق آدم لحال أمه التي تكبدت كل أنواع العناء فوعدها بالعثور على أخته، قبل أن يجد في البحث عن والده، ويسعفه الحظ في العثور على والدتي (زوجة أبيه الثانية) ليعرف منها أن له إخوة في مختلف أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل...

اقتفى آخر آثار خطاها، واستطاع أن يعثر عليها، اطلع على الوسط الذي تعيش فيه وعلى مستواها المادي الذي يفوق بكثير مستواها الثقافي. اتضح له من خطابها أن نقيتها على الحياة لا توصف. تُغرق عفونتها النفسية في كؤوس الفودكا الساخنة، وتشطفها برغوة الشمبانيا، تحيط حياتها بمجموعة من أشباه الرجال، أقوىاء البنية، ضعافٍ خرعين. رفضت دعوة أخيها إلى جمع شمل العائلة، واستعادة دفتها الذي حرمتهم منه الظروف الخارجة عن إرادتهم. وجدت حواء منطق أخيها على ما فيه من سداد وما فيه من رغبة في تحقيق الائتلاف من جديد، من قبيل منطق العجوز التي تلتمس من العطار إصلاح احديداب ظهرها. كل ما ظفر به هو وعدها بزيارة والدتها في أقرب فرصة سانحة.

كانت حواء نتيجة حتمية لظروف متشابكة تداخلت فيها سلطة العقدي بسلطة الاجتماعي وبسلطة الجهوي والعالمي وبسلطة الهشاشة. ظروف مارست عليها القهر كما تمارسه على غيرها، أكيد أن آدم يعرف فعالية هذه القوى في هذه البيئة الموبوءة التي تجعل من الإنسان أداة تكريس للقهر بل تعمل على صيانتها وعلى نشره بين صفوف بني أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل. لكنه يجهل تفاصيل نتائجها عليها، تفاصيل لا يعرف منها آدم ولن يعرف منها شيئا. أدى بها القهر إلى ركوب طريق لا عودة منه، لقد وصل أخوها متأخرا، وحتى إذا ما عاد أبوها - ولن يعود - فسيصل هو الآخر، حتما، بعد فوات الأوان، فطريقها غير طريق كلٍّ منهما. لا تنكر أن إحساسا غريبا غزا قلبها وكأنه عاد بها إلى الطفولة ونشر في أحشائها نوعا من الدفء؛ عانقت شقيقها بحرارة، ضمته إلى صدرها كما تضم الأم صغيرها حتى بكيا معا، وكفكف كل منهما دمع الآخر. إلا أن حواء تعي جيدا أن طريقتهما اتجاهاً مختلفان؛ منذ نعومة أظافره نجا آدم نسبيا من كابوس القهر المعيق للحياة، تعلّم في المدارس الخاصة إلى جانب أبناء الأعيان، وفي كبريات الجامعات العالمية المصنّفة، في حين ظلت تتقاذفها خطوط الماضي وصروف هشاشته التي ألقت بها في خضم تجربة قاسية دفعت بها إلى الثورة ضد واقعها والشك في علاقتها بخالقها. لا أحد غيرها يرقى إلى التعبير عن حالتها كما فعلت بنفسها في مذكراتها الخاصة:

حاولتُ والدتي عبثاً بكل ما أوتيتُ من فقر وحاجة، ومن عجز وقلة حيلة، ومن قهر طأطأ الرأس والهامة، وجعلها تمشي مطرقة، لا تملك إلا

أن تنفذ ما تمليه على حياتها الهشاشة. بعدما قادت مسيرات النضال محمولة على الأكتاف، يعانق صوتها العلا، ليقض مضاجع التسلط ويزرع الرعب في الظلم نفسها، طوحت بها بنات الدهر الاصطناعية لتجد نفسها بدون قوة ولا حول، تزحف بين أرجل الهوان. حاولت بالاعتماد على عطفها وحنائها الضعيفين اللذين ظلا يحاربان للاحتفاظ بحيز ولو ضيق من القلب الذي امتلأت جنباته بالآلام وازدحمت أرجاؤه بالحسرة والأسى. وحاولت من داخل حاجتها للدعم أن تدعمني، ومن داخل فقرها أن تغنيني، ومن عائدات تسليم جسدها للعري أن تكسوني... وحاولت أن توفر لي أسباب الحياة المادية والنفسية والروحية حتى تتمكنني من التغلب على هشاشتي النفسية، ولكي لا أحس بالفرق الصارخ بيني وبين زميلاتي المراهقات. كنت أعني تضحيات والدي دون أن أقدرها، كنت أكلفها ما لا تطيق دون تضجر. كنت أرى انكسارها المتواصل ولا أكلف نفسي مواساتها. كنت لا أرحم ضعفها المتزايد. ما نهزني يوما وما قهرني، وما اشتكتني لغير نفسها. ظلت تجمل روح "نجاة المناضلة" دون كلل أو ملل...

رغم حسناتي ورغم سيئاتي ورغم معانياتي النفسية، ورغم عقدي المكثفة، كنت أحاول الاجتهاد قدر الإمكان حتى أجتاز امتحان البكالوريا بامتياز قد أحقق أمنية أُمِّي وألج مسالك الجامعة وأحصل على منحة تغطي مصاريف دراستي في الأسلاك العليا، علما أن أقرب جامعة تبعد عن ربعا بمئات الكيلومترات. غير أن رياحا أقوى من إرادتي التي نفذت إليها الهشاشة جرت بها لا أشتهي وبها لا تشتهي والدي. أصبحت بين ليلة وصبيحة لا

أكاد أفتح كتابا حتى أجد ذهني التحقق بعوالم لا أعود منها إلا منهكة، أغلق الكتاب وأسرح من جديد: يعيش أخي في قصر وتبدو عليه آثار النعمة، حتى أخاله كبطل من أبطال المسلسلات الأمريكية (دلاس)، بينما أعيش في غرفة داخل سكن جماعي كله صخب، لا يهدأ ليل نهار.. أمام دورة المياه، نقف كل صباح فوق كرامتنا في طابور مختلط، نساء ورجالا وأطفالا، نسمع أصوات أمعاء بعضنا البعض، ونداء طبيعتها يدعوها بالحاح، قد ألبي النداء على مسمع ومرأى من الجميع، وقد لا يسعف الوقت، وأضطر للتخلف عن المدرسة، أو أصل متأخرة، بعد أن نفحتني والدتي بريالات ثمن ما يسد مسد وجبة إفطار من كسبها القليل الذي تنفقه علينا وعلى جدّي. كم تساءلت، لماذا لا نعيش كعائلة واحدة تحت سقف واحد؟ رغبتني في التأم شمل عائلتي نار تحرق قلبي. ألا يحق لي أن أعانق والدي؟ لماذا لا تحدثني أمي عن والدي؟ كلما سمعتُ زميلاتي يتحدثن عن آبائهن أحسست بعقدة في قصبتي الهوائية تخنق أنفاسي، أحب كلمة "بابا" بقدر ما أكرهها لما تصدر من أحدهم أو من إحداهن. كلما سمعت صوت رجل قلت في نفسي "أ يكون صوت والدي شبيها بهذا الصوت؟" يحدث أن أُمّر بأحدهم فيتهدأ لي أنه والدي، أسرق النظر إليه فتصدر مني في سري كلمة بابا وكأني أناديه، وأنتظر منه أن يناديني: "ابنتي.. صغيرتي.. حببتي..." عندما أعبئ الاستمارة المدرسية في مستهل السنة الدراسية، أبدأ بمهنة الأب "مهندس" وأنفنن في كتابتها وأحاول أن أجعل كل من حولي يراها بحجة أو أخرى، كأن أسأل زميلتي: أهكذا تكتب "مهندس" باللغة الأجنبية؟ وفي عمق نفسي من الألم

ما لا يطفئه إعجاب الكون. لم أكن أَرْضَى بالصدقات رغم لطف الفتيات ورقتهن وحسن تعاملهن، بسبب العقد التي تُوثق فضاءات صدري، كيف أصادق وأصحب صديقتي إلى سكن جماعي وأنا ابنة المهندس... كل ما أعلمه عن والدي هو أن جدي بعد وفاة جدي وعمتي في حادث سير، كتبت فيه النجاة لوالدي وجدّي، وكان ذلك في رحلة التجمع العائلي بفرنسا... ظل جدي في فرنسا متزوجاً من امرأة فرنسية. لم يعد إلى الوطن، كان له ابن وحيد هو والدي، الذي ما كان لي يوماً أباً. درس هناك وعاد للحي مهندساً. سألت عن عنوان جدي دون جدوى، بحثت عبر وسائل الاتصال المتاحة عن كل الناس الذين يحملون اسمي العائلي نفسه، فلم أستطع أن أجد علاقة نسب من قريب أو من بعيد مع كل من يحملون الاسم نفسه. وكلما سألت أُمِّي أن تدلني على سبيل أعثر من خلاله على هذا المخلوق الذي اشتقت إليه إلى حدود الكراهية، أجابت: في امتعاض: "لا تحدّثيني عنه، لقد تحلّى عنا وفر كالجبان. لديك اسمه اتصلي ببرنامج "مختفون" أما أنا فلا أطيق أن أسمع اسمه...

كنت في طريق عودتي من الثانوية، أمر بمؤسسة تجارية، أتجول بين الأروقة، أشبع جوعي عن طريق بصري، كنت كثيراً ما أصادف هناك رجلاً في العقد الخامس من عمره - حسب تقديري - يتسم لي، وكم كنت استعذب اقترار ثغره، وبيادري بالتحية حتى أصبحت أحس إحساساً غريباً إن أنا لم أر هذا الرجل، أجدني جادة في البحث عنه بعيني بين الأروقة... يستوقفني

من حين لآخر يحادثني وأبادلله أطراف الحديث، يسألني عن عائلتي: أنا ابنة المهندس... يسألني عن الدراسة وعن الدروس: نتائجي جيدة... أنظر إلى وجهه أتفحص ملامحه باحثه فيها عن ملمح الرجل الحلم... يمد يده، تمسك بيدي فيبقى كفي في كفه، وهو يتحدث إلي فلا أسمع من حديثه سوى حرارة تصاعد عبر الشرايين إلى غاية الدماغ، فيحمر وجهي وترتجف أطرافي ويفتر ثغري عن ابتسامة خجول، فأسحب يدي متمنية أن يبقئها حيث هي...

كانت هذه بداية مسار جديد في حياتي. لم أعد أهتم بدروسي، بل أصبحت أغيب كثيرا عن الصف، أقضي آناء الليل وأطراف النهار منهمكة في تدبيج الرسائل دون أن أرسلها، أصبحت أعتنني بشكلي بطريقة ملفتة. لاحظت والدتي أنني آتي تصرفات أكثر من سني، فلم أكن أهتم لملاحظاتنا، ولا أعمل بنصائحها. عن قلة درايتي بأساليب التجميل كنت ألطخ وجهي بالمساحيق. كنت أنصنع إبداء أنوثتي، لم يمض على حالتني هذه أكثر من سنة حتى، أضحيت شاحبة، ضامرة افتقدت نضارة وجهي وإشراقته بسبب خضوعي لعملية إجهاض وما ترتب عنها من آثار...

تخلت عن الدراسة دون علم أمني. تعرفتُ على شاب، كثيرا ما لاحقني، يتقرب مني كل يوم أكثر، كنت في بداية الأمر أنفر من شكله وهندامه، يثير في نفسي نوعا من الخوف، يتعقب خطاي، يستوقفني بطريقة مهذبة، يحدثني كجنتلمان شرقي حتى أخذ الاطمئنان إليه يدب في نفسي ليذيب جليد ذلك الخوف... يعاملني بكامل الرقة واللفظ نرتاد أماكن عامة، ينفق دون

أن يطلب مقابلا، عهده مواظبا على الصلاة، كلما ارتفع الأذان استأذني وسعى لذكر الله... كان لي هاديا، ومرشدا أستنير بحديثه، وأقتدي بسلوكه، وأعمل بنصائحه. كنت أخضع لتأنيب الضمير، نصحني الشاب "أبو زيان" بقراءة القرآن وتولية وجهي نحو القبلة... لم يحدثني يوما عن رغبة، أو غريزة أو زواج، لمس عندي إحساسا كبيرا بالذنب، رغم أنني لم أسرّ إليه بما كان يعرفه عني. عمل على تنمية الشعور بالذنب لدي حتى أقنعني أن لا سبيل إلى الاغتسال من المعصية الا بهبة النفس خالصة لله. وعدني أن يجد لي طريقا سالكا في الحياة أنال عبره نعم الحياة ورضا الله... في هذه الأثناء تقدم أحد الشباب لخطبتي، كادت أمني أن تطير فرحا، فالخطيب متعلم، من عائلة لها من الثراء ما يغري، وأكثر من هذا يسمح لي بإنهاء دراستي. وعلمت من أمني أن الدافع الأساس لطلب الزواج مني هو عفتي!! بعد أن أعجبه شكلي سألت عن سمعتنا فما سمع إلا الثناء! وقرر أن يدخل الدار من بابها.

بقيت على اتصال بالشباب الملتحي، يحدثني عن سبل الجنة، أقنعني أن أقصر طرقها هو الاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الله، وتقويض الشرك والمشركين، يغريني بما يناله المجاهدون من جزاء، والمستشهدون في سبيل الحق من نعم في الجنة مع الصالحين، يصف لي الجنة بحدائقها وزلال مائها، وأنهارها الجارية، وثمارها الدانية، يسلك بي كل الشعاب، يجلسني على خضر الروابي أتأمل شمسا لا تغيب ويوما لا ينصرم واخضرارا لا يزول وسواقي جارية وكؤوسا صافية وسررا مرفوعة، ورجالا آية في العطف والحنان وحسن المعاملة، وكأنه عائد منها للتو، بعد أن أجريت عليها إصلاحات

وترميمات، وأضيفت لها نعم لم تكن من قبل... يفسّحني على مراكب من نور
عبر أوديتها، وأنهارها، تتدلى من فوق ثمار دانية القطوف، أنى النفث ثمة
أنوار وألوان لا أثر للسواد أو الظلام، يكفيني أن أشتهي ثمرة أو فاكهة حتى
تأتينني متدحرجة... يجعل حور العين وصيفات لي، أنعم بالطهارة والعفة.
يأتيني رجل من أولياء الله الصالحين، يقدرني أحسن تقدير...

حتى إذا ما أبديت استعدادا كاملا للانخراط في سلك الجهاد، أخذني
بالرفق، يشرح لي بساطة مهمتي التي لا تتعدى خدمة المجاهدين، من قبيل
تضميد الجراح، وطهو الطعام. ومرافقة المجاهدين في حركاتهم وسكناتهم
للغرض نفسه. وإذا اقتضى الأمر، حملت السلاح، كما يتمنى ذلك كل مجاهد،
ليفوز بالشهادة ويحشر مع الأبرار، ويكون مأواه جنة النعيم.

رحبت بالفكرة، كيف لا وقد أتيت لي فرصة التوبة، لأرتاح من عذاب
نفسي الذي لم يرحمني منذ أن قتلْتُ نفسا بغير حق، وهي فرصة استبدال
الجنة بالجحيم الذي خندقت نفسي فيه بارتكاب الكبيرة، وأبدت رغبة في
التضحية في سبيل الله، لم لا، لقد انغمست في هذه المرحلة المبكرة من حياتي
في الرذيلة ولو غرّة، ولا أريد لنفسي أن أكون وقود نار جهنم، وهي فرصة لا
تعوض، لن أخبر أحدا بها أنا مقدمة عليه، عملا بنصيحة أبي زيان من جهة
وهروبا من الفضيحة التي قد تلحقني إن أنا أرغمت على الزواج.....

التحقت مع من وفد على المعسكر، ثكنة السيدات... جيء للجديدات
لبلباس عسكري ارتدينه في لمح البصر تحت وقع صراخ القائدة؛ ترميهن بأشبع

الصفات، عجبت للغة هذه الأخت، ولتعاملها مع الوافدات الجدد. كانت في سن والدتي، يظهر أنها تفتقد روح الإنسان، ولباقة اللسان، وتجهل قيم الدين كما ينص على ذلك من جئنا لنجاهد في سبيله. غفرانك ربي، يبدو وأتمنى أن أكون مخطئة أن هذه القائدة ستذهب بنا إلى حيث الجهاد ضد سبيلك.... دخلت امرأة تحمل سلة حبل بأقراص الخبز وتعقبها أخرى توزع علب المصبرات وثالثة من هناك ترمي نحونا بعبوات ماء. بعد أن التهمت ما بين يدي أخذت أقرأ على العبوة "معبأ في تل أبيب" وكنت لا قبل لي بهذا التل، وكتب على العلبة المعدنية "هدية من الدرع الأزرق، لا للبيع ولا للمبادلة"

فجأة أخلت بتفكيري مناداة القائدة علي، توجهت نحوها بخطى مدنية في تناقل، لم أحفل بنفسي حتى وقعت تحت قدميها "ما هذا يا ربي أين أنا من حديث أبي زيان" (قلتها جهرا) "هل جئت للجهاد في سبيل الله أم لكي يُجاهد في"؟!؟

هوت نحوي يدها وكانت بصلاية لم أعهد لها من قبل، وأمسكت بشعري تجرني على الأرض وتصيح بي:

- "انسي غنج الغواني، انسي أحلام الصبايا...، انسي نفسك، واضربي صفحا عن ماضيك"

لم يفتني رغم الوضع أن أفكر "أما الماضي فساعديني على نسيانه، أما أحلامي فلا طاقة لي على عدم التفكير فيها..."

غَيَّرُوا اسمي من حواء إلى أم عبد الله، وأنا ما سبق لي أن أنجبت، عفوا سبق لي أن كنت حاملا لمدة شهر، وكم ضايقني هذا القلب، فكلما سمعته تذكرت جريمة قتلي عبد الله في أحشائي.

مر وقت غير قليل دون أن أبدأ في المهمة التي جئت من أجلها بعد، تشغل بالي أسئلة كثيرة دون أن أجد لها أجوبة... صباح يوم، بُعيد صلاة الفجر، أمرتنا القائدة بجمع أغراضنا استعدادا للرحيل. أجابت بذلك تلقائيا على سؤال يشغل كل واحدة منا.

وأخيرا ستتحرك بحركة المجموعة الجهادية التي سنشرف على خدمتها.

دخل رجل بلحية كمخلاة، وشارب مضروب، ورأس حليق، بعباءة تبلغ مستوى الساقين، ومعطف غربي الأصل، مظهر يدل على أنه مخضرم الروح، تجمع المقدس بالمدنس، زكى هذا الاستتاج عندي اقتحامه مجلس الحريم اللائي هممن بالاختفاء، لكن القائدة ثنت عزمنا، وأمرتنا بالنظر إليه كما تنظر المرأة إلى حليلها!!! كان عاري الرأس، كثيف شعر الذقن طويله، عريض المنكبين، حذاؤه العسكري يبلغ منتصف الساق. أخذ يتفحص، الحريم، يمرر بصره عبر تضاريس أجسادهن، يقف أمام هذه ثم إزاء تلك... يقشّرها يزيل ثوبها عن جسدها بعينين يخترق لئزُرهما خمارها ليرعى حقل جسمها، بتلاله وهضابه وسفوحه قطعة، قطعة وكل ما فيه يصرخ جوعا..

تم سُحننا في حافلة عسكرية مغطاة، لا نعرف لنا اتجاهها... وصلنا ضيعة لم يُعتن بها منذ وقت طويل... كنسنا ونظفنا ورتبنا. في منتصف الليل، وفدت علينا جماعة من الرجال.. نادى القائدة: "شذى القمر"، وقفت سيدة في ريعان الشباب، خرجت إلى غرفة بها رجلان أحدهما صاحب اللحية المخلاة الذي سبق له أن انكشف علينا، أما الثاني فلا يبدو من ملامحه غير عينية، وسط غابة من الشعر كثيفة، قال الملتحي:

- هذا المجاهد البار يرغب في الزواج منك.

- كيف يا سيدي وأنا امرأة متزوجة ولي طفل، ولقد زهدت في الحياة، وتخلّيت عن زيتيتها من مال وبنين ابتغاء مرضاة الله؟

- ألم يحدثك زوجك؟

- بلى، لقد حدثني عن الجهاد، وحثني على الفوز بالشهادة.

- هذا هو جهادك الحقيقي ستسعدني وستنالين رضا الله بقدر ما تُسعدين هذا الرجل الذي جاء من بلاد بعيدة لنصرة قضيتنا والجهاد في سبيل الله، ليس لك أن ترفضني، فأنا أمير الجماعة وولي أمرك، من يزوجك.

- ولكنني متزوجة، ومتى شرع التعدد للمرأة؟ وبعد كل هذا وذاك أليس الزواج برضا المرأة؟

- يا حرمة، لا بد أن معرفتك بأمور الدين والشريعة ناقص، أتجهلين "نكاح الجهاد"؟

- نعم سمعت به، لكن لن يكون كما تدعي. بحثت كثيرا ولم أعثر لهذا المصطلح في المعجم الديني على المعنى الذي تلبسه إياه.

- إذن أنت جاهلة بأمور دينك.

- قد أكون، لكنني أعرف المبادئ الأساسية لديني، أما ما تتحدث عنه فلا وجود له في كل ما تصفحته من كتب في الدين، وأنا أبحث لأكون فكرة واضحة عن الجهاد. ربما لها وجود في الكتب الصفراء التي تعطي الشرعية لأهواء أولي الأمور في انتهاك حرمت الدين. والتي مازلتم تلوكون فيها كيفية الوضوء والتيمم والاستنجاء والاستجمار وكيفية تحريك السبابة أثناء التشهد ووضع اليد أثناء تكبيرة الإحرام، والوقوف ما بين الركعات. وما الحكمة من الاستنجاء قبل المضمضة وهل يجوز عوض المضمضة فرك الفم والأسنان بالفرشاة والمعجون. تلك الكتب ذات العناوين المخيفة كلها لا تخوض إلا في الشكليات كالاعتناء باللحية الأنثى، وملاحقة الشارب الذكر بالسلاح الأبيض. وتلك الكتب التي لا هم لأصحابها سوى إهانة جداتهم وأمهاتهم وأخواتهم وبناتهم.

نظر إليها الولي نظرة تكفير، ونظر إلى العريس/ الزاني وحكم عليها بالتأديب قائلا:

- إني زوجتك "شذى القمر" فهل تقبل الزواج منها يا أبا براز؟

- لقد قبلت،

أَمْضَى الرجل على ورقة بسطرين، وحملت المرأة قسرا على البصم، وأردف الولي

- هي لك، أديها، وأحسن تأديبها، حتى تروضها، فالدابة لا تنصاع لصاحبها إلا إذا انهال عليها بالضرب المبرح.

بعد مقاومة شرسة، وجدت نفسها في حضن جسد عفن تفوح منه رائحة لم تنشق يوما مثلها، وأمام ضعف حيلتها استسلمت، طلبت من الرجل أن يطهر، لكنه برر رفضه بالظرف الذي لا يسمح، وادعى إرجاء الاغتسال إلى ما بعد الواقعة، توفيراً للماء الذي أصبح عملة نادرة. استسلمت مكرهة، أسلمت جسدها دون رغبة، لم تكن واقعة، بل كان وقوعاً. تكرر الوقوع مرات إلى أن خر الرجل من شدة التعب واستسلم للنوم طويلاً، ما انشغل بوضوء ولا باغتسال بين الوقوع والوقوع، حاول الوقوع لما استيقظ لكن صاحب الشأن ظل غارقاً في النوم. قبل مغادرته الغرفة سمعت منه "أنت طالق.. طالق.. طالق" حمدت الله وشكرته أنها طلقت من خنزير لا يعرف طهارة ولا قبله... ما كادت تمضي بضعة أيام حتى نودي عليها من جديد، لتجد وكيلها وزوج المستقبل في انتظارها.

- أنا وكيلك زوجتك هذا الرجل.

أصابها الذهول.

- لم يمر على طلاقى بضعة أيام، وها أنا أجد عريسا في انتظاري. هل أنت في كامل قواك العقلية يا من نصبت نفسك وكيل؟

- أجل، وكيف تجرئين على الاستهانة بولي أمرك؟
- حاشا، لكن أراك نسيت قوله تعالى... "يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن...."

- لم أنس، فذاك في الزواج المدني، أما نحن الآن ففي وضع مختلف..
- وماذا عن النسب؟ لمن ستنسب الحمل المحتمل؟

- في نكاح الجهاد يلغى النسب، أو قولي ينسب الوليد للمجاهدة..

- يعني يعود للمرأة، كما هو الشأن عند قوم موسى، وماذا عن الرائحة التنتنة التي تفوح من هؤلاء المجاهدين، ألا يتطهرون، ألا يتوضؤون؟ كيف يستقبلون القبلة؟ لم أر طليقي يغتسل ولا حتى يتيمم، هل الطهارة مرفوعة على المجاهدين؟

- اسمعي يا هذه، لقد بدأت أشك في إيمانك، ألم تدركي بعد أننا نجاهد الكفر، عودي عن غيك وإلا أعدمتك في الساحة حتى تكوني عبرة للأخريات.

- بلى أدركت نوع الجهاد الذي تأتبه...

كان هذا زواجها الثاني الذي انتهى بالطلاق، وما أخذت قسطا من الراحة حتى عادت القائدة تطلبها لتجد، القواد صحبة زبون ينتظرانها...

شاء القدر أن تُضم إلى الفريق فتاة شقراء من بنات عيسى غضة طرية ما كادت تتجاوز ربيعها الخامس عشر حتى حان خريفها.

يبدو أن للفريق كله وكيلا واحدا. واليوم جاء الوكيل وحده لا يرافقه عريس، لعب دور الولي و دور الشهود ودور العريس، ولما كانت الفتاة قاصرا تقمص دور القاضي أيضا.. زوجها نفسه. دون أن يتلو دعاء النكاح، شرع يطؤها، من قبل ومن فم ومن دبر. لم يرحم تمزق جسدها، ظل يلهث، ويتصبب عرقا دون أن تتوقف حركته، والجسد النحيل يرتجف دون انقطاع، ورقة تعصف بها الريح. غابت الضحية عن وعيها جثة هامدة وحركة الشيخ تزداد هيجانا... مر وقت غير يسير قبل أن تعود إلى الحياة، في نصف وعيها وخوار قوتها، ما كادت تفتح عينيها حتى أحكم قبضته عليها يعاشرها بالمعروف!!! حاولت الصراخ فلم تقو، تزيدها حركته المهتاجة ضعفا على ضعف تسمع لهثه زئيرا، ينبعث من بئر عميقة وما زالت البئر تزداد عمقا والصوت يزداد فتورا وما زالت قوتها تفتت وتخور والصوت يغور إلى أن أسلمت الروح لباريها وهو ما يزال على حاله، يلتهم جيفة انقض عليها مستعملا تقنية "البول دوغ" لم يدعها حتى قضى وتره. انتظر طويلا قبل أن تهدأ حلقة إسته، وأخذ يستعد لجولة إضافية، نظر إلى وجهها، ما تزال عيناها مغمضتين، تلمس يدها وقد تصلبت، جس نبضها وصاح: لقد استشهدت زوجتي!!! الله أكبر!!! ولا إله إلا الله!!! أبشري باللجنة!!! نعم الاستشهاد!!! وخرج كل من كانوا في الضيعة يربطون أحزمتهم، يكبرون ويهللون ويرقصون فرحا، بأميرهم الذي حقق أكبر إنجاز، أسدى للأمة خدمة غير مسبوقة، استطاع أن يبعث زوجته إلى الجنة، وفي ذلك فليتنافس المجاهدون!!!

بقيت في الضيقة، أستقبل الوافدين على سريري ليل نهار، وأسلوب أبي زيان في إقناعي يرن في أذني، من أين كانت له تلك الرقة وذاك الحنان المجاني الذي لم يطلب له مقابلا على غرار الذكور. وبأية صفة كان يغرقني في الهدايا، ولماذا...؟

أتزوج وأطلق أسبوعيا عدة مرات، طيلة السنة، من الرجال من تزوجني عدة مرات متباعدة، راعني الزواج في أيام شهر رمضان بدعوى أنهم مجاهدون ينتقلون من مكان إلى آخر كالمسافر، من كان منهم مجاهدا، فحلال عليه شهوة الفرج ولا عدة ولا قضاء ولا كفارة... أخذت أفكر في طريقة تنفّر الرجال مني، لكنهم لم يكونوا يميزون بين الأحياء والجيف، أما أن يحترموا المحيض فأمر غير وارد عندهم. بدأت آثار المرض تلوح على محياي مدة طويلة قبل أن ألزم الفراش... تزورني الطيبة في مخدعي، حيث لا وجود لآلات الفحص المتقدمة، ولا مختبرات للتحليلات الطبية، مجرد معاينة باللمس وجس النبض والاستماع إلى دقات القلب الذي لم يعد يبض إلا ألما، افتقد كل أسباب المشاعر الراقية والأحاسيس النبيلة... تدهورت حالتي الصحية مع آخر أيام حملي، نقلت إلى مستشفى متحرك على متن شاحنة، خضعت لعملية جراحية قيصرية بأدوات بدائية، ولما استعدت بعض قوتي وسألت عن وليدي، قيل لي أنه قد مات نتيجة لضعفه، لكن المرأة المشرفة على توليدي، بعد أن استعدت عافيتي وبعد أن استعادت هي الأخرى عافيتها من جراء الصدمة التي ألمت بها، كما زعمت. على إثر سقوط المولود بين يديها... قالت كان مخلوقا

بأربعة رؤوس ثلاثة منها في الحجم نفسه وفي المستوى نفسه وعلى جبين كل منها حرف بالخط الأعجمي، أما الرأس الرابعة فأكبر حجما وأعلى ارتفاعا صلعاء على قمته مثلثان متداخلان يشكلان نجمة. أخذت الرؤوس تتحرك فجأة في كل اتجاه، نبتت لها أنياب وأخذت تلتهم بعضها البعض والرأس الصلعاء تضحك ملء شديقيها، ولما رأى المسؤول هذه البشاعة أمر بخنق الرؤوس المتحاربة ولم يبق سوى على الرأس الصلعاء وكذلك كان... حكاية لا تصدق. لا بد أنهم حملوه بعيدا لحاجة في نفوسهم. خيرٌ حدث، ما كان لي أن أقدر على رعايته لو بقي حيا... حزنت لفقد ابني، حمدت الله على ما أعطى وأخذ. لا أدري كيف أسرت لي إحدى العاملات في الشاحنة أنها أيضا قيل لها أن ابنها قد مات، وقيل لغيرها الكلام نفسه، وحكت بعد ذلك وبدون مناسبة حكاية غريبة "أن امرأة منهن قضت مع المجموعة وقتا طويلا جيئها بغلام زوجا، لم يطاوعها قلبها أن تنكشف عليه مهما حاول ومهما تدخل الوكيل". وتذكرت ما حدث لأحدهم لما دخل غرفتي أحسست بدوار، أمسكت رأسي بين كفي، اقترب مني وضع يده على رأسي وأخذ غطاء سحبه على جسمي، وجلس ينظر في غير اتجاهي لما يقرب من ساعة من الزمن ثم قام وأعاد وضع يده على رأسي ثم انصرف...

أعدت إلى الضيعة حيث بقيت طريحة الفراش، أعاني من آلام فظيعة على مستوى الرحم، الذي أصبح مرتعا للجراثيم وحقلا للبكتيريا والمكروبات، جمعت ما كان يدفع لي مقابل كل زواج من "دولارات" بل بعض ما كنت أتوصل به مما كان يدفعه الزبون للقواد. ورحت أطلب وكيلى بنفقات كل

طلاق وبالسماح لي بالمغادرة للاستشفاء. رفض كلا الطرفين، ولم يُعد عليّ جواز سفري وشدد الحراسة عليّ... تداركني لطف سماوي، استفدت من مصيبة الموت الذي ألم بالكثيرات من النزيلات والزناة، على إثر قصف مروّع، أحدث ارتباكاً في الصفوف، فراح الكل يبحث عن مخبأ. استطعت تحت تلاحق القصف أن أجد لي سبيلاً للفرار، رفقة "شذى القمر". لم يعد لدي ما أخشى عليه، أصبح الموت بالنسبة لي خياراً أولاً في الظروف التي تحيط بي والوضعية المزرية التي أحيا عليها...

بعد فترة قضيتها في كنف شذى القمر التي عادت مباشرة لبيت والديها، بدل بيت زوجها القواد... أخضعتني مشكورة لفحوصات طبية عدة أثبتت أنني حاملّة لفيروس الإيدز. لم تسمح لي مضيفتي بالمغادرة حتى أستجمع بعض قواي..

زججت بنفسي في اغتراب مطلق، بل زجت بي الظروف حتى لم أعد أعقل ذاتي، لا أب أحاطني برعاية عندما كنت في أمس الحاجة إليه ولا الأم استطاعت أن تملأ علي فراغات نفسي. هربني "أبو زيان" من مخالّب ذئب نهش لحمي إلى أحضان "الزنى المبرر" أطلب التوبة وأسعى لنيل الشهادة غير أن روحي تمزقت كما تمزق رحمي... أقضي آناء الليل وأطراف النهار على صراط اليأس أرقب الرجاء، ومئات الأسئلة تجوب دروب ذهني الضيقة؛ كيف أخرج من هذا القمقم؟ كيف أجد لي دليلاً يساعدني على الخروج من هذه الأرض التي تغذي نيران الحرب على أرواح أبنائها أولاً وأرواح

الوافدين عليها إن طوعا وإن قسرا؟ وهل أعود إلى موطني الأصلي الذي طوح بي إلى حيث أنا، أم أبحث لي عن موطن آخر أجدد العهد مع غربة من نوع جديد؟ أم أجعل من الفضاء الواسع وطني؟ وكيف ذلك وقد فقدت كل أوراق هويتي وهل يوجد على الأرض وطن يستطيع أن يأويني غير قبيري؟ لقد تشظت روحي، وأضححت كل شظية منها بألف اتجاه فكيف أرسو على رأي.

تحدثت يوما إلى شذى أخبرها أنني عقدت العزم على الرحيل:

- أختي التي لم تلدها أمي، أختي التي آوتني وكفكفت دموعي يعز علي فراقك لكن لا بد لي أن أرحل.

- أن ترحلي نعم، لا أحد يستطيع منعك، لكن الوقت لم يحن بعد، فأنت ما زلت لم تتماثلي للشفاء بعد، الدواء، والحمد لله رغم ظروف الحرب، نستطيع الحصول عليه، وما زالت الحرب على أشدها والطريق غير آمنه، لذا لن أسمح لك بالرحيل حتى تشفي أو على الأقل عندما تضع الحرب أوزارها.

- أختي أستحلفك بالله أن تدعي لي بالتوفيق.

- لا لن أدعو لك اليوم حتى...

قاطعتها بزفر سنفوني، ينبعث دخاناً للهيبة من أسي.

- الشفاء الكامل أمر ميؤوس منه والحرب أتمنى أن تضع أوزارها حتى تعودوا إلى حياتكم الطبيعية أما أنا فلقد عقدت العزم.

- تريثي على الأقل لأيام، سأحدث أخني سعد لتوضيب أمر رحيلك فلا حافلة ولا قطار والمسافة جد بعيدة كما تعلمين وأنت مريضة قد لا تقوين على قطع المسافات الطوال...

فارة من الشرك الذي أوقعني فيه القهر الذي لا يرحم، انخرطت في طابور الفارين من جحيم الحرب يضعون نصب أعينهم الديار الأوربية، غير أنني أدركت أن وجهتي غير وجهتهم وقد اتفقت مع أحد تجار الفقر على الاعتناء بي طيلة المسافة لقاء قدر إضافي من المال أنيله ربع المبلغ، قبل الانطلاق، على أن أدفع الربع الثاني عندما أضع أول قدم على أرض النجاة، أما الباقي فعندما أضع قدمي في القطار الماضي إلى ديار الكفر الكريم، ملاذ اللاجئين الفارين من قساوة أوطانهم عليهم...

عجبت لهذه المهاجرات كيف ينجبن في ظروف الحرب، يحملن على ظهورهن وبين أذرعهن و في بطونهن. أكلهن مجاهدات؟ أيعقل أن ينجب عاقل في خضم الحروب، أم هي نتائج الاغتصابات المتلاحقة تفرض التركيبة النفسية الاجتماعية كتمها والسكوت عنها وتحمل عواقب نتائجها الوخيمة؟ هل الإجهاد الذي يعيشه المرء أنشئ كان أم ذكرا، من جراء الفراغ والبقاء مختبئا في البيت هو سبب المجيء بهذه البراءة إلى الجحيم؟ أم هذا من قبيل أعدوا لهم ما استطعتم من الموالييد؟...

الكائن في كل مكان، والألغام تنفجر غضبا من حين لآخر، ولا يمكن للموكب أن يتحرك إلا إذا عسّس الليل، يتلمس مسلكها نحو النجاة، ومع بزوغ الفجر تشل حركته، زيادة في الحرص والحذر، وللاستراحة والاختباء

من الشرور المحدقة، يختفي عن الأنظار طيلة النهار وبعض الليل. كان الحادي لا ينشد شعرا بل يظل صامتا يتحسس الأصوات، والموكب وراءه محمول على الرعب في اتجاه مصير مجهول مهدد بالموت في كل لحظة، من حين لآخر، تنخلع القلوب جراء دوي مزجر وترتفع سرعة نبضها، تترقب نزول قذيفة تنسف الأرض من تحتهم وتمضي في تغيير ملامح المدن والقرى. كانت المسافة التي يقطعها الموكب في اليوم لا تتعدى بضعة كيلومترات، تقضي جل أوقاتها في الخرائب تفرش الردم وتلتحف الدخان. ولا تتحرك حتى يتأخر الليل. آه كم كلف نفاذ الزاد ونضوب الماء، وطول الطريق والتعب، والمرض! كلف فاتورة تؤدي بالأرواح، تلتحق بباريها تاركة الأجساد ملقاة تدوسها الأقدام، يتسابق نحوها البعض قد يحظى بحذاء يدخره للحاجة أو بقميص أو سترة تقيه شر زمهرير الصقيع، قد يوارى الجسد التراب، وقد يتركه جزر الكلاب. تدب القافلة دبيب السلحفاة، والموت يسبقها، يتربص بها في كل زاوية أو مدار من مدارات الأيام أو يتعقب خطاها ليفترس كل من خارت قواه وفتر عزمه فتأخر عن الكوكبة أو شرد عنها. رغم مرضي، رغم هزالي، استطاعت رغبتني في تحقيق هدي أن تشحنني بطاقات مكتتني من النجاة...

فضلتُ العودة إلى حبي، رغم الندم الذي يتتابني من حين لآخر على تضييعي فرصة الاستقرار والعيش في أحد أقطار فردوس الكفر الكريم التي تطعم الجائع وتأوي الضائع وتكسو العاري وتداوي المريض، وتحترم إرادة الفرد، وتحقق له رغباته المعقولة والضرورية وتعاقب المذنب بقدر درجة

إذنا به. فضلْتُ نسمة الانتقام التي ستلفح وجه من ألقى بي في الجحيم .
اخترت رائحة الشقاء، رائحة مشوبة بضنان القهر و تنن الاضطهاد يفوح
في الليل والنهار تمتلئ به رثنا الفقير والوضيع، أما الغني والرفيع والعميل
والانتهازي ومن يمتطي متن الدهماء فيقدم له الأكسجين معبأ مصفى
فتستقبله رثناه مفلترا معقما... لما بلغت تراب ديارى كانت لهجتي كفيلة
بإثبات هويتي، لكن كان لا بد من الإجراءات الإدارية التي استغرقت وقتا
ليس بقليل. هان كل شيء لقاء معانقة ديارى حيث تمتزج العفونة بالقهر
والتجبر بالهشاشة، روائح البحر والسمك والطحالب تختلط بشذى النباتات
البرية التي تكلل الجبال المشرفة عليه. حيث باسم الأصاله يسود الانحراف
الممتدة جذوره في الماضي، حيث الأصاله التي تزعم امتزاجها بالحدائث
الوافدة من بلاد الكفر الكريم، ولا يخفى على أحد أن الحدائث لم تغد يوما
ليس لأنها عافت ديارنا أو أصابها الغثيان جراء روائح الفساد بل لأنها لم
تمنح تأشيرة الدخول التي لم تفز بها إلا بعد أن بتر ساقها، وغسل دماغها
واستبدلت بالتسامح والاختلاف العنف والتحجر... بعد الانتهاء من
الإجراءات الإدارية مع مصالح الأمن، ومصلحة الجوازات عانقت حريتي،
سجدت إجلالا للخالق وتقديرا له، شممت ريح تربة حيي التتنة..

يحملني شوق عارم لزيارة أُمي غير أني اخترت الاكتواء بحر الشوق ريثما
أرسم طريقا لحياتي - وأنا أدرك أني كنت أنانية فيما اخترته وأعلم علم اليقين
أن المسكينة لا هدف لها سوى إطفاء نار شوق شبت في قلبها منذ عهد بعيد
وما زالت تتلظى بها، تنتظر في صبر يعقوب أن تشم قميص حواء. لن أضعف

واستسلم لعاطفتي قبل أن أعيد بناء حياتي بطريقتي الخاصة. قبل أن أفجر ما يملأ صدري في جمجمة كل ذي لحية، بدءاً بمن رسم خريطة بؤسي وجعلها لي دليلاً، ركبته لتوصلني إلى حيث منابع الشقاء والأسى. لن أدخر جهداً في الوصول إليه. لن تستطيع الحياة أن تسيء إلي أكثر مما فعلت من قبل..

بحثت عن مقر جمعية المصابين بالإيدز، عرضت نفسي كمصابة أستفيد من الدواء، وبعد ذلك اقترحت نفسي متطوعة، وضعتني رهن إشارة الجمعية إن هي احتاجت لخدماتي. أقضي بياض نهاري متجولة وسط المدينة، تعرفتُ على مسالكها الرئيسية ومرافقها الإدارية وأسواقها العصرية إلى أن حصلتُ على عمل أقوم بغسل الصحون في أحد المطاعم، أعود في آخر الليل إلى غرفتي، الواقعة في زقاق شبه مهجور، خلف بناية المستشفى المركزي. لم أَمْش يوماً عزلاء، علمتني وحدتي في غابة الحياة أن أقهر الوحوش الضارية، حدث قبل أيام قليلة أن لاحقني أحدهم يبغي الاستمتاع بأنوثتي الخربة، حاولت رده بالتي هي أحسن فما زادته طيبة تعاملي إلا إصراراً، أمسك بي محمولاً على شبقه، حاول حملي بكل قواه إلى زاوية مظلمة ما أن طرحتني أرضاً حتى بخخت في عينيه مادة سامة، وثبتت بضربة بالسكين على وجهه، فحمله خوفه على الفرار، لكن مفعول البخاخ الذي أعماه ومضاء السكين الذي أدماه حالاً دون قدرته على الفرار ومنعا ساقيه من الإسراع، يسقط ويقوم، فلم يعد بإمكانه سوى الاستعطاف...

في ليلة ظلماء حزينه على البدر الذي اختفى فجأةً بينما كنت ماضية في طريقي إلى بيتي خلف مستشفى المدينة، لفتت انتباهي حركة سريعة قام بها

شبح أسود. وضعت السكين في يميني وعبوة الغاز في يساري، واستأنفت طريقي أتحمس وقع الخطو خلفي، وعيني لا تفارق الاتجاه الذي انتحاه الشبح. وسمعي يلتقط أدنى صوت. سمعت صراخا ضعيفا هل هو صراخ وليد؟ لم يكن من عادتي أن أكتفي بلعن الشيطان في مثل هذه المواقف، بل أستعد لمواجهته. كلما اقتربت أكثر اتضح الصراخ أكثر، بقيت محافظة على رداء الاحتياط، قد يكون كميناً، قد يكون صوتاً مسجلاً يستدرجني إلى حيث يختفي أحدهم. تجاوزت مصدر الصوت بخطوات، أحسست للحظة بالذنب، استعدت برب الفلق. دون أن أقبض على ما كان يدور بخلدني استسلمت لقلبي، عدت أدنو من مصدر الصوت أقرب في حذر شديد، بقيت واقفة لم أنحن عليه خشية أن يباغتني مكروه، إنه مولود حديث في لفافة بيضاء، استعدت وحوقلت وبسملت ووحدت بصوت مرتجف، أملاً فراغاً، لم أدر أكان في نفسي أم كان يحيطني، بسرعة فائقة التقطت اللفافة ضممتها إلى صدري وحشيت الخطي، ألفت تارة إلى الخلف وأخرى إلى اليمين ثم إلى الشمال ونبضي يكاد يغادر أضلعي. في خضم هذا الاضطراب انتابني إحساس غامض إن لم يكن مشفراً: أياكون هذا الوليد تعويضا من الله عن "عبد الله"؟ ألم يكن عليّ حيث رمت بي الأقدار بأمر عبد الله؟

ما هذا الجسم الصلب؟ الحمد لله! إنه رضاعة زجاجية معبأة، كفتني خطر الطريق إلى صيدلية المناوبة في هذا الليل الدامس.. تأكدت أن الشبح تخلص من الرضيع لأمر أقوى مما يتحمل. لم يغادره حتى اطمأن، لا بد أنه

ظل حيث اختفى حتى اطمأن على أني حملته وأنه في أمان. لن يكون الشبح سوى والدته، لا بد أنها تقتفي أثري حتى تعرف مسكني، غيرت نهجي وانحرفت عن مساري واختفيت في ركن مظلم حتى رأيت انسحاب الشبح وعودته على عقبيه خرجت من مخبئي واستأنفت طريقي...

كنت أصحب معي ابني "ع الله" إلى العمل رغم انزعاج المشرف، لم يلحقه والده بنسبه ولم تستطع الأم الحفاظ على سلامة كبدها فشقته والله أدري بحالها، وضع لا تعرفه إلا من اهتز رحمهن لاستقبال نطفة. حكم عليه بإلقائه في القمامة بنفس الذنب الذي حكمت به على جنيني بالموت. بأي ذنب يعيش في كنف غير والديه ليكتشف في مراهقته أنه متخلى عنه في مجتمع يدين بدين الحق؟ به مساجد من صنف خمسة نجوم!

كنت في طريقي إلى مقر الجمعية أو مقر العمل، أمر بسيدة عصرية المظهر تجلس إلى مقهى تأخذ فطورها، تدخن سيجارتها، تطيل النظر حتى يخيل إلي أنها أم الصبي تتعقبه بعينها، يحس الناظر إليها أنها غادرتا محجريها في أثره وكأن الأمومة اشتمت ريحه. استوقفتني ذات صباح سألتني عن حالي ووضعني ربما كان شحوب وجهي يشي لها بعجزني أو فقري أو حاجتي، سألتني عن الصغير وعمره واسمه. ضحكت لأخفي تخوفي من أن تكون والدته، وأنا أجيبها. قهقهت لما قلت لها أن اسمه "ع الله" وعلى هذه القهقهة ودعتني وعادت إلى جلستها، أربكت قهقهتها حساباتي، ومضيت وأنا أعيد ترتيب أوراقتي، أضع الخطة والخطة البديلة.. من يومها كلما رمقتني تبسم

في وجهي، وتحيني كلما صادفتها على كرسيها المعهود. حدث ذات مرور صباحي أن دعيتي لفنجان قهوة، أرجأته إلى بعد انتهائي من العمل، ولا أخفي أني كلما شاهدها خفق قلبي خشية أن تكون والدتي طفلي وقضيت يومي أفكر في طريقة أتجنبها كثيرا ما سلكت طريقا غير هذا، لكن سرعان ما أعود لهذا الطريق وكأني أريد أن أتأكد من أنها ما تزال خلفي... سألتني عن اسمي أدليت لها بهوية مزورة اسمي "أم الخير" وهذا ابني "ع الله" والده محكوم بالمؤبد، أما أنا فحكم علي بالمرض طوال الحياة مع البقاء في مستشفي الفقر على الدوام.

- وبماذا حكم على الطفل البريء؟

- أن يتقاسم البؤس مع والدته إلى حين تقرير بؤسه بنفسه، ماذا عساني أنتظر من طفل ولد، ويعيش في ظروف موبوءة؟ في حي تلد فيه الهشاشة والقهر بالجملة، والناس لا يتنافسون إلا على الإنجاب مادام لا يكلفهم شقاء، بل على العكس يكلفهم لحظات من المتعة الجسدية. في حي يقضي الرجل يومه متسكعا يتفرج على الأجساد على اختلاف أشكالها وألوانها وما أن يصل إلى البيت حتى يأوي إلى معمل صناعة النسل، عجبت للطبيعة كيف نظمت الخصوبة عند الحيوان والنبات وكيف أخطأت لما أوكلت للإنسان مهمة تنظيم نسله بنفسه.

- ما رأيك في أن أنوب عليه في استئناف الحكم القاسي الذي أصدرته الظروف في حقه؟

- ماذا تعنين؟ أفصحي! هل أنت محامية، أم وكيلة قضاء؟
- لا هذا ولا ذاك، أعني أن يُمتنع بالبراءة والحياة وأن يخفف الحكم على والدته، لتتفرغ لحالها مادام القدر قد طوح بها.
- أمهليني بعض الوقت للاستشارة مع والده!
- لك ذلك!
- نفحت المرأة "ع الله" بورقة نقدية زرقاء اللون وطلبت رقم الهاتف.
- أشرت إلى الهاتف العمومي المعلق إلى الجدار بواسطة علبة، وقلت: "ستجديني في الاستماع"...
- أخذت أسوف، والمرأة تزداد تعلقا بالطفل... استوقفتني يوما وأبدت رفضي زاعمة أن والده يرفض الفكرة.
- سأدفع لك كثيرا لا تحرميني من هذه الفرصة.
- الناس لا يبيعون فلذات أكبادهم.
- أضمن لك أنه سيتلقى تعليمه في مدرسة خاصة، ثم أبعثه إلى أوروبا وأمريكا لإتمام الدراسة والتكوين ليعود فعالية في السياسة والاقتصاد يتولى أعلى مناصب الحكم وتسيير شؤون البلاد.
- لا استطيع! فالقرار الأخير لوالده.
- وكيف سيوفر له والده السجين ظروف الحياة، وأراك شاحبة لا تقوين على حمل نحافة جسمك؟
- قد يكون ضمان تقاعدي!

- كيف ستحملين الشقاء إلى غاية أن يكبر ليضمن لك تقاعدك؟ وبعد من يضمن لك أنه سيبليغ ما تحملين به أنت؟ لماذا تفرطين في هذه الفرصة واضمني حياتك من الآن؟

هزرت منكبي دون أن أنبس، وحلقت في عوالم المال والانتقام. أدركت أن هذه هي الفرصة التي يقال عنها أنها لا تقابل إلا مرة واحدة.
- وهل ستفرضين إذا ضاعفت لك المبلغ.

عرضت المرأة مبلغا مغريا جدا، تظاهرتُ بالرفض وتصنعتُ الحزن. وقلت:

- لا يمكنني أن أتخلى عن فلذة كبدي.

أخرجت من محفظتها شيكا وقعته ومدته نحوي، رددت عليها شيكها وأنا أقول لنفسي: إذا كان من الأمر بد فمن البلادة أن أقبل الشيك، كيف لي أن أصرفه ولا أحمل هوية، وبعد هل لهذه السيدة فعلا رصيد بنكي. قرأت اسمها على الشيك وقلت لها:

- اسمعي يا إلهام إذا تنازلت لك عن ابني هل تعدينني بالاعتناء به وتربيته؟ وكيف يمكنني رؤيته؟

- فأما تربيته وتكوينه فنعم وأما أن أتعهده بنفسي فشيء غير وارد. وأما أن أعدك بجدول الزيارات فمحال.

- إذا كنت سأتحلى عن كبدي مقابل مبلغ هزيل كالذي اقترحته، ولن تهمله فأمر لن تحلمي به أبدا.

أحست الشارية أنها لم تكن مماكسة بارعة وبأن الصفقة ستضيع منها، بعد أن حققت تقدما كبيرا قبل الآن.

- إنه مبلغ مهم سيخرجك من المعاناة؟

- لا تفرحي، فابني ليس رخيصة حتى أبيعه، وخاصة لمن تهمله...

- لن أهمله بل سيكون بين أيادي أمينة تشرف على تربيته وإعداده، كم تريدان من المال مقابل فارسك؟

- أربعة أضعاف ما اقترحته، وبالأورو ومن فئة خمسمائة.

نظرت إلي نظرة الضعيف إلى القوي، ضاع منها كل ما ركبته من استعلاء من قبل، ارتبكت فخلطت بين كيف ونعم طانة أني أعجزها.. غاب عنها أني أمارس معها لعبة "البوكير" واعتماد تقنية التوليد بدون ألم في التفاوض. ودعتها قائلة:

- استوقفيني لما تكوني جاهزة وقبل أن أراجع...

غابت إلهام عن الأنظار مدة، وكنتُ كلما أبلغ المقهى المعهود أتصنع عدم النظر وبداخلي رغبة لا تقاوم، كلي انتظار، مسامي كلها انخرطت في عملية تحسس صوت إلهام. على بعد من المقهى وقفت أمام عربة سوداء ترتدي بذلة سوداء يتدلى على صدرها "إشارب" حريري أبيض، طلبت مني الركوب،

نظرت إلى الداخل لم أر أحدا. قالت: اصعدي لن نذهب إلى أي مكان، خذي وقتك لتعدي نقودك... لا أنكر أنني لما رأيت المال كاد يغمى علي، مرت علي لحظات أحسست خلالها أنني حققت بتخدير طبي، لكن سرعان ما عدت لرشدي. أسلمتها "ع الله" وكانت لحمه قد نمت بيني وبينه، لا أخفيكم أنني أحسست بألم وهي (اللحمة) تقطع، لكن "مجنر أخوك لا بطل" كانت بطاقتها فوق حزمة النقود، أخذت من المرأة "الإشارب" الأبيض سرحت فيه النقود وربطته على خاصرقي مباشرة على بشرتي، تركت الصبي في السيارة وترجلت... لم أسمع إلا: إذا كان لديك معارف يرغبون في التخلص من أبنائهم هذه بطاقتي أطلبيني متى شئت، لا تترددني.

...لا أدري ما الذي أعمانى على الانتباه حينها إلى ما جاء في عبارتها الأخيرة. أهو التفكير في الانتقام يدفع إلى إلقاء البراءة في الجحيم؟ مضت دقائق طويلة قبل أن أتنبه. أحسست بضيق يملأ صدري، تراكمت على ذهني أفكار سوداء حتى ضاق عنها، تراحمها هواجس تنخر القلب، ووسوسات تذهب العقل. رباه ما الذي فعلته؟ وإلى أي مصير زججت به؟ لن تشرف على تربيته بنفسها، لن يكون ابنا لها وعندما أتخيل أن جسمه الصغير سيفكك قطعة قطعة وعضوا عضوا، تدخر في بنوك احتكار الأعضاء البشرية في السوق السوداء، ينخلع قلبي يغادر مكانه، حينما تستحوذ علي فكرة استعباده وإعداده في مشتل العنف وإدماجه في الخلايا الإرهابية، ويفعل بالنساء ما كان يفعل بي، بعد أن ذبح وبقر واغتال وقتل ما استطاع إلى ذلك جهادا. أو

يعود من حيث سيعيش ويتكون بهوية ورقية، وفي القلب هوية من يترصدون بالبلاد ليدمروها.. أصاب بالجنون. رباه كيف فاتني أن أربط بين مصير "ع الله" لا قدر الله وما يفعله أبو زيان، لا بد أن هذا الأخير مر بظروف مشابهة. ولم لا تكون هذه التجارة ضمن مهامه.. ركضت إلى أول مخدع هاتفي، ركبت الرقم لتجيني العلة: "الرقم الذي تطلبونه غير متوفر" عدت على جناح السرعة إلى المكان الذي تمت فيه الصفقة، لففت في كل المحيط، في المقاهي المجاورة، حاولت عبثاً مهاتفة إلهام مرة ثانية... أصبحت أرتاد المكان صباح مساء والإحساس بالذنب يلتهمني، لا أفكر في شيء سوى المصير المجهول الذي زججت بهذا الملاك فيه، أقضي جزءاً من يومي متسكعة بين المقاهي والصالونات بين النوادي والحانات، وقلبي يسير فوق أشواك الندم تحت وابل من قذائف الضمير على أمل أن أستعيد هذه البراءة، لكن هيهات، لقد فات الأوان، لن أعثر له على أثر.. لا بد أن أعضائه قد سافرت شرقاً وغرباً...

بقدر حزني على الصبي كان ينمو بداخلي تصميم على مواجهة الحياة، واقتحام غاباتها كحش أسطوري يفحم الأسود ويحد من شراستها ويرغمها على لزوم عرائنها".

الفصل الثاني

كانت ألسنة اللهب تطال عنان السماء، تعلوها تموجات كثيفة من الدخان، من حين لآخر تخرق سوادها شرارات كنجوم اشأبت من خلف الظلام. نار وقودها جنبات السوق الروحية الكبرى وتحفها. نار أزورية، لا يشرع لهيبها في الاحمرار قبل أن يبلغ ارتفاعا مقدرا، سرعان ما يخضع لتأثير الطقس ليصير تدريجيا دخانا أسود فاحما. لا حول لأشباه رجال الإطفاء أمام جبروتها. وقفوا مكتوفي الأيدي، يتفرجون كأنهم متواطئون مع النار، أو مع موقدها، ليس لديهم من آلات العمل سوى شاحنات وخرطوم تعمل بنظام أرض- أرض لا تقبل بغيره. أمام هذا العجز استقبل الإطفائيون القبلة يقيمون صلاة "الاستطفاء". واقفين يرفعون أكفهم إلى السماء يستعطفونها قد تغيث السوق. يبدو أن مسيري الشأن في هذا الحي وأمثاله قد أنفقوا كل شيء في صفقات السلاح للاقتتال فيما بينهم. لم يولوا الكوارث ما تستحق من اهتمام عمدا لكون نتائجها تدر عليهم الأموال الطائلة.. النار في أوج

نشاطها، غير آبهة لا بمن ولا بما حولها. مرفوعة الهامة فخورة بإنجازها تتحدى الأخضر واليابس، والمتحرك والجامد، تتحدى هذه الوسائل الهشة وكأنها تعلم بتواطؤ المسؤولين مع المشاشة التي تستدعي منهم الإبقاء على هذه الأدوات التي هُربت من المتحف دون أن يكون لها مكان في الحاضر، مثل هؤلاء الإطفائيين كمثل القوم الذين يرجمون الطائرة بالحجارة طمعا في إسقاطها. هذه المخلوقات المصابة بهشاشة الدماغ، تنظر إلى النار تستعرض فعاليتها، وإذا سألهم أحد اقتحام النار أجابوا: "لقد نفذت حمولة الشاحنة وخزائنها معا. وكأن واجبها تلخص في شق شوارع الربع، وزرع الرعب بصوت إنذارها حتى يتهيأ للناس أنها تسعى لإخماد نار جهنم. ويبدو أن صنادير الحرائق المزروعة في زوايا الشوارع هي الأخرى جفت شرايينها تضامنا مع أحياء الأحياء، وكأن الحريق تحيّن الفرصة الذهبية... الماء هناك وهنالك في الخزانات، على المرتفع، ومفاتيح الخزان في صندوق والصندوق في خزانة من معدن صلب والخزانة في برج محصن، تحرسه كلاب بخمسة رؤوس، تتمتع كلها بال- "فيتو" لا سبيل للخزان إلا بموافقة بالإجماع، أو بأمر من ولي أمر اليابسة يقدر حاجيات الأحياء، له الإمكانيات لحبس الماء في سد في السماء. كل القنوات مغلقة، إلى أجل غير مسمى. لا يمكن إزعاج ولي الأمر، أو قطع سهرته، أو قطع اتصاله في قيامه الليل، أو اتصاله مع رعاة مصالحه ولا يمكن تغيير مجرى ماء الأحياء الراقية نحو السوق إلا بتوقيع ساد اللهيب وساد الجفاف وإذا بجهنم فوق الرؤوس...

إذا رفع المرء بصره إلى السماء لا يرى إلا دخانا كثيفا تنفثه ألسنة حمراء، إذا خفض بصره وقع على حركة هوجاء، يقتحم الناس النار ذكورا وإناثا، شبيا وشبانا منهم ذوو اللحي الطويلة وذوات الجلايب المسدلة على جيوبهن، منهم "المكرفون" والسافرات، والكل في ذهاب وإياب، حركة اختلفت اتجاهاتها، بين داخل وخارج، مقبل ومدبر، بين ماش وراكض ومسرع. سادت فوضى الحركة، وكثرت الاصطدامات بين الداخلين والخارجين في سرعة يسابقون النار إلى الغنيمة، يخرجون ما تبقى من نفائس السوق، وما سلم منها من ألسنة اللهب. دون أن يحفلوا ببعضهم البعض، ولا بمن يصرخ من المنكوبين، ينقلون ما تقع عليه أيديهم من تحف. بدالي الأمر مثيرا، يقع كل هذا في أغنى وأقدس ربع من ربوع خير أمة أخرجت للنار، روح التضامن وحسن التعاون طبقا لمثل شعبي: "إذا سقطت البقرة كثر السكاكين". سقطت ولن يكتب لها القيام. تمنيت لو امتلكت قوة سحرية وكان قرارى ملك يدي فأساهم في إبادة هذا النوع من الكائنات .

نظرت إلى وجه أُمي فلم أجده كما عهدته صبوحا مشرقا. لقد علتة مسحة حزن صفيقة، لم تقو لوحدها على ترجمة حرقه القلب، فطلبت يد العون من العين الكريمة التي لم تتوان في مدها بدمع غزير. لم استوعب سبب ألمها إلى هذا الحد ولا عرفت له تفسير، غير تقواها وورعها وهول الكارثة التي حلت بالمكان... اكتفيت بالتسليم أن للمؤمنين غيرة على مقدساتهم، وعجزها أمام هذه المصاب الجلل هو من فتح صنبور دمعها.. سمعتها تقول: "انتظروا هنا

لا تتحركوا، سأعود". ثم انطلقت بسرعة تخرق الجموع، وتقتحم النار كمن تخشى على السوق ونفائسها من التلف والضياع وكأن تحفه قطعاً منها. حملت والدتي نفسها وانطلقت كالسهم وكأنها لم تحفل بنا.. بقيت وأخويّ عمراً وزيدا متسمرين في مكاننا لا يفارق بصرنا هذه الحركة التي لم تعد تفهم، ما هذا الخصام بين ذانك الشخصين وعلى صدريهما نياشين وعلى أكتافهم نجوم؟ على ما يختلفان إذ لا مجال للاختلاف؟ أخرج الملتحي من تحت المعطف الأسود الذي يرتديه فوق العباءة سلاحاً أبيض بطول سيف وضعه على رقبة الرجل الذي يرتدي زياً بألوان جيش الغابة، أسرع العسكري إلى إخراج سلاحه الناري ليصيبه على مستوى صدره، انسحب الأول عاجزاً مثقلاً بإصابته وجرحه، يجر خيئته، وشحن صاحب السلاح الناري عشرات التحف في سيارة نقل البضائع كانت معدة لهذا الغرض، تغيرت الحركة في المكان، أو بعبارة أصح أصبحت أعني اتجاه الحركة، مرت فكرة غياب أُمي في ذهني محدثة رعباً بقلبي سرعان ما انشغلت عنها بما أراه، فهذا يجري حاملاً بكلتا يديه ما استطاع حمله وذاك يجر كيساً متخماً وتلك أصبح صدرها منتفخاً حتى تمت لو لم يكن لها ثديان لتشحن موضعهما ولو مصباحين ذهبيين، والخصومات لا تتوقف. والحالة تلك وصلت قوات مسلحة بقبعات تميل إلى الزرقة وليست بالزرقاء، أو هي زرقة بلا لون ولا طعم تتلقى أوامر بلغة لم أفهمها، طوقت السوق وأغلقت جميع المنافذ. اصطفت عشرات سيارات القوى المسلحة لتشحن كل من كان بالسوق.. خفنا من الهول على والدتنا.

طلبناها على الهاتف من مخدع قريب فلم ترد. طلبنا والدنا، أخبرناه، أفادنا أنه سيبحث عنها وطلب منا الانتظار، بعد أن سألنا عن مكان تواجدها...

في الطريق إلى البيت أخذ والدي يطمئنا:

"بدون شك هناك لبس، لا يمكن الحديث عن معرفة ما آلت إليه والدتكم الليلة، وعلينا الانتظار لغاية اليوم الموالي."

إشارة ضمنية منه أن والدتنا في ضيافة الشرطة. أخذ ينعت رجال القوات المحافظة على الأمن ويتهمهم بعدم القدرة على التمييز بين المواطنين الشرفاء المؤمنين بالقيم الإنسانية. وكيف تسول لهم أنفسهم أن يسوقوا امرأة ورعة تقية مسؤولة ضمن قطيع المجرمين. وختم بتوعدهم بالمقاضاة حتى يلقنهم درساً لن ينسوه. أما نحن الإخوة فلم ننس ببنت شفهِه. لما بلغنا البيت أسرع والدي إلى فتح الشاشة فإذا كل فضائيات العالم تتناقل خبر احتراق السوق المقدسة، وحتى إذا انتقلت إلى خبر غيره ظل شريط الأخبار أسفل الشاشة يتحرك بعناوين مختلفة: "أكبر سوق روحية تَحترق." "اللسنة النار تلتهم أكبر الأسواق الروحية في العالم." - "جهنم تهجم على دار الدنيا" - "جهنم قبل يوم الحساب". كان الحدث موضوع الساعة، أسأل الخبر الكثير، ملأت صوره أشرطة طوالاً، واجتهد المحللون في إبراز أسبابه وأبعاده. منهم من يعزوها لحادث تقني ومنهم من يذهب إلى أن وراء الحريق جهة تعمل وفق أجندة هدفها زعزعة استقرار الحي وإحداث ثغرات تتسلل منها قوى الشر الأزلي...

كان اليوم الموالي جمعة، خرج أبي بعد أن ارتدى ثوب الإيمان، ونحن مطمئنون أنه سينفذ ما توعد به رجال المحافظة على الأمن كما سمعناه منه في الليلة الماضية ومتأكدون من عودة أمي معه مرفوعة الرأس. قضينا الصبيحة نترقب وصول أمي، إلى أن نادى المؤذن لصلاة الجمعة. موعد لم أخلفه منذ سنتين خلثنا، دخلت المسجد مع صعود الإمام إلى المنبر وهو ييسمل ويصلي على النبي الكريم، اقتعدت مكانا، وأرهفت سمعي حتى لا يفوتني شيء مما في الخطبة من مواعظ وتوجيهات. كان موضوع الخطبة يرتبط بحريق الليلة الماضية. تحدث الإمام عن قوة النار، وقارن نار الدنيا بنار جهنم "وقودها الناس والحجارة" وعرج على ما تعاني منه الأحياء من تقصير السلطات في حماية المنشآت. قبل أن يتطرق لحكم السارق والسارقة في الدين. أما الجزء الثاني من الخطبة فخصصه للحديث عن فتنة السوق التي التهمتها النيران:

"لن أتحدث في هذا المقام عن اللصوص المحترفين وهم مستويات، لصوص المال العام ولصوص العقار، ولصوص الأسواق، أو اللصوص الهواة، وهؤلاء ألفنا شرهم وأخذنا نحتاط من أخطارهم ما أمكن، والسلطات لا تدخر جهدا لردع من كان عضده طريا، بوسائلها وإمكانيتها، ولقد اعتقل منهم ما يفوق أربعمئة سارق حسب تصريحات رسمية. ما يندى له الجبين، ما يستحي المرء منه، هو إقدام إخواننا الذين يؤمنون بالمساجد على السرقة، الذين تنظر إليهم يدعون أن قلوبهم وجلت عند سماع ذكر الله، أرباب عائلات وربات عائلات.. أتدرون أيها الإخوة المؤمنون أن رجال الأمن

ضبطوا العديد من المواطنين منهم الموظفون السامون والموظفات الساميات مسؤولون ومسؤولات في مختلف الجهات ورجال الأمن أنفسهم... مضيفا أن الحريق لم يكن حادثا بل كانت وراءه أيادي خفية، تأمرت على هذه السوق التي تؤمها أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل جميعها.

أحسست بجسمي يقشعر وقلبي ينقبض، أتكون والدتي ممن سرقن وألقي عليها القبض؟ لا أمي أشرف من أن تفعل، وضعنا المالي جد مريح، فأبي من أكبر رجال الأعمال في المدينة، يسدي خدمات جلي للمجتمعات قل وندر من لا يعرفه فأغلب المشاريع الإنمائية ترسو عليه و.... استغفر الله العظيم. لقد فاتني الكثير من حديث الإمام إذ لم أنتبه إلا وقد شرع في الدعاء، قبل أن ينزل من على المنبر ليقم الصلاة.

ظل والدي خارج البيت، انتظرنا على أحر من الجمر عودة أمي، لعل الموقوفين كثر وما زال دور أمي لم يحن بعد حتى تكشف عن هويتها، وعن براءتها، وأبي في زحمة الحدث، رغم موقعه الاجتماعي والسياسي لا يجد من يدلّه على ما يجري بالداخل... ليست والدتي من النوع الذي يقبع في زاوية حتى يُنادى عليها، فما بالك وهي صاحبة حق... وإذا لم تكن صاحبة حق، أ تحشر مع المجرمين وأصحاب السوابق القضائية؟ يا إلهي ساعدني على طرد هذه الهواجس المرعبة وهذه الأفكار السوداء عني. سأقوم - كما علمتني والدتي للوضوء وأداء ركعتين تريحانني من الوسوس التي تسيطر علي، ثم أختلف إلى المسجد أشغل نفسي بقراءة القرآن إلى أن يحين موعد صلاة العصر.

ما زال والدي لم يعد وقد أخذت الشمس تنجح للمغيب، ونحن لا ندري ماذا علينا أن نفعل، وحدنا في قصرنا الواسع. رن التلفون، أسرع أخي عمرو وأنا أدعو الله في سري أن يكون المتصل والدي، رفع الساعة، وبعد السلام والجواب عن سؤال عن حالنا، لم أعد أسمع إلا: "لا..لا..لا.. لا شيء" فعلمت أن الحديث عن الغائبين ليس مع أحدهما أو كليهما... كل ما يشغل بالي هو كون أبي لم يعر قلقنا أي اهتمام وهو من يحيطنا بحنانه ورعايته، لم يكلف نفسه التنازل لولوج مخدع هاتفي - ما دام قد نسي هاتفه بالبيت - ويطمئننا على حاله وعلى حال والدي، يبدو أن العواقب لن تكون سليمة. رن هاتفه أكثر من مرة فلم نجرؤ على الرد في الغالب هي نداءات المرؤوسين والمسؤولين عن الورشات والأصدقاء. حاولنا التواصل معه بدون جدوى. رن الهاتف من جديد وأخي يجلس إلى جانبه لا يبرح مكانة. رد على خالي الذي أخبره بقدومه لرفاقه ونشاركه مائدة الإفطار.

- لم لم تسأله عن والدينا؟ قد يكونان... لا لو كانا كما أفكر لأخبرك، أو لكانا قد جاءا مباشرة إلى البيت ما دامنا يعلمان مدى قلقنا. لا بد أن وراء هذا الاختفاء سرا خطيرا، وبدون أدنى شك، أبي هو الآخر عالق في المشكل.

- لا تفكر في شأن والديك بهذه الطريقة، عار يا أخي أن تسمح لنفسك بذلك. تحل بقليل من الصبر. إن الصبر مفتاح الفرج. أنت أكثر علما مني بشرف والديك، أليس كذلك؟

- "من فمك لباب السماء!!"

ركب أخواي المقعد الخلفي صحبة عدنان، وطلب خالي أن أجلس إلى جانبه، وصلنا وموعد أذان المغرب، ترجلنا أمام باب البيت واتجهنا مباشرة إلى المسجد... احتفت بنا كل من زوجة خالي وابنتها الشياء كالعادة، ولكن مع نوع من المبالغة، المزعجة، ما كدنا نفرغ من تناول طعام الإفطار حتى قام خالي يبغي الخروج. دفعني فضولي، بل قلقي أن أسأله عن وجهته لمعرفة ما يدور حولي. لاحظت عليه نوعا من الارتباك لما رد أنه يسعى إلى أحد الأصدقاء له حاجة عنده، فأدركت أن والدتي في وضع لا تحسد عليه رغم مركز والدي. لا أستطيع أن أحرك ساكنا، بقيت مكتوف الأيدي مشلول الحركة، كل ما أستطيع القيام به هو الصلاة، أسبح وأكبر، وأستغفر أكثر مما يتطلبه سني، ومن حين لآخر أجديني قد بعث للشيطان خطاب لعنة. التجأت إلى المسجد باحثا عن السكينة والطمأنينة. حاولت عبثا التركيز على الصلاة لكن هيهات، لم أسمع مما قرأ الإمام شيئا، كنت أتحرك بطريقة آلية، حملني انشغالي بوالدي إلى عوالم من أفكار تسمم كياني وتفقدني صوابي؛ ما عدت أعرف عند سماع "الله أكبر" أأقوم للركعة الموالية أم أقرأ التحية. حملت نفسي على التركيز أكثر، أتابع قراءة الإمام، إلى أن أفقت من سبحة حائر على صوتي المجهور الذي أزعج من كانا إلى يميني ويساري، أرسلت لعنة للشيطان، وعدت أطلب تركيزا يبدو أنه أصبح غاية لا تدرك...

وجدت أخي عمرووا ينتظرنني عند باب المسجد، وما أن رمقني حتى هب مسرعا نحوي. أمسك بيدي ورفع بصره ينظر إلي وعيناه تشيان برغبته في

إخباري بأمر جلل، لم يستطع الاحتفاظ به، نظرت إليه أومئ إليه أن يتكلم. نظر من حوله وكأنه يريد أن يطلعني على سر خطير، يحترس ألا يسمعه أو يراه أحد. ثم ما لبث أن خرج عن صمته، وقال بصوت مختنق:

- أخبرني "الشيء" بعد أن عاهدتها ألا أخبر أحدا، لكنني لم أستطع أن أخفي عليك.

- تكلم ماذا حدث؟ أيتعلق الأمر بأمي؟

- لا ليست أمي، بل أبي.

- ما به، أبي؟

- قبض عليه هو الآخر، وسيحاكم يوم...

- أمي قبض عليها ربما كانت تحمل تحفة، وأبي لم قبض عليه؟ لا بد أنه غضب وصدر منه، سلوك متهور جر عليه الاعتقال.

انتظرت عودة خالي على أمل أن يأتينا من المخفر بنبا السجين، لم أدر أتاخر خالي فعلا أم استبطأت إياه. أملى علي قلقي أن أطلبه على الهاتف، وأسأله ما لديه من أخبار عن والدي، لكنني عدلت لما انتبهت أنه لن يصدقني القول، مادام سبق أن أخفى عني خبر اعتقال والدي. بل قد يلومني على الاتصال به، ومن يدري إن للكبار أكثر من وجه، فأنا إلى حدود أمس لم أكن أرى لهم إلا وجهها واحدا. أعتقد أن عدم إشراك أبنائهم، وإخفاء الكثير من الأمور التي تهمهم، ولو مهمهم إن سألوا عن أمور تهمهم، أو ترتبط بحياتهم أو مستقبلهم،

هو الدليل على انفصام شخصيتهم، وفي هذا المجال، مجال الأسرة، نحن في غنى عن هذا التعدد.

انتبهت زوجة خالي إلى أني أقوم بحركات لا إرادية من حين لآخر، كأن أحرك يدي، كمن يعبر على الرفض، أو أبدي شرودا كمن يغرق في بحر الأحلام، أو أحرك رأسي ذات اليمين وذات الشمال فعل من يدغم التعجب في الرفض في الاستفهام. ولتخرجني من محيط انشغالي، بادرت، تمسك بيدي وتدعوني للانضمام إلى جماعة الأطفال الذين يستقبلون شاشة التلفزيون، منهمكين في تقمص شخصيات الممثلين أو الممثلات. جلست إلى جوارى، بعد أن طبطبت على ظهري، خلعت حركتها هذه ضربا من الإشفاق. جازاها الله خيرا، تعمل كل ما في وسعها؛ تتكلف إيجاد موضوع للحديث قد يشد اهتمامي؛ أثرت الحديث عن الحرارة المفرطة لهذا النهار، وصفته بقطعة من الجحيم، لولا وجود التكييف الهوائي داخل البيت لاختنق من فرط الحرارة. وأبدت إشفاقا على العمال الذين يقضون يوم عملهم تحت أشعة الشمس المحرقة. كانت وهي تتحدث تلتفت إلي من حين لآخر، كأنها تطلب مني تزكية ما تقوله، إلى أن لاحظت شرودي، تأكدت أن محاولتها باءت بالفشل. قامت تصب بعض الشاي في كوب وضعتها أمامي قائلة: "تفضل" ثم انصرفت.

أفقت على صورة "الشيء" تدخل من الباب، شد انتباهي، رغم معاناتي، حسنها اللافت، تختلف كثيرا عما كانت عليه مع موعد الإفطار. لعل التعب

المضاعف أثناء النهار، شقاء تحضير الإفطار من جهة، وما يترتب عن عطش الصيام في عز الصيف من إرهاق من أخرى، هو ما حال دون ظهور سحر هذه الآية. اقتعدت مكانا يقابلني، اجتريت من جديد السؤال عن أحوالي، تبغي إثارة الحديث معي، غفرت لها سداجة طريقتها لما شفع لها حسنهما، الذي أخذ يبدد الظلمة المنتشرة من حولي، وجه كإشراق الصباح، يلوح وسط فرع اشتد سواده، انسدت خصلاته الأمامية.. من أعلى الجبين، من مفرقه أخذت تنعرج شيئا فشيئا نحو الخلف.. تلامس رموش عينين لوزيتين كثرت رفاتهما. بحركة لا إرادية، من فمها تتحكم شفتها في نفس تبعثه ريحا لطيفة نحو الأعلى فترى الخصلات ترف حسب انسياب الريح وانقطاعها، وتمضي في نزوها تلامس الخدين قبل أن تتراجع إلى الخلف لتلتقي ببقية الشعر. ما كان لحديثها سلوة، حتى وإن كان له من ذلك شيء، فحسنها أحرص لساني وتعطلت وظيفته. لقد كان صوتها أرق من الهمس، يختزل كل رقة الأنوثة عبر الأزل... صوت يُرى، ويُسمع، ينبعث منه رحيق ينساب سحره مباشرة في القلب..

ها هو صرير المفتاح يبلغ السمع، وهو يغازل المزلاج بعنف، ها هي الخطى تتسلق السلم متثاقلة، أهذا من أثر السنين؟ أم نتيجة خيبة الأمل، أم هما معا؟... وقف خالي بالباب والأنظار معلقة إليه إلا ما كان من ابنته التي قامت لتعود تحمل كوب ماء، أمسك بها ثم ردها طالبا بصوت خافت إزالة سم البرودة (إضافة بعضا من الماء الساخن) اقتعد مكانه المعتاد، بعد

أن طلب العون من الله والنبى الكريم، والكوب ظلت في يده لم يرفعها بعد إلى مستوى فمه رغم ما يبدو على شفثيه من جفاف، يتأنى ما أمكن حتى لا يصاب بشر جراء التسرع في إطفاء جمرة الظمأ. طال تريثه حتى أضحي يثير أعصابي، فما دام لم يتناول الماء لن ينبس بينت شفة. أخذت أتحدث في صمت: هل هو عدم إحساس منك يا خالي، أم ما تسكت عنه أعظم من أن يقال؟ ألا ترى أني لم أعد أتحمل هذا الصمت القاتل؟ ألا تول قلقي وقلق أخوي اهتماما؟

- أراك عدت متعبا، ما بك؟

كانت هذه طريقة زوجته أم عدنان لتحمله على الكلام. أخذ نفسا عميقا والتفت نحوها وكأنه يتجنب أن تلاقي عيناه عيني، الشيء الذي يوحى بمداراته للحقيقة.

- إن صديقي عبد النبي، رجل الأمن، برتبة عالية كان قد ضرب لي موعدا ليأتيني بأخبار صهري، لم أعثر له على أثر لا في الزمان ولا في المكان. ربما لانشغاله بحادثة أمس. انتظرت طويلا قبل أن أياس. لكن "لا يغلق الله بابا حتى يفتح غيره". من العدم لاح أحد أصدقاء طفولتي، أطلال النظر إلى وجهي، يتفحصني، ثم ناداني باسمي، تعرفت عليه من أول ما نظرت إليه. تجاذبنا بعض أطراف الحديث، لما علمت منه أنه موظف في أمن الدولة، اغتنمت الفرصة، ليرافقني في مشوار هذا المساء "معرفة الرجال كنوز.."

سئمت من انتظار سماع ما يرتبط مباشرة بأمر والدي. كدت أنفجر وأنا أسمع حكاية خالي.

- لا بد أنه من ساعدك على...

- أجل لقد ساعدني ونعم المساعدة؛ لولاه ما كنت أتمكن من الدخول إلى قلب المخفر ورؤية كل ما يحدث هناك. يرجع إليه الفضل في إطلاق سراح والدتكم...

اندفع أخي زيد يسأل:

- أين والدتي الآن يا خالي؟

وأردف عمرو

- وماذا عن أبي يا خالي؟

- الحمد لله أن والدتكم أخلي سبيلها، أما أبوكم فلم أعثر له على أثر...

ساد الصمت من جديد في الغرفة، من حين لآخر يرفع أحد أخوي بصره نحوي وفي نظرتهم ألف سؤال معلق يداري الخال بلا شك الجواب عنه. أخذت عشرات الهواجس تهزني وعشرات الأسئلة تلهث عبثاً خلف أجوبتها مصطدمة ببعضها تحدث براسي فرقعات. لم احتجز والدي؟ أيكون قد تهور ولم يبد ما يكفي من اللباقة في مثل هذه الظروف؟ أيكون قد سلط لسانه بالشكل الذي كان يتوعد به رجال الأمن؟ إذا اعتقل فلا بد أنه لسبب وجيه،

يزج به ولا يسأل عنه في خضم انشغالات إدارة الأمن الحالية. إذا كانت أمي بريئة فلم يؤجل إطلاق سراحها إلى الغد؟ ولم لم يصبر خالي على إحضارها وهو من لا يفوت مثل هذه الفرص الذهبية ليزهو بإنجازاته، ويتباهى؟ لا بد أن حكاية سراح والدتي من نسج خيال خالي سامحه أو سامحني الله.

وقفت مستأذنا، دون أن أسأل، فتحت الباب ثم أغلقته دون أن يحدث ضجة ثم أطلقت ساقي للريح، ما توقفت عن الركض أبدا، انعطفت في الزقاق، فجأة أعمى بصري ضوء سيارة قوي تتجه مباشرة نحوي في سرعة جنونية. لم تمهلني من الوقت ما يسمح لي بتوديع نفسي "وداعا ضمير".



في المستشفى، وجدتني جسدا مستلقيا على الظهر، وكل طرف من أطرافني مكفن على حدة. حتى الرأس أحاط بها ضماد لم يعف من أسره سوى العينين. ومن تحت كفن الذراع اليسرى نبت أنبوب يربطه إلى كيس معلق إلى رافعة من معدن تقف إلى جانبي دون ملل. أما على مستوى الصدر، فنبتت عدة خيوط تصلني بأجهزة طبية تملأ جنبات الغرفة، تظهر عليها خطوط ومنحنيات وأزرار تختلف ألوانها بين الأحمر والأخضر. أنظرُ إليّ بعين تعجز عن فك رموز البياض الذي تحيط بجسمي، بعين تفقد الانسجام والتناغم الطبيعي مع العقل الذي لم يعد له علاقة بما تعبر عنه العين من استياء. أنظرُ إليّ بروح جوفاء إلا من غرابة تملأ أرجاءها. لقد تشلولتُ حتى عاد كل شلو نسيج وحده، فقد كل رباط مع الثاني فلا العقل يفهم ما جرى مع الجسم ولا

الروح تعي ما يفكر به العقل... تربطه بها خيوط وأنايب، عيناى مفتوحتان دون أن أرى شيئاً، مشلول الحركة، جثة هامدة وموت سريري. ألصق الناس وجوههم بالزجاج الفاصل بينهم وبين سريري، ذكورا وإناثا ينظرون إلي، ثم يلتفتون إلى بعضهم متأسفين على ما حدث معي، وهم يدعون لي ويدعون على من كان السبب فيما حدث معي.. أغلبهم لا يفهم ما حدث معي لعجزه عن ربط الأثر بالأسباب، ويعتبرونه ابتلاء من الله. ومنهم من وجد السبب انطلاقا من النظرية الشعبية التي تقول: "على الجراء يقع العقاب جزاء لما اقترفت الذناب" ومنهم من استدار لإخفاء أثر الحزن البادي على المحيا أو لمسح دمة وشفط مخاطٍ سائلٍ كاد يتجاوز عتبة المنخار منزلقا نحو أسفل الشفة العليا. منظر يرى فيه كل واحد من الحاضرين نفسه، فهذا يذكر والده يلفظ أنفاسه الأخيرة وقد تلقى استدعاء عاجلة من السماوات العلاء. وذاك يرى ذاته وهو يتلقى العلاج لما كان تحت تأثير أزمة قلبية كادت تودي بحياته لولا لطف من السماء، وهذه تذكر لوحة ارتسمت بذهنها تستيقظ كلما أججها مثل منظري تتعلق بزوجها الذي نقل متأخرا إلى مستشفى عمومي على إثر حادثة سير، فلم يؤل اهتماما وظل يسبح بدون حركة في نريفه، لا للإهمال ولا لقلّة العناية أو الوسيلة بل لأن الطواقم الطبية كانت تحتفل برأس السنة الميلادية المقدسة. وتلك سيدة لا يعرفها أحد وليست من العائلة، يقال إنها تحترف البكاء في المآتم، تستبطئ انتقالي إلى جوار ربي، تنتظر على أحر من الجمر الإعلان عن وفاي حتى تقترب ممن اعتقدتها والدتي ترشح نفسها

لتنولى مهمة الانتحاب والصراخ والعويل، وهي تدرك مدى سخاء الناس في مثل هذه المناسبات...

كانت والدتي الوحيدة التي سمح لها بالدخول إلى غرفة الإنعاش، تجلس إلى سريرى، وقد هدها التعب، يؤازره القلق المدعوم بالسهاد، شاحبة الوجه، لم تول أي اهتمام لزيبتها ولا لهندامها، بدت في صورة تختلف عما ألفها الناس عليها من اعتناء بنفسها إلى حدود أناقة كانت تثير غيرة والدي. تمسك بيدي ترخي تارة وتشد أخرى تبعا لذبذبات أمواجها النفسية التي تتحكم من الداخل في حركاتها الخارجية، إخالها تحرك رأسها أفقيا كمن ييدي رفضا أو نفيا والله وحده أعلم بمدى ما يثقل كاهلها، فمثل هذه الحركات لا تصدر إلا عن قلب مشروخ. تلوح حركة من يدها كمن يسأل أو يتساءل. رباه أهى حالة جنون ابتدأت تجد طريقها إليها؟! وقى الله أخوي شر فقدهما أمنا!!!

في هدوء الليل الذي يكسره من حين لآخر أنين مريض ينبعث من قاعة في آخر الرواق، انتابني ارتعاش غريب كأني موصول إلى تيار كهربائي يصعقني.. والألم يسكن كل جزء مني، زادته الحركة السريعة الناتجة عن الارتعاش ألما لا يطاق، "مرحبا أيها الموت، بل رجاء أسعفني وخلصني مما أنا فيه".

فجأة زالت آلامي، نظرت من حولي فإذا أنا في حجرة واسعة على سرير محاط بالآلات وأجهزة، أنظر إلى جسدي المسجى كما يراه غيري وهو واقف قبالي، أستطيع أن أنظر إلى وجهي المحاط بالضهاد وأرى عيني المعصوبتين،

وأطرافي ملفوفة في "الجبص" الأبيض، قدمائي مرفوعان، ويداى منصوبتان، أصابني هلع لم أعرف مثله من قبل، صرخت بلا صوت، أصابني رعب جراء ما يحدث معي.. انفصلت عن جسدي؟! هل يعني هذا أني مت وسينقل جسدي إلى المقبرة، وأنا أحضر وأشهد جنازتي؟! هل هذا ما يحدث مع جميع الموتى ولا أحد يشعر بهم؟! ستزور الممرضة جسدي وتعلم الطبيب ليحرر شهادة وفاتي، هل سأشهد والدتي تبكي؟! هل سأرى ضعفها؟! هل سيقتلني أساها مرة أخرى، كيف سيتقبل والدي واقع موتي؟ المعارف والأصحاب والأحبة سيواسونهم، في حين لن أجد إلى جانبي أحدا، لن يواسيني أحد، لن يتقاسم معي أحد معاناتي، الحياة في جسم يسبب الألم أهون علي من هذا الموت مئات المرات!... لم أستطع التحمل... أفقت متأخرا صبيحة اليوم الموالي، جد متعب، أول ما فعلته نظرت إلى جسمي فإذا الأمور قد عادت إلى نصابها. لعل الألم كان كابوسا مرعبا... كان حقيقة... لا كابوسا... لا حقيقة... جاءت الممرضة قامت بعملها الروتيني، ثم مر الطبيب تفقد حالتي وانصرف، أخذ العائدون يصلون، فما يكاد أحدهم ينصرف حتى يدخل آخر، كل هذا وأمي إلى جانبي..

من جديد أثناء الليل بعد غفوة والدتي أصابني هلع، أخذ سريري يرتج وجسدي يهتز ويهتز.. غبت عن وعيي، وانتهى المخاض وكان الميلاد. لما عدت إلى وعيي لم أرى أطرافا ولا جسدا، أحسستني معافي، نظرت من حولي فلم أر مخلوقا سوى أُمِّي ملقاة على سرير المرافق وجسد يكاد يكون مكفنا

"قطعة خوردة" ملقاة على قارعة الحياة، أخذت أتفقد جسدي، وجدّتي قد انفصلت عنه، لم أستوعب ما يحدث معي أهو تحول حقيقي أعيشه أم حلم؟. انتابني شعور غريب خاصة أني رأيت هذه المرة أطيفا تحيط بي وأخذت ترتقي في فضاء الغرفة وتحوم. لا أذكر أية قوة رفعتني حتى أمسيت أحلق ضمن الجماعة. يظهر أفرادها كقطع من سحاب شفاف في هالات تتغير أشكالها سرعان ما انسجمت وكأنني فرد منها منذ الأزل، فجأة لم أعد أر طيفا ولا هالة بل أصبحت أسمع لها أصواتا صعب علي الاستئناس إليها حتى كدت أبكي، أحسست برجة مباشرة، بعدها ابتسمتُ دون أن أدري هل يرونها. سمعت صوتا مفردا لا كالأصوات المألوفة وما فهمت شيئا.

تكررت معي الحادثة، كنت كالطفل الذي يقف أول مرة بباب البيت مندهشا لا يتجرأ على وضع قدمه في الطريق، مع مرور الأيام ألقت الخروج من جسدي والعودة إليه. تبادرت إلى ذهني فجأة فكرة محاولة التجول بعيدا، فعقدت العزم. انتابني ضجر من هذه القاعة التي يحكمها منطق الصمت، وتفوح منها رائحة الموت ويحيط بها جو الحزن البادي على العائدين، وهزني شوق لأخوي، حينئذ أخذ جسمي يهتز ويهتز وكأن طاقة ذاتية تحركه بعنف.. وجدّتي خارج جسدي. أغلقت خلفي بابه، وغادرت في اتجاه البيت محمولا على غير وسيلة نقل وبسرعة البرق. اقتحمت عالم أخوي بدون سابق إشعار. أه لو سمعا صوتي دون أن يريا جسد أخيهما "ضمير" لصعقا

أو لالتحقا مصيرهم بمصيري... تؤنس وحدتها "طاطا خديجة" وتشرف على شؤون البيت في غياب أُمي الموزعة بين المستشفى والسجن في عطلة من أنشطتها. كانت "طاطا خديجة" ترأس طاقم العمل المشغل في تنظيف المنزل "القصر" وتزينه استعدادا لاستقبال العُود والزائرين فلوالدي أصدقاء كثر. وهي فرصة الأذيال للتقرب منه والاستفادة من مشروع من المشاريع التي يديرها... عجزت عن محادثتهما واكتفيت بالاستماع لما دار بينهما:

- لماذا لا تريد أُمي أن ترخص لنا بزيارة أختنا في المستشفى؟ لقد اشتقت إليه كثيرا.

في غير اكتراث:

- هكذا يتعامل الكبار مع الصغار، لا يريدونهم أن يعرفوا الكثير من الأشياء، أنا شخصا لا أرى سببا يحول دون عيادة أخي.

- هل يعني أن هناك أمرا خطيرا فيما يخص أخي تخفيه علينا والدتنا؟

- كل شيء ممكن أو لم يظل سر والدنا مجهولا عندنا؟

- لا أفهم شيئا.

تمنيت لو طمأنتهما على حالي، لكن كيف وأنا منشطر؛ نصفني عالق إلى أنابيب ونصفي الثاني يخلق حرا طليقا؟ سوف ينصعقان بدون شك وقد تسوء حالهما أكثر من حالي. حمدا لله أني لا أستطيع التواصل معها.

هكذا يخطئ الكبار في حق الصغار؛ يبعدونهم عن الواقع ظنا منهم، أنهم
يجنبونهم آفة العدوى، يعتقدون أن الصغار لا يتبهبهون للخطايا التي يقترفونها
في حق مجتمعهم وأبنائهم وأنفسهم، يدعون أنهم حريصون على تربيتهم على
قيم المروءة والخير، يعتمدون عليهم، لكن الصغار وإن كانوا ضعاف الحول
أمامهم، فهم أقوى ملاحظة منهم، يخزنون في زوايا إدراكهم كل صغيرة
وكبيرة مما تمت ملاحظته. وقد يظنون أن ما أتاه الكبار من أخطاء هو عين
الصواب ما داموا قد أتوه دون خجل، وهكذا يسير الخيط مقتفيا أثر الإبرة.
حتى إذا كبروا ظللوا من حيث لا يدركون نسخة منهم.

كان والدي "صمغ" من الأعيان، وقبل ذلك مهندس الحي وأشهر رجال
الأعمال فيه، له مجموعة شركات، له مسؤوليات سياسية، وهو المهندس
الرئيس لحي بني كعب، أغنى أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل، يعود
إليه الحسم في كل ما يتعلق بتهيئة الحي خاصة المشاريع الكبرى، كالأبراج
والموانئ والمطارات هو الآن بصدد الإشراف على عملية بناء عدة منشآت
على أحدث طراز في كل جهات الحي، من بينها أعلى برج و أضخم مطار.
الغلاف الزمني جد ضيق، أوشك على الانقضاء وأبي يصارع بكل جهد.
فالجهات المسؤولة تستبطنه، لقد أعدت له فكرة مشروع ضخم وفريد من
نوعه يجب أن يرى النور في خضم الظروف الراهنة ... كان هذا المشروع

يقض مضجعه، بل يشغل باله ليل نهار انعكس هذا الانشغال سلبا على ما ينجزه من أعمال حالية.



كان قد مضى يوم كامل ولم يطلق صراح والدي، المرأة التقية الورعة التي كرس حياتها لخدمة الناس تحارب ضفادع البطون، وزمهير البرد وجراح النفوس.. رغم شعبيتها التي غزت الآفاق، ورغم مركز والدي الاجتماعي والسياسي ظلت في الحجز.

بقيت وأخويّ نعاني من الخوف على مصيرها تحت انكسار مجداف الوقت في خضم الانتظار. في البداية لم يول والدي الأمر أهميته بل كان متأكدا أن الاعتذارات ستثال عليه من مسؤولي إدارتي الشرطة والقضاء. لما طال انتظاره أمر السكرتيرة الخاصة بأن تجري اتصالا. لم تجرؤ على تبليغ الرئيس بما تلقته: (أوامر عليا) اكتفت بحمله على الانتظار: "اتصلت مرات والخط مشغول". سئم من الانتظار وطلب أرقام جد خاصة فلم يحظ برد. تطوع الكثير من مرؤوسيه والعاملين تحت إمرته، أجروا من جهتهم العديد من الاتصالات، لكن لا حياة لمن ينادون لا يحظون سوى برد مهذب من العلبة الصوتية. في البداية ظنا منه أن بمجرد أن يذكر اسمه تكون زوجته في البيت كلف إحدى الوظائف بإجراء الاتصال، وغرق في عالمه ظانا أن زوجته في البيت. اعتقادا منه أنهم سيخلون سبيلها لمجرد أنها زوجته أولا،

ولأنها تواجدت في المكان في وقت غير مناسب. بعث بأحد رجاله يخترق الزحام الذي يحيط بمقر ولاية الأمن، يصيح: "الطريق، الطريق" حتى ظنت الجموع أنه من كبار مسؤولي الأمن. لكنه ما أن بلغ المكتب المسؤول حتى رد على أعقابه.. فما كان على والدي سوى أن يقتحم مقر ولاية الأمن، يردد ويزبد، ويهدد ويتوعد... أمر أحد الضباط بإدخاله إلى مكتبه، حيث هدأ من روعه، وأخذ يسأله عما يسبب له هذا الانزعاج كله، وطلب منه الكشف عن اسم زوجته، الشيء الذي أذهب صوابه وضاعف خروجه عن صوابه ...

- سأحرق هذا المبنى فوق رؤوسكم، كيف تسمحون لنفسكم بهذا؟

- أوامر يا سيدي، ما أنا سوى أداة يا سيدي

طلب الموظف أحد رجال الأمن بعثه.. سرعان ما عاد المرسل بتقرير التحقيق الذي أجري معها، اطلع الضابط على محتواه، لاحظ أنها زوجة "صمغ" وأنزله جانباً. وواصل الحديث.

- تواجدت زوجتك داخل السوق الملتهبة، واقتيدت مع كل من ألقى عليهم القبض حسب التقرير بين يدي، بالضرورة أطلق سراحها مادامت زوجتكم. قد تكون في الطريق إلى البيت، ولذا أتقدم إليك نيابة عن فريق العمل بالاعتذار، فالحدث كان رهيباً، والإجراءات حقا تزعج الأبرياء.. لكن لو كنت رافقت عائلتك في جولتها ربما كنت جنبتها هذا العناء؟ كان استفزازاً ذكياً من الضابط.

- في الحقيقة، في هذا الشهر الفضيل لا أحبذ الخروج بعد الصلاة، أحس بالتعب الشديد وأبقى في البيت دون أن أغادره، على عكس أفراد عائلتي، يحبون التجوال..

أعاد الضابط فتح الملف، ألقى نظرة من جديد يقرأ في سره:
"- اسمك.. سنك.. عنوانك.. مهنتك ...

- بتول الخرمي، حي السنة، شارع الهدى، الرقم سبعة،

- ما الذي كنت تفعلينه بالسوق ليلة أمس؟

- في الحقيقة، لم أتواجد هناك صدفة.

- هلا تحدثت بوضوح أكثر؟

- كنا نتجول بين الواجهات التي تعرض الألبسة في محيط شارع الأمراء،
قد نعثر على ما يروق الأطفال.

- من أنتم؟

زوجي والأبناء وأنا... لكن زوجي غادرنا لأن طارئاً حدث وأن عليه أن
يلتحق بالسوق الروحية"

- كم كانت الساعة؟

- حوالي الواحدة صباحاً.

- وبعد.

- ولما بلغنا خبر الحريق، وأظلمت سماء المدينة، خفت على زوجي، لم تنجح محاولة مكالمته، وهملني القلق والخوف بسرعة وعلى وجه السرعة التحقت بالمكان دون أن أفكر في إيصال أبنائي إلى البيت.. رغم ضعف الإنارة، رأيته تحت ضوء النار مسرعا نحو داخل السوق،

- رأيت من؟

- زوجي.

- واصلني من فضلك.

- فجريت في أثره. لم أدخل لغرض آخر، ولم يكن لدي سبب آخر غير زوجي.

كتب الضابط على الملف عبارة، أغلقه من جديد، وطلب أحد العاملين تحت إمرته يأمره،

- خذ، أعد الملف، ورافق السيد "صمغ" واعتن به، وأردف يودع الزوج: "تحياكي لعائلتك الكريمة"

حمل الضابط جهاز الاتصال، كلم أحدهم...

طرق الباب، دخل، حيي، تلقى أمرا فخرج ليترك بابا في آخر الرواق، حيث دخل والدي خلف أحد المفتشين، يلقي للجالس خلف المكتب قصاصة وينصرف.

قال الضابط خلف المكتب: أنت زوج السيدة بتول الخرمي، السيد "صمغ"، مرحبا، تفضل بالجلوس...إذا سمحت سيدي، نود منك مساعدتنا عن طريق الإجابة عن بعض أسئلتنا.

رد والدي: العفو سيدي الضابط هذا واجب ونحن دائما في الخدمة "

- معذرة السيد "صمغ" سؤال روتيني: اسمك مع تحديد مكان تواجدك ليلة أمس بين الحادية عشرة والثانية عشرة من ليلة اليوم

- اسمي الكامل الصلت بن معاذ الغافري. بعد الصلاة دخلت مباشرة للبيت كنت قد أحسست بنوع من التعب، حتى أنني أخلفت الموعد مع عائلتي، كنت قد واعدتهم بالخروج معهم إلى السوق..

ركز الملاحظة وانتبه أن الخطة تسير بسلاسة كبيرة... اصطنع صفع جبينه وأبدى اضطرابا شديدا، وهو يردد بصوت مسموع: "رباه لم يكن سبب تواجدها بالسوق المحترقة صدفة، فهي لم تكن تعلم بالحريق عندما همست لها وودعتها .. يبدو أن تأخيرهم إطلاق سراحها كان دليلا على ابتلاع الطعم..."

- ماذا تقول؟

- لا شيء غير أنني أفكر جهرا.

استمر الضابط يسأل، ووالدي يصطنع مداراة أثر استفزاز الأسئلة لأعصابه فأحجم عن الكلام وهو يلعن زوجته جهرا: اللعنة.. اللعنة..

عليك اللعنة يا بتول... يبحث في جيوبه عن هاتفه وهو يعلم أنه تركه في البيت.



في فضاء العودة من بيتنا بعدما رأيت انزعاج أخوي جراء عدم السماح لهما بزيارتي بالمستشفى، وجراء غياب والدتي التي لا تبارح مطرحي، وجراء غياب والدي الذي ما عادا يريانه. يحسان أنهما فقدوا كل سند لهما في هذه الحياة. عرجت على فضاءات المؤسسة السجنية، رأيت النزلاء معلبين في قاعات ضيقة، يتقاسمون شهقة أكسجين، وقد اختلطت بنسبة كبيرة من الغازات الصادرة عنهم، وهم يجهلون نصيب الفرد من الأكسجين المتجدد. والحجم الذي تحتاجه كل نسمة. لا بد أن والدي ضمن هؤلاء يعاني من هذا النقص المهول من شروط الحياة. لا فرق بين المرقد والمطعم ودورة المياه، جمعت المرافق فكانت واحدا. كيف يستطيع والدي العيش في هذه الظروف؟ لقد ألف الرفاهية والترف لن يستطيع التحمل.. بحثت طويلا بينهم، فلم أعثر له على جسد، أخذت أتجول في المرافق المحيطة، وفي الخلايا الانفرادية، قد أعثر على والدي في حالة مزرية، غير أنني لم أره في أية زاوية من الأماكن التي بحثت فيها.

لفت نظري خلف السور بيت أنيق بحديقة غناء تزيدها الأضواء جمالا. سرعان ما لاح لي باب مغلق يفضي من ساحة السجن إلى حديقة البيت. لن تكون خضرة هذا المكان سوى نتيجة لمجهود السجناء، لا بد أنهم

سقوها بعرقهم وتعهدوها بحبهم كجزء منهم، أفرغوا فيها كل طاقاتهم إن طوعا وإن قسرا. ولا بد أن لأبي، النزيل الجديد نصيبا أوفر من الشقاء حسب النظام المتعارف عليه في السجون.. دنوت أكثر فإذا هو شبه قصر محاط ببستان أغن.. حديقة صممت وفق هندسة راقية. ما زلت صغيرا عن معرفة أنواع الورود والأزهار المهجينة الألوان بدا البعض منها تحت الأنوار بألوان قوس قزح... سمعت قهقهات تنبعث من الداخل، امتزجت فيها خشونة أصوات الرجال برقة أصوات النساء، تراجعت لحظة خشية التطفل على بيوت الناس، رجحت أن تكون جلسة عائلية، ورغم الضحكات التي كانت تتعالى، رغم صدورها بطريقة لا تختلف عن ضحكات عاهرات السينما الطللية، لم أسمح لنفسي وأن الشبح الخفي بالدخول احتراما لخصوصيات الناس. ما كدت أدير ظهري لأعود على أعقابي - عفوا ما زلت لم أتكيف مع وضعي الجديد بعد - - حتى بلغ مسمعي صوت يشبه صوت والدي، توقفت، أرهفت السمع، وبحكم العادة، أبرقت للشيطان لعنة مجانا، تكرر الصوت، وتكررت البرقية. في حذر شديد، اعتذر مرة أخرى، ما زلت أتعامل كما لو كنت جسدا - سمحت لنفسي بالاقتراب أكثر. يا للمفاجأة بل يا للغرابة. ما تبادر إلى ذهني قط أن أرى السجين أميرا، والسجن جنة؛ حور وماء مسابح يصّاعد منها البخار. لمحت والدي ممددا على أريكة، على حافة المسبح تحيط به كائنات من بلور، منها جنس صلب صقيل بمحتوى سائل، يعتمر عمامة ذهبية ويتمنطق حزاما ذهبيا عريضا عليه عبارات بالحرف اللاتيني، تعرف به وتشرح محتواه، وجنس غض، طري ممتليء، مكنتز يأتي

حركات تحقق لها النبضات، يكشف للعين عن كل تضاريسه، عن المرتفعات بقممها، عن السفوح وحدئقها عن التلال والهضبات والفجاج وهي تتعرض لرجات، عتباتها أدنى من أن يقيسها سلم "رشتر"، في أعف الحالات يستر الجسد قطعتان، العليا لا تستر سوى قمتي التلين أما السفلى فعبارة عن خيط يحيط بالخصر وآخر يهبط بين الهضبتين ليمسكا معا من الأمام خرقة صغيرة مثلثة الشكل تقصر عن حجب جنبات البستان، تاركة الفواكه المطلة تسيل لعاب العين. لهذه الكائنات صوت بكلمات أرق من الرقة تلين لمفعوله جنبات الرغبة، إذا دخلن المسبح أضحى الماء في حالة استنفار وقد خرج عن هدوئه ينقل تيار الشبق في كل اتجاه. وإذا غادرن الماء بلغ تيار العيون، والعين ترعش قبل الشيء أحيانا. أعترف أنني ما سمعت أبي يتحدث هذه اللغة، لغة تبدأ من اليمين نحو اليسار، كما لم أر أو أسمع من قبل بإقباله على حياة اليسار بحورها و سواقيها. وها هو يحبي ليلة من ليالي الأساطير.. تهباً لي أنني أحلم، هممت بصنع خدي كي استيقظ من حلمي، لكن لا يدلي ولا خد، بعد فوات الأوان تذكرت أنني لست ألبس جسدي، وقد خرجت منه وغادرته على سرير المشفى. صدمني المشهد حتى كدت أغيب عن وعيي بعد أن فقدت توازني، واضطربت نفسي، حتى لم أعد أعرفني، كنت أعتقد أنني نشأت على الصدق والأمانة واحترام حرיתי، وعلى الشفافية والوضوح، كانت عناصر عضوية ساهمت في بناء شخصيتي. لكن يبدو أن هناك عناصر خفية دخلت من حيث لا أعني، ها أنا أكتشف بعضها منها متأخراً.. وجدتني لا أعرف عن والدي شيئاً، ولست أدري هل تعرف عنه أمي التي أنجبت

منه ثلاثة بطون شيئا. والذي ينعم بالحياة في قصر داخل مؤسسة الحرمان. يتحدث من اليمين إلى اليسار، لغة زرقاء اللون. عدت أسأل الليلة السابقة للحدث أسأله عن والدي، فوجدته يتجول معنا، يتفرج على الواجهات، قبل أن يرحل فجأة و يتركنا مع والدتنا. أسأله عن السر الذي كان خلف التحاقنا بالسوق المحترقة بأمر من والدي. أتكون لوالدي صلة بما حدث للسوق؟ من المفروض أن يعاقب إذا كانت له يد في احتراق السوق. من المفروض أن ينال عقابه إذا كان قد خرج عن حدود اللياقة في حق المحققين، لا أن يدخل الجنة. هل يفهم من هذا اللغز أن لوالدي أيضا صلة بما وقع للسوق؟ أتكون يد والذي آلة عملية حرق السوق؟ هل تواجد عربتي إطفاء فقط، وشح صنادير الإطفاء كان متعمدا؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن والدي سيغادر السجن إماما، يخطب في الناس ويعظهم وسيكون ممن يحجون سنة ويغزون سنة. يا لحال السجناء أمثالك ! أنت في قصر تحيي ليالي "رَشْدِيَّة"، صفت الموائد صفا، وقرعت الزجاجات قرعا، ورقصت الحسان رقصا وما سيلحق إذا عسّس الليل، وبلغ الرشد مبلغا من الغياب وتعاضم التصابي سيكون أعظم؛ كتل من اللحم على الخوان يلبي شهوة البطن وكتل لحم السرير يلبي شهوة الفرج. لا بد أن لي إخوانا في كل الأرحام وقد يكونون من لحم وعظم وفقر - عفوك يا رب -

منظرك الآن يا أبي ينسيني حالي، تواجدك في هذا المكان بما أنت عليه يشي بالكثير، كان أسفي عظيما على كون لا أحد في الكون يختار والديه، ولا هو يستطيع استبدلها بغيرهما. مهما بلغ استيائي فلا أملك إلا أن أرفق بنفسي

قبل أن أرفق بك. أتراني أعتقد هذا لأنني أعدم كل قدرة و حول. هل هذا هو حال كل ضمير يعي، بل يحيط بها لا يعيه الناس ولكنه عاجز مكتوف الأيدي مكبل الفعل؟ واقع، يا أبي، يظهر لي نفاق الكبار، على كل المستويات وفي كل الحقول. وتعدد وجوههم، وتعدد ألوان كل وجه، وانقسام شخصياتهم، كنت أرى فيك الطهر والطهارة، لا ترقى إلى مستواها طهارة ملاك، أما الآن فصورتك أماطت اللثام عن عالم يلعب فيه الكبار بمصائر الخلق والديار والأحياء. حان الوقت لتصحيح المفاهيم المغلوطة التي راكمتها السنين في ربرتواري، فكما مجدتك ورسمت لك صورة من الطهر، مجد غيري والده، ومجد المرؤوس رئيسه، والمناضل قائده، والمريد شيخه، ولذلك تراهم ما أن يتفوه الكبير برذيلة حتى تجد الصغار يصفقون بحرارة، دون مناقشة أو تدبر أو إعمال عقل، ويسيروا صما بكما على أثر خطاهم حتى ترسخ لديهم من حيث لا يفقهون حكم: الماضي مصدر الحقائق المطلقة والكبار دائما على صواب. وكل ما يصدر عن الكبار ومن الماضي مقدس، ويرعون فيه، وقد يحرفون التعاليم الدينية إذا دعاهم داعي نرجسيتهم ويصبحون من أهل الإفتاء، ويحيزون مصاحبة الشيطان، ويبسحون التحالف معه، ويضيفون الحقائق، ويصفون الأمور بعكس حقيقتها... إني إخالك يا والدي وقد تخدرت وودعت وعيك وثقل لسانك، بقدر ما خفت موازينك، تبوح من حيث لا تدري.

ما زال أمر إسراع أمي نحو السوق التي كانت تحترق، واقتحامها مدخله الملتهب، والقبض عليها، واحتجازها، واحتجاز والدي وإطلاق سراحها، والإبقاء على والدي، ثم حيثيات تنعمه حيث هو، يقض مضجعي ويحول دون إغماضي، رغبة قاتلة تحملني على الاطلاع على ماضي والدي الذي بلور حاضره على هذا الشكل. صممت على الاستفادة من إمكانياتي المتواضعة الحالية المؤقتة للوصول إلى صحيفتيه. وأخذت أفكر في طريقة أتقرب من خلالها من الجهة المسؤولة على تحييرهما، لم أعد أذكر كم ليلة قضيت في التقرب إلى الله أسأله أن يهيئ لي وسيلة توصلني إلى الثنائي المكلف بصحيفتيه... لا أدري هل كانت غفوة أم سنة أم نعسة قبل أن أستوقف هاليتين من نور. أصابني دعر كاد يفقدني تصميمي، جمعت كل قواي وركزت على هديني وتقدمت في ثبات ألقى التحية:

- عليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته

- وعليك سلامه تعالى ورحمته، هات ما عندك أيها الطيف الهارب من جسمه.

- أما هروبي عن جسدي فلضعفه وتشظيه حتى لم يعد قادرا على احتوائي، وأما حاجتي فبسيطة لا أرغب إلا في ما يحررني من القلق ويبعد عني الأرق.

- وما الذي يؤرقك ويقلقك؟

- معرفة من هو والدي، أعرف أنني أطلب مستحيلا، لكن عزمي على معرفة ماضيه وحاضره لا يقاوم، ولذا جئتكم متوسلا أن تمنحاني فرصة الاطلاع على صحيفتيه، أعرف أن تواجدي في هذا الفضاء في هذا الوقت حيث لم يسبق لكائن أن فكر في بلوغه، بطليبي الغريب هذا الذي هو من قبيل الأماني، لكن خوفي وكل خوفي مصدره أن يكون ماضي والدي بناء في الظاهر وهداما في الباطن.

- ألا ترى أيها الهارب من جسده أن في ما تطلبه منا، خرقا لسنن عملنا، نعاقب عليه؟ نحن على اطلاع على ظروفك، ومتأكدان من نقاء سيرتك ونبل انشغالاتك... اطمئن، لقد تلقينا أمرا يبيح لنا إفادتك، في إطار جد محدود.

- لا أذكر هل شكرت، أم أفقدتني لهفتي كل لياقة... لم أكن أدري كيف تمت الاستجابة، بدون تسويات إلى أجل غير مسمى أو طلب مصادق عليه يرفع إلى الجهات العليا... أجهزة التواصل أكثر تطورا مما على الأرض وإن كانت لا ترى ولا تسمع.

سمح لي بالاطلاع على صحيفة اليمين أولا، لم أولها أدنى اهتمام. تظاهرت بالقراءة وأنا مدرك أن كل حركة قمت بها كانت مراقبة، بعض صفحاتها فقط محبرة باللون الأخضر، وباقي الصفحات بكر لم يدخل به حرف. قلت في نفسي طانا وبعض الظن صدق، لا بد أن على قدر هزال الصحيفة اليمنى تكون دسامة الصحيفة اليسرى... انتظرت ريثما فتح لي باب تمنيت لو بقي

مغلّقا، ليس ما رأيت كتابا واحدا بل سبعة كتب وسبعة كتّاب لا يتوقفون على التدوين، كل كاتب مختص في نوع مختلف من الكبائر، وكل واحد منهم يستخدم سبعة أقلام يتراوح لون حبرها بين الرمادي والأسود. وكل كتاب بلون مختلف ما بين درجات اللون الرمادي واللون الأسود حتى تتعذر قراءة ما كتب بالسواد على السواد.

هذا هو والدي... لم أتعود التعبير عن حالي كما أنا الآن ولذا سأسمح لنفسني بالتعبير كأني مازلت ألبس جسدي لا أخفي مدى القلق الذي يتتابني، والتشظي الذي يطوح بي، والازدحام الذي تعرفه شوارع دماغي التي ضاقت عن الأفكار المتلاحقة لا أثر بين الواحدة والأخرى لمسافة الأمان، وأزقة قلبي الآهلة، حبل بالهواجس تصطدم ببعضها ذهابا وإيابا محدثة ضجيجا أقل منه إزعاجا ما يحدثه صبية الأحياء الشعبية يستفزون كلبا ضالا خائر القوة. ثقلت رأسي لخفة موازينه، وهو راض عن نفسه في عيشته، لو كانت معي أطرافي لرأيتها في اهتزاز كمن يفقد العصب المسؤول عن التوازن الجسدي، كل كتاب أثقل من الثاني، كل كتاب أنتن من الثاني. من أين أبدأ؟ هل أرتبها حسب الحروف الأبجدية؟ أم أبدأ باسمه كما أعرفه "صمغ" والذي نشأت على سماعه؟ لقد عثرت له في الصحيفة على أسماء كثيرة. أثناء مقامه بحي مالك الأشعري كان يحمل اسم "صمو"، "الصديق بن محمد الورطاسي" امتهن الهندسة المعمارية. سرعان ما اختفى دون أن يعلم عنه أقرب الناس إليه (زوجته و أخوي آدم وحواء) شيئا. التحق كمستثمر

في المجال الصناعات البترولية، والتجارة الحربية بإمارة بني معمر تحت اسم "دسدا" أما لما كان يعيش في فرنسا فكان اسمه (صقوم). صالح بن قويدر الموساوي.

لا بد من وجود حكمة من الوضع الذي أنا عليه الآن. ولا بد أن أستفيد إلى أقصى حد منه وأفيد أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل إلى أبعد حد. رغبة عارمة تستغرقني، تحملني على الغرق بين صفحات صحائفه. وفي ذات الوقت قوة هائلة تسحبني إلى الخلف، قوة كأنها من حضور أرواح والدي المتعددة والمختلفة، تملأ كياني رهبة، تثبط همتي، وتشيني عن عزمي. لا سبيل للتراجع، لن أخذل من منحني هذه الفرصة، لو لم ير أن ما أرغب في القيام به خيرا، ما كان ساعدي. لن أظهر أنا أيضا بمظهر جبن والدي سأمضي في طريقي لأنجز كل ما باستطاعتي إنجازه. هل يوجد في عالم الأرواح من حظي بفرصة كالتي حظيت بها؟ أتمنى أن يمهلني الزمان ما يكفي من الوقت حتى أطلع على عوالم والدي ووالد إخوة لي لا أعرفهم؟ وحتى إذا حدث وتحقق لي ذلك كيف يمكنني أن أفصح مخططاته، حتى تجهض نواياه أو نوايا الذين يستعملونه؟ عقدت العزم على المضي في الأمر مرحلة مرحلة على طريقة فرق كرة القدم لها مشروع سنوي ولتنفيذه تفكر في كل مباراة على حدة. في لحظة قوة انسحبت. وكان التحدي الأول هو لا مناص من الغوص في واقع والدي وماضيه: سأتحول متنقلا بين أشواك هذا وجحيم ذاك. تلفح طيفي نار سوداء تتراءى خلفها سيرة لا هي سيرة لإنس ولا

لجن، إن هي إلا مرجع ينهل منها إبليس والشيطان، و أكد هما في حاجة إلى ذلك. سأحاول بما أوتيت هذه الروح أن أترجم ما اطلعت عليه إلى لغة البشر، واعذروا تعسفي على الترجمة، قد تتأثر من جهة بمستواي المتواضع ومن أخرى بوضعي الحالي.

من جديد أصابني نوبة كالصرع، أو كالحاضع للصعق الكهربائي، كل عضو من أعضاء جسدي يضطرب في غير تناسق، وكأنه يسعى إلى لفظي إلى الخارج، وقد تحقق له ذلك. انفصلتُ من جسدي دون أن أسحب بابه خلفي. حلقت عاليا في الفضاء، فرارا من الجو المكسر للأعصاب داخل عائلتي وفي محيطها من جهة، ومن أخرى لنسيان حجم المشكل الذي أصبح يكبرني يوما بعد يوم، ووالدي لا ينفك يغرق فيه. انطلقت باحثا عن سكينتي بين المجرات بعيدا عن عالم الناس والأجساد، والنهم، والمؤامرات، بعيدا عن عالم جرائم ذوي المال والجاه والقوة والسلطان. ارتقيت فوق السحاب لأرى صفاء السماء، وزرقتها، كواكبها السيارة ونجومها اللامعة، وصلت حسب ظني إلى حيث لا يستطيع اللوث البشري أن يصل، تخطيت مجالات البرق وتجاوزت مستويات الرعد الذي طالما اعتقدته صوتَ الله الغاضب على من يدّعون أنه استخلفهم على أرضه، وما استخلفهم، لكنهم أنفسهم ينصبون، واقتعدوا العروش يقعونها، وهم يقعون مستقبل رعاياهم وهم عن وعي يفعلون.. تخطيت عتبات الصوت، واجتزت حدود الأكسيجين...

فجأة انفتحت بوابة من طيف على مصراعيتها، أصابني ذهول دون خوف. نظرت إلى يميني حيث ممر المستقبل كما هو مثبت. ألقيت نظرة على أفقه فبدالي عتمة، يكتفها ضباب كأن مهمتها حجب الرؤية، وإخفاء معالم الطريق، أحس بأشياء تمر عن يميني وعن يساري دون أن أميز شيئاً مما يتحرك أو ينتصب ساكناً. في أوضح الحالات، أرى وجوه أطيا فتعترى ملامحها تموجات وجوه فيها بعض الألفة، لكنني أعجز عن التعرف عليها. حاولت وأنا أنقل بصري بينها محاولاً العثور على أحد يكون هو من يتعرف علي، مادمت قد عجزت عن التعرف عليهم. غير أن العبرة بالتأنيج، إن لم يكونوا قد تجاهلوني فلا أحد منه تعرف علي. أجميعهم لا يمتنون إلى أحيائنا بصلة؟ أليس لبني عبد رسم وبني طلل حق في المستقبل؟ فنفرت منه وابتعدت. ما كدت أ تجاوز الممر حتى طرق سمعي: "من زور ماضيه، أفسد حاضره، فأوصد المستقبل الباب في وجهه". التفت لكن هيهات كان مصدر الصوت قد اختفى.. أيشعني دون أن يجرح كرامتي؟ أ لا يحق لي استعمال باب المستقبل؟ ألهذا تراءت لي الأحوال على ما رأيته عليها؟ أ يراها المرحب بهم بشكل مختلف؟ هل يجوز لي أن أحلم بلقاء مع من سهلا لي الاطلاع على سيرة والدي؟ سمعت الصوت نفسه يقول: "الماضي والحاضر والمستقبل زمن واحد لا يجزأ، من لم يقدر ماضيه لن يفوز برضى الحاضر وحده، أو برضى المستقبل وحده، فالمستقبل هو الحاضر غدا وهو الماضي لاحقاً.. لم ألتفت علما مني أني لن أعرثر على مصدر الصوت، خاصة وأن الخطاب أصبح أوضح من ذي قبل.

نظرت إلى يساري فرأيت ممر الحاضر. نفرت منه لا لاختفاء الرغبة عندي لكن لعلمي أنه لن يرحب بي، وما أن أقف أمامه حتى يوصد في وجهي. لم انخرط فيه مادام يرفض ذلك. سولت لي نفسي المحاولة لكن تقديري لسوء العاقبة حال دون التنفيذ... من خلفي سمعت صرير بوابة، لا بد أنها بوابة الماضي. أجل إنها مفتوحة على مصراعيها، تعبت بهما الريح. لولا ثقلهما ولولا قدمهما لاقتلعتهما. يبدو أن طبقات الطلاء التي تغطيها شوهت طبيعتهما. عليهما عبارات بخطوط مختلفة وألوان متنوعة، بعضها على بعض، وكأن كل حرف كان يسعى لنسخ ما سبقه. أصبحت تلوح للنظر فجوات بين لوح ولوح من الألواح التي تكونها، تنفذ منها بعض الأشعة الباهتة لتتكسر على الجدار المقابل. لم أسمع صوتا خلفي كما حدث معي أمام بوابتي الحاضر والمستقبل. لا أعتقد أن هناك مانعا من الدخول، خاصة وأن المقبلين عليه جد قليلين، لا ازدحام عليه كما هو الحال أمام بوابة المستقبل. لا أحد في الاستقبال، ولا أحد يحمل سلاح الرفض فالزوار سواسية، لا فرق بين صالح وطالح، ولا بين مستبد وانتهازي ولا صادق أمين وخائن ليثيم، ولا بين صاحب مثقال ذرة من الخير وصاحب مثقال ذرة من الشر...

اختلفت في هذا الاتجاه، فقادني إلى طبيعة أقرب أن تكون عذراء، لا زفت ولا قار يسود أديم الأرض، ولا إسمنت ينبت أعمدة شواهد تنطح الفضاء، ولا مدخنات تتحدى صفاء السماء، لا لوث ولا خوف على طبقة الأوزون، ولا طبقات تحت الأرض ولا أنفاق. لا منبهات صوتية ولا مكبرات.. هواء

نقي ينعش الأجساد.. مراعي واسعة وبراري شاسعة. هدوء ملفت للنظر لا ازدحام ولا تدافع.. يكاد الصمت يسيطر على الفضاء لولا أن كسرتة أصوات قادمة إلي من بعيد.

أصوات ترتفع تارة وتخبو أخرى، يمتد نحوي أثر حديث إنس أحياء يرزقون.. كأني أسمع صخباً كصخب الأسواق الأسبوعية. هل كذبني ما يسد مسد أذني أم خانني ما يسد مسد سمعي؟ فأنا في رحلتي هذه أبحث عن السكينة والهدوء. أفي الماضي أيضاً حياة صاخبة كالحاضر؟ ألا توجد سكينة في الكون كله منذ القديم؟ ترى لمن هذه الأصوات؟

وجدتني على مشارف واحة، فيها نخيل باسق الطول، وارف الظلال. جرى فيها الماء عبر ساقية صافيا مترقرا، يمضي نحو الحقول منسابا وقد قل خريه، تهباً لي وأنا على حالي أني داخل الجنة، دخلتها دون أن أمر بصراط، ودون أن أخضع لحساب ولم يلحقني عقاب. والأصوات تلاحق سمعي لاح لي على مقربة من القناة الرئيسية كهف، تنبعث منه علامات حياة إنسية؛ يخرج منه دخان ما أن يطل على الخارج عبر مدخل الكهف حتى تتبدد كثافته. فقلت في نفسي: "لا دخان بدون نار". دفع بي فضولي في اتجاه المدخل، ما أن دنوت قليلا حتى كسر الصمت صهيل حصان، التفت نحو المصدر فإذا هي أحصنة، وبغال، وحمير لأهل الكهف تقف إلى يسار فوهته. عنّي أن أضائل حجمي خشية أن يراني أحد ويظنني جاسوسا جاءهم من الحاضر، لكنني تذكرت أني خلفته على سرير المستشفى. اقتحمت المكان فإذا هو يعجب بشر

مثلنا، يشبهوننا في الخلقة، يتحدثون لغة قريبة من لغتنا، ولا يشبهوننا في الزي، ولا في طريقة العيش. يرتدون أزياء مزينة على مستوى الصدر بدرع بست زوايا محيطها أزرق اللون، لباسهم على شكل عباءة طويلة تكاد تتدل إلى غاية الكعبين تبلغ مستوى ، نعالهم مصنوعة من صفائر من أصل نباتي، تشد على مستوى الساق، يحملون سلاحا يكاد لا يظهر . وكلهم وقوف، إلا واحدا لا بد أنه رئيسهم، يخطب فيهم بحزم:

"لقد اجتمعنا اليوم لأطلعكم على فحوى الخطاب الذي وصلنا من "دأسز" عن طريق الإله الأعظم. وهو يدعونا لنرفع له التقرير حول ما تم إنجازه، ونطلعه على كيفية توزيع الأدوار قصد تنفيذ المشاريع المستقبلية، وقبل افتتاح أشغال الجلسة أود أن أتلو عليكم رسالة الشكر والتنويه التي شملتنا بها رعايته:

"نحن "دأسز" الإله الأعظم للعالم الأرضي نتوجه بالشكر الجزيل إلى من بعثت بهم سلطاتنا العظمى إلى ما وراء الأبيض المتوسط، شرقا وجنوبا وقد كانوا في مستوى تطلعاتنا، أتوا ما أنيط بهم من مسؤوليات على أكمل وجه، وعملوا للصالح العام بإخلاص وأمانه، ولقد توصلوا إلى النتائج كما خططنا لها، بل فاقت توقعاتنا، ولذا نحن "دأسز" نجدد ثقتنا فيكم، ونمدد في أعماركم أكثر حتى نصل معا إلى الهدف المنشود... وليكن في علمكم أن ثقتنا هذه التي زكتهما النتائج، ستظل قائمة وسنعول عليكم في حياتكم وفي مماثلكم...

ملاحظة: هذا التنويه موجه إلى جميع النشطاء بدون استثناء. التوقيع:
"مكتب دأسز، الإله الأعظم"

لم أستوعب شيئاً مما سمعت ورأيت... وكأن العهد بين ما حدث وما أنا عليه الآن بعيد جداً، فأنا بالكاد أتذكر وكأني كنت في حلم: ما أن انتهى الخطيب من كلامه حتى أحسست وكأني أصاب بدوار، يا إلهي فجأة بدأت صور الحياة تتحرك أمامي؛ هذا حقل أجرد أصفر، ثم سرعان ما يخضر ثم يصفر ثم يجرد، ثم يخضر ثم يصفر ثم يعود قاحلاً، في دورات. وهذا صبي مع هذه الدورات يضحي طفلاً ثم فتى ثم غلاماً شاباً ثم كهلاً. كانت سرعة الدورات فائقة تتضاعف سرعتها، تستعرض الصور أمامي متحركة بسرعة جنونية وكأن الزمن يتحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء لا أكاد أرى الصور بالكاد شريطاً متواصلاً... فجأة غزا سيف السكون الأجواء فلم أعد أسمع أو أرى شيئاً. كان هذا أصل الحكاية...

كانت الحياة حول الواحة تدب، ينتشر أهل الكهف في كل الأرجاء دون إحداث صخب، مسالمون، لا يحملون سلاحاً عكس ما رأيتهم عليه في ذلك الحلم. منهم من استقر بعيداً، ومنهم نزل بضواحي قصبة بنيت بالقرب من الواحة، قد عمرت أسواقها، وأخذت البيوت تنبت كالقطر، وإذا الحروب تنشب وأهل الكهف يسالمون الكل وإذا القبور تستأثر بمساحات داخل أسوار القصبة وخارج أسوارها، وإذا الأسوار تدك دكا وإذا هي ترتفع

مرة أخرى وإذا رؤوس علقت في مداخلها السبعة، وإذا الأضرحة تبنى داخل المدينة وخارجها، وإذا الكل شريف والكل يتبرك بالكل فإذا من هم تحت الأرض يضحون أصحاب نفوذ يساعدون من فوقها في أمور حياتهم يتوسطون لهم عند الله لضمان مستقر لهم في آخرتهم.

كان أهل الكهف من الوافدين على البلاد، الذين انتشروا في الأرض. ولم يعتبرهم السكان الأصليون غرباء، كانوا بالفطرة يتعايشون مع غيرهم ولم يكن الحكام يقسون عليهم أو يعاملونهم معاملة الغرباء ولا معاملة أهل الذمة. استغلوا في أهل الأرض طيبوبتهم الساذجة، وفي الحكام غفلتهم وانهماكهم في المشاكل المركزية وإهمالهم للأطراف المترامية من البلاد، خاصة أن هؤلاء الوافدين كانوا مسالمين إلى درجة الجبن، لم تبد لديهم نية الغزو أو الاستيطان أو الإساءة بأي شكل من الأشكال. ومع الأقدمية في المكان حدث نوع من الألفة، يعتمدون على الحوار مع من يختلفون معهم يركبون منطق الإقناع وأساليبه المؤثرة، وبذلك احتلوا مكانة في قلوبهم الأهالي، وأنزلوهم منزلة الجار، وعاملوهم معاملة الكرام، بل وعملوا بنصائحهم حتى راحوا يلجؤون إليهم في كل أمر من أمور حياتهم، إذا أشاروا عليهم بالإقدام أقدموا وإذا أشاروا عليهم بالإدبار أدبروا، وإذا أشاروا عليهم بالإحجام فعلوا، فأغدقوا عليهم المال ومكنوهم من العقار، ومع مرور الأيام والسنين فرضوا احترامهم على السكان الأصليين، بل اعتبروا الكثيرين منهم أولياء صالحين يستحقون التقديس، فأصبحوا يعرفون بالسادة وإذا ماتوا أصبحوا

أولياء تبنى لهم أضرحة. وعلى غرار أهل الكهف كان الأهالي أيضا يزورون شيخ أهل الكهف "بيون" خلال موسم الزيارة وتقدم له الهدايا. بل منهم من أوكله أمر حياته كلها. بل أكثر من هذا جعلوا منه المسؤول الأول على ماء الواحة الذي يسقي عبر شبكة مئات الفدادين بما تحويه من حرث ونسل.. أصبح الأمر والنهي، بيده الحل والعقل، يقدره الجميع. غير أن الكثير من الأحرار من الأهالي لم يكونوا راضين على الوضع، فأعلنوا غضبهم، وبعثوا أحدا منهم يبلغ السلطة المركزية، على خلاف الأغلبية الساحقة التي تعاملت معهم على قدم المساواة بعيدا على النعرة العرقية أو الدينية.. أمام هذا الوضع الذي رأى فيه "بيون" تهديدا لكيان أهل الكهف بالمنطقة، رفع تقريرا إلى "دأسز" يشرح الوضع ويستشير في كيفية التصرف وهو رجل مسلم بقوة الأمر وتنفيذ التعليمات. لا يمكنه أن يعلن الحرب ضد هؤلاء الأهالي. تلقى جوابا مفاده أن يحمل رؤوسهم مسؤوليات يشغلون بها عن مصالح أهل الكهف، ويغدق عليهم ويحكمهم في رقاب الناس فتعمي أبصارهم عما يدور حولهم فيكون هذا بمثابة ماء تطفئ به نار غضبهم، و طعم يستدرج أقدامهم نحو الفخ بعناية وإتقان إلى حين.. كان حكيم الحصن وقاضيه "إدريس بن المقدم" أشدهم معارضة يدعي حرصه على إشاعة العدل بين الرعية لا يمحكه خصم أو معترض مهما كان سلطانه. ولأه "بيون" أمر الإشراف على البساتين والرياض المسقية كلها ومنحه حرية اختيار مساعديه في المهمة الموكولة إليه وأهداه جارية، غاية في الحسن. هكذا اتخذ الحكيم مسكنه وسط الفلاحين، بعد أن منّ عليه "بيون" بإقطاع خاص به. حتى

يقبل بالمهمة ويوافق عليها، اشترط الحكيم أن يوكل "بيون" أمر تسيير أسواق القصبه لمن يختار من أتباعه. فانتخب منهم اثنين داخل أسوارها، ينظمان التجار ويجبون الضرائب يحظون بنسبة كبيرة من الدخل ويحظى بحصة الأسد منه ...



وصل إلى الواحة وفد أرسله شيخ الحي وحاكمه، أعلى سلطة في البلاد، يقوده أحدهم يُكنى "تاجر الشيخ" يحمل رسالة من الشيخ إلى "بيون" كفرد من رعاياه الأغنياء، يبغي المروق عن سلطانه. استقبل "بيون" وحواريوه الوفد استقبالا يليق بمبعوث شيخ الحي، نصبت الخيام، فرشت الزرابي والمطارف، نزل الخوان، رصف عليه الطعام مبخرا ومشويا ومسلوفا وطازجا وحلوا ومالحا حتى أضحى مائدة تليق بالضيوف... قام أحد أفراد الوفد واقفا يبسط بين يديه قرطاسا يشرع في تلاوة محتواه على الملأ:

"باسم الله والصلاة والسلام على رسول الله.

من عبد الله بن عبد الرحمان بن علي بن جعفر شيخ حي مالك الأشعري، وباسط سلطانه عليه والمتصدي لكل من تسول له نفسه زعزعة استقراره، أو يغرد خارج سربه، أو يرقص على حبل غير حبله، إلى من يعيش على أرضنا وتحت رحمتنا، وبلغنا أنه يميل عنا، لا إلينا، إلى المكنى "بيون"، وبعد:

لقد بلغنا أنك استحوذت على عيون الماء، وما يحيط بها من سهول وصنعت لنفسك مكانة في غفلة منا وهذا سلوك منك غير مسؤول، وحقّ

ولي نعمتك عليك غير مكفول، فإما أن تثوب إلى رشدك، وتجدد ولاءك لنا وتأتينا طائعا ذليلا، أكرمناك ونصبك منصبا رفيعا أو وليناك، وإلا فاستعد ليوم لا ثاني له. فإن كنت لخطابنا مقدرنا نصّب خادمنا عبد المؤمن بن سعد بن أبيه على الربع كله واثمّر بأمره، ونحن في انتظار وفودك علينا بما تزرع به تلك الجهة من بلادنا من كنوز والسلام".

لم يكن وقع محتوى الرسالة سيئا على نفس "بيون" فحسب، بل خيبت ظن "إدريس بن المقدم"، كان يرى أنه أحق بالمنصب ممن جاء اسمه في الرسالة، كما لام نفسه على الرسالة التي بعثها للشيخ، ليس ندما على كشف تعامل "بيون" بل لأن المنصب آل لغيره وهو يرى أنه أحق به ممن أسند له ولأن ثمار مجهوده وقطوف سعيه دنت لغيره.

ليلتها لم يغمض لـ "بيون" جفن، حبر كتابا أرسله على وجه السرعة، يطلع فيه "دأسز" على المستجدات، ينتظر منه توجيهاته السامية. كما بعث بعض حواريه إلى العشائر في الأعطاف، التي طالما آزرها ومدّها بالعون حتى كسب ودها وضمن تحالفها، يستنفرها لتبقى على استعداد وتأهب لمواجهة كل خطر مرتقب...

أكرم "بيون" ضيافة الوفد، طيلة مدة المماطلة في تنفيذ أمر الشيخ، منتظرا الرد من "دأسز".

وجد في تاجر الشيخ ظُرفَ المجلس، أعجب بفطنته، وبما أوتي من بديهة؛ لديه دراية كبيرة بشؤون الحكم، وأمور التجارة. كان الوفد كله يقدر "شميع"

تاجر الشيخ ويهاب جانبه، ويثني عليه كثيرا. سخر "بيون" حواريه ليجمعوا له كل معلومة حول مكانة هذا الرجل. ولم تهدأ نفسه حتى توصل بملف قربه من شخص "شميع" تاجر الشيخ ومستشاره الناطق باسمه والقائم على تجارته الخاصة داخل الحدود وخارجها، كتابي يدين بغير الإسلام...

دبح "بيون" كتابا آخر ضمنه ما عرفه من معلومات تتصل بتاجر الشيخ. في الوقت ذاته كان الإعداد على قدم وساق لتنصيب عبد المؤمن بن سعد بن أبيه حاكما للربع. مع انقضاء كل يوم، كان ثوب الزمان على جسد "بيون" ومساعديه يضيق أكثر فأكثر، ومسوغات تماطلهم تضعف كل يوم أكثر فأكثر. لم يخف المضيف إعجابه بتاجر الشيخ، كما لم يخف ارتياحه له، خاصة بعد أن علم بعقيدته، الشيء الذي دفع إلى التقرب منه أكثر، فكشف له عن جانب من أنشطته التجارية، لولا تخوفه من سخط الإله الأعظم لكشف له عن جوانب من مهمته... شغل "بيون" ضيوفه بكرمه الواسع؛ ينظم رحلات الصيد في الغابة الممتدة على الجبال المجاورة للواحة نهارا، ومجالس الغناء والطرب ليلا في قلب طبيعة البساتين الخضراء تحت نور قمر وارف ضياؤه وتحت أغصان شجرٍ دانٍ قطافه...

جاء الرد يحملهم أحدهم في عصابة، ومعه من الشقراوات، أجمل ما أنجبت بلاد ما وراء البحر. اطلع المرسل إليه على فحوى الرسالة، جاء فيها أن الحياة بقدر ما يستثمر فيها تمد بالأرباح مضاعفة. ولاحظ أن لا شيء فيها يتعلق بما حدث به رؤساءه عن تاجر الشيخ. أسرع بتنصيب مبعوث

الشيخ نائباً على الربع في حفل بهيج، أهده شقراء لغاية في نفس "دأسز"، في الظاهر عربون احترام وتقدير. وأخذ يتهيأ للرحلة ويعد العدة لزيارة الشيخ في مركز حكمه؛ استدعى كل حواريه، تدارس معهم الرحلة التي هو بصدد الإقبال عليها، وخرج في وفد محملاً بالهدايا النفيسة، وشقراوات كثر، بعد أن استخلف أخاه "بونج" وأوصاه أن يتصنع مؤازرة النائب وأن يظهر له روح التعاون. وأن يطلع على الرد المنتظر قبل أن يبعث به في أثره سرا، على جناح السرعة يحمله الساعي عينه. فالمسافة إلى ديار الشيخ طويلة، والطريق شاقة والرحلة ستدوم طويلاً... أوصاه خيراً بعائلته وبأتباعه كمن يتوقع أن لن يعود من رحلته هذه. كان تولية الحاكم والسعي إلى الشيخ استثماراً سياسياً، لم يسبق لـ "بيون" أن أقدم على مثله.



منذ الأيام الأولى من حياتها في القصر أبدت "لوزير" الجارية المهداة لنائب الشيخ على الربع، عربون تقدير واحترام لقرار التنصيب، استعدادها الفائق لأداء مهمتها على أكمل وجه.. ريثما تتقن لغة الربع وحروفها استفادت من إمكانياتها الخلقية والطبيعية، وأحسن توظيفها... رغم التعسف على النطق، وهو تعسف استحسنة الحرف نفسه، مادام ينبعث من شفتي لوزير اللتين لا تتقنان فقط التعسف على الحرف، بل تجيدان الغناء كما تبرعان في العزف على آلات الجسد، ولعل امتلاكها لهذا النوع من الإمكانيات مكنها من الأداء الجيد وتقديم لوحات فنية بوأتمها مكانة رفيعة وعززت حُظوتها عند

النائب؛ تجاوزت كل الجواري بسرعتها الفائقة، وسبقت الحرائر، وذوات الخدور بجدارة واستحقاق، إلى حلبة المواقعة، تسقيها وردا وياسمينا، تزرع فيها المتعة، فتلقي عليها بجسد من بطة.. واسفنج.. وخيزران.. وتفتح.. ورمال وتلال.. ووهاد.. وسفوح.. وبراري.. تسدل على الكل فرعا أشقر يخجل من لونه الذهب. لم يمض غيرُ زمن يسير أضحت زوجة النائب الذي لم يتوان في إهدائها إقطاعا وضيعات، لا يخفى على ذوي الخبرة أن قيمتهما معا لا ترقى إلى ما تقدمه لوزير لشخص النائب من متعة ومن دعم لا يعادله أي دعم من أي نوع كان بفضل ما فُتِرَتْ عليه. شغفته حبا، لم يعد قادرا على الابتعاد عنها يلازمها، عفوا تلازمه كظله. أينما حل وارتحل، يتوجهان إلى الله كل حين، متى سمحت الخلوة بصياغة طلب عملي مسجوع التمهيد مفقئ العرض أصم الخاتمة لعله يشيد لهما قصرا في الجنة، يرفعان إليه معا بالضرورة طلبا تلو الطلب مرات في اليوم بعدد النوافل، حتى أضحي القلم والمحبرة معا يصابان بالحران، وغالبا ما يتوقف القلم دون إنهاء تحبير الطلب، فيثبسى عليه، ويحمل مجهودات تفوق طاقاته ولا يملك إلا أن يبكي دما، ترق له لوزير في الوقت الذي ترى النائب يجهد، وهو لا يقوى على أداء وظيفته...

مع حيويتها المتواصلة وجديدها الذي لا ينضب أصبحت لوزير لوحدها أربعا وفي الوقت ذاته ما ملكت أيان النائب شرعا وقانونا. بينه وبين كل بنات حواء عداها حجاب. أقصت من طريقها الحرائر وذوات الخدور، لم تعد هناك من تتجرأ على التمسح بأعتاب النائب، أو تشخذ منه نظرة، لقد

مات عمر منذ عهد بعيد، وارتمت العدالة من تلقاء نفسها في أحضان النار على طريقة الهندوس وفاء لصاحبها. فقدن وظيفتهن الأساسية التي جيء بهن لأجلها منذ حلول لويز بالقصر، ليضمن بوظيفة تأثيث الفضاء الذي أصبح لا تدب فيه حياة إلا بإشارة منها. لويز سيدته وسيدة الربع الأولى، الأمرة والناحية، تقترح على النائب أفكار مشاريع، تتعلق بشأن الربع، وكثيرا ما رفع النائب باسمه اقتراحاتها إلى الشيخ وقوبلت بالثناء. وأهم مشروع كان من وحي قريحتها هو مد سواقي من عيون الواحة عبر السهول المحيطة بالقصبة. كسبت ثقة زوجها كاملة، حتى أنه لم يكن يصدق وشاية بها بل كان يعاقب كل من سولت له نفسه الافتراء عليها. كانت أمه كلما رأت تصرفاتها وخنوعه رددت: صدق من قال الحب أعمى يرى الورد وعن شوكة يعمى "بل قالت إنها رأت إبليس يطرق باب "لويز" طالبا أن تجود عليه ببعض براءة اختراعاتها القديمة، أو تجود عليه ببعض وقتها حصصا للدعم والتقوية.

كانت مهمتها في المرحلة الأولى تقتضي كسب ثقة الحاكم كاملة أولا، قبل المرور إلى المرحلة الموالية من الخطة. ولتختبر "لويز" مدى نجاحها، بعثت بزوجها ليلا حاملا فطيرا أصرت أن تعده بنفسها ل "بونج" خليفة بيون" كي يعود إليها برأيه في هذا الفطير. فعاد إليها يحمل الرد على جناح السرعة: "أقرئها السلام وأبلغها متمنياتي لها بطيب المقام. وأثن على صانعة هذا الطعام الشهى ذي الرواء والإدام. لقد تذوقناه، وأعجبنا بطعمه، لقد استوى على نار هادئة فحسن طهيه. فأبلغها - - طبعاً بعد إذنك - كل الاحترام والتقدير،

واستمحك في أن تقدم لها هديتي هذه بالنيابة عني. واعلم أن الفقيـد "بيون" انتقاها من بين كل الجـواري لما لمسـه فيها من فطنة وذكاء وسرعة بديهة".

كان "بونج" كعاداته وعادة من سبقوه من سلفه، يحرص على أن تبقى القبائل مـوالية له يمدـها عند الحاجة ويؤمن لها العيش في السنوات العجاف ويمدـها بالسلاح، يصلح ذات بينها إذا تنازعت فيما بينها، فكان يتكفل بالخسائر ويتحمل تكاليف الديات، ويعيد الحقوق إلى أصحابها، والأمر إلى نصابها، كان يكرمها ويحسن إليها حتى ملكها، يحث رؤوسها على التحلي بالحلم، والعمل على الائتلاف قدر الإمكان واجتناب الاختلاف لما فيه من تفرقة وتشتيت للقوة...

اطّلت لـويز على فحوى الرسالة التي حملها إليها زوجها داخل الهدية، تحتوي على تفاصيل المهمة الموكولة إليها. في المقابل كانت تقارير "لويز" تصل من داخل القصر. تطلع "بونج" على نوايا النائب قبل أن تدور في رأسه. وكانت الأخبار تتحدث عن ضعف السلطة المركزية، والشيخ يبعث في سر مستنجداً بنوابه على الربوع. أخبار تبلغ على وجه السرعة "دأسز" الذي يرسل تعليقاته الصارمة لـ "بونج"، بعد أن استخلفه أخوه "بيون" الذي أعاقه المرض منذ عودته من سفره. انتقى هذا الأخير من القبائل رجـالا غـلاظا شـدادا كلفهم بمهمة إفشال كل عملية إمداد تخرج من قصر النائب في طريقها إلى مركز السلطة.

منذ أن تلقت "لويز" التعليقات الجديدة أحست بنوع من الفتور، لم تستطع تحديد السبب، أكان قلقا أم اضطرابا أم هو غير ذلك؟ طلبت من "بونج"

مهلة تستعيد فيها بعض قواها. بعد تحذيرها من عواقب تأخرها في أداء مهمتها، أمهلها أسبوعا لشرع في التنفيذ لأن زمن المهمة قد يزيد عن سنة فالوقت حسب "دأسز" عامل أساسي في نجاح المشروع. كان تخوف "بونج" كبيرا من أن يكون التردد ناتجا عما قد تكنه له من عاطفة، الأمر الذي جعلها تدعي المرض. أخذت "لويز" تسقي النائب في الرضاب سما حلّو المذاق يسري في شرايينه يتتبع الخلايا بالقتل في توأدة وأناة... وكان "يونج" لا يرتاح قبل أن تصله أخبار تدهور صحة النائب يوما بعد يوم ومضى من الوقت ما كفى، لتراجع صحته وتتأخر عافيته وفتور قواه حتى لم تعد قادرة على حمل جسده، فألقت به أرضا، تشل حركة أعضائه شيئا فشيئا يستقبل الزوار فاغرافاه.. كانت "لويز" تذبل هي أيضا يوما بعد يوم، تضعف قواها وتفتر وتخور، هل شفقة؟ أم ندما؟ أم تأنيب ضمير؟ كان الجاه الذي كانت تتمتع به يتناقص، والأعداء يتربصون بها للانتقام، أكثر من كانت تخشى عليه هو جنينها وأكثر من كانت تخاف انتقامهن هن حريم القصر. غير أن "بونج"، بحكم مركزه كأحد أعيان الربوع المجاورة، كان بطريقته الخاصة يعمل على حمايتها، والنائب طريح الفراش. رجال "بونج" ليل نهار بكل ما أوتوا من قوة وذكاء وبديهة لا يقصرون في قطع جبل التواصل بين النائب ومركز الحكم في كلا الاتجاهين، يتربصون بكل رسول ويقطعون سبيل كل وافد في غفلة من الطرفين.

الفصل الثالث

خرجت من جسدي دون أن أوصد بابه خلفي، لعلمي أفي سواء أحكمت الإغلاق أو لم أفعل، فأطياف الشر وأرواح الفساد تفد عليه من كل حذب وصوب، لتمارس التجارة خاصة تجارة الدين وتجارة السياسة وتجارة الموت وعقد اللقاءات حول كيفية نشر الإرهاب والاستفادة منه... رحت أقتفي خطى تاجر الشيخ أتتبع أنشطته؛ لقد أثار سلوك هذا الشخص فضولي. كان يحظى بمكانة رفيعة في خيمة الشيخ، يتمتع داخلها بحرية لم يسبق لغيره أن نعم بها. يصل إلى كل مرافقها دون مانع ودون إذن إلا ما كان من الحرم. يجالس الأمراء، يصحب نساء القصر في التنزه في الرياض والبساتين المحيطة بالخيمة... طلبه الشيخ - - وكان قد غير صفته ليصبح السلطان - ذات ربيع في جلسة استغرقت وقتا طويلا، يتدارسان رحلته التجارية، ناقش معه السلطان والمقربون، نوع البضاعة المرغوب فيها، وسقف السعر الذي يجب ألا يتجاوزه، والطاقم المرافق له. أخذ متسعا من الوقت يستعد فيه للرحلة

التي اختار السلطان أن تكون بريطانيا العظمى وجهتها. بعد أيام طوال وليال أطول في عرض المحيط، تمخر السفينة عبابه، نزل تاجر السلطان بالفندق الذي يأوي إليه والطاقم المرافق له في بلدة "PORTSMOUTH". ما أن علم التجار بوصوله حتى بدأ ترتيب مواعيد الزيارات، يزوره التجار والوسطاء في مقر إقامته يعرضون أمامه قوائم مواد بضائعهم، وأثمتها وللباعة طريقة عجيبة في المماكسة وإقناع الزبون: بعد أن يستعرض البائع مواصفات بضاعته يطلع الزبون على الثمن ويضيف قائلا: "إن عثرت على بضاعة بنفس مواصفات بضاعتي وب نفس الثمن فادعني تجديني مستعدا لأبيعك إياها بثمان أقل". زاره أحدهم يدعى SMITH كانت تربطه علاقات وطيدة، كان هذا الشخص صديقا لأرباب المصانع من جهة ودليلا لكبار التجار من جهة أخرى. اكتسب خبرة واسعة فيما يتعلق بجودة البضاعة انطلاقا من معرفته لأصحاب المعامل والمواد التي يستعملونها في صناعتها كان تاجر السلطان يسترشد باقتراحاته وإشارات له لكن في حذر. يدلله على الجيد من البضاعة ويحذره من العيوب التي تنقص من جودتها.. مرت أيام غير قليلة قبل أن ينهي صفقة هي عبارة عن مجموع صفقات اعتبرها أفضل صفقة حققتها في تاريخه وسيحويها سجله التجاري، فكما هو معروف عند التجار "الريح عند الشراء وليس عند البيع". أشرف طاقمه على شحن البضاعة في جوف الباخرة، بعد إنهاء كل الإجراءات والمعاملات رفع الأشرعة مبحرا نحو الجنوب، في اتجاه عرض المحيط الأطلسي.. ما كاد مساره يتوازى مع آخر نقطة من شبه الجزيرة الإيبيرية حتى هاجمه قراصنة البحر، قاوم طاقمه ببسالة

عالية، غير أن عدد القراصنة كان كبيرا ومدججا بأسلحة نارية متطورة، قتلوا الطاقم كله، ألقوا الجثث في عرض المحيط وحولوا اتجاه الباخرة نحو عرض الأبيض المتوسط واقتادوا تاجر السلطان إلى بلاد الجرمان على متن باخرة سياحية. بعد وقت ليس باليسير بلغت الأخبار السلطانَ فحرك جهازا كاملا يتعقب خطى التاجر بحثا عنه، بل بحثا عن بضاعة السلطان. لكن هيهات لم يعثروا لها على أدنى أثر، لا أحد من مستعملي البحر له علم بما حدث مع باخرة تاجر السلطان. كل ما استطاع الجهاز التوصل إليه هو بعض المعلومات المتعلقة بنوع البضاعة المقتناة وبعض الأسعار، أما ما عدا ذلك فظل في عالم الغيب. ضاع الطاقم بأكمله، وضاعت البضاعة وقد يخسر السلطان بذلك أجزاء من مملكته. كل الأخبار الوافدة كانت تنافس الملح في رفع ضغط السلطان، يا للخسارة لقد وظف كل ما تبقى من رأسماله في هذه الصفقة التي عقد عليها كل أحلامه إذ كان ينوي أن يسخر كل ربحها لشراء ما يكفي من السلاح للقضاء على الفتن وإخضاع كل القوى المتمردة.

سيق تاجر السلطان معصوب العينين، يجهل مصيره، يسأل دون أن يتلقى جوابا، صرخ ملء فيه دون جدوى، ولما طال السفر أدرك أنه بين يدي رجال عصابة يقودونه إلى مقر الرئاسة، سأل عن الوجهة فقيل له "فراكفورت" سأل:

- ما اسم منظمتكم ومن رئيسكم؟

- لا تتعب نفسك، ستعلم كل شيء عند وصولك، استرح وإذا احتجت

أمر اقرع هذا الجرس!

وضع في يده المكتوفتين خلف ظهره حبل الجرس، لم يمر من الوقت غير القليل حتى سمع رنين الجرس، أقبل عليه أحدهم

- ما حاجتك؟

- من أمركم بمهاجمة باخرتي؟

- ألهذا قرعت الجرس؟

- ألم تقل: إذا احتجت أمرا نادني، احتجت للاطمئنان على نفسي من خلال معرفة من يطلبني.

- لا أستطيع طمأنتك ولا أستطيع أن أقول لك من طلبك، لو كان سؤالك ضمن الصلاحيات ما كنت بخلت عليك بشيء، لا تستعمل الجرس إلا إذا حملتك الحاجة لقضاء حاجة طبيعية.

لم يجد تاجر السلطان نفسه أسيرا ولا ملقى في خلية سجن، بل اعتني به أيما اعتناء، أشرفت شقراوان على استحمامه، وجاءته بلباس جديد فصل على مقاسه، وكأنه سيزف عريسا، أدرك تاجر السلطان أنه في ضيافة رئيس العصابة التي سلبته باخرتة لكن ظل قلقا على مصيره: "إذا كان الاستحمام له مبرره فما الداعي إلى أن يكون على أيدي الشقراوين علما أنه ليس تقليدا عند أهل البلاد؟" بات ليلتها على القضيض رغم التعب الذي ينتابه، والرقعة التي ترافقه، يفكر في أمر هذا الرئيس الذي قتلت عصابته كل رجاله، وأبقت

عليه: "لا بد أن البضاعة لا تهمه بالقدر الذي يهمه شخصي، هل سبق لي أن أبرمت معه صفقة، أحمد الرب كل صفقتي كانت سليمة، ترى من يكون؟"
في اليوم الموالي طرقت باب غرفته شقراوان آخريان اهتمتا به أيما اهتمام، وقالت إحداهما: "ينتظرك كبير الآلهة..."

- كبير الآلهة؟؟!!!

ثم استدرك "لا بد أنه رئيس العصابات".

استقبل بحفاوة بالغة إلى حد الانزعاج، وجد نفسه محاطا بعناية كبيرة، اقتعد مكانه على الطاولة قبل وصول كبير الآلهة. أطلقت طلائع "بيغ بوس" وخلفها رجل يرتدي معطفا أسود طويلا فوق بذلة بيضاء ناصعة وحول عنقه غطاء، تتدلى أهدابه على صدره، يعلق عصا على ذراعه الأيسر، وفي فمه غليون وعلى رأسه قبعة سوداء... مرفوع الهامة، يمشي بخطى متثاقلة، سبقته إحداهن إلى كرسي راحة وثير سحبته إلى الخلف، حتى إذا وقف مستقيما، وسلم بحرارة على الضيف الذي انتصب واقفا منذ أن رآه مقبلا، ورحب به ترحيب المضيف بضيفه، دفعت الكرسي دفعة خفيفة نحو الأمام حتى يجلس الإله.

التف حول الطاولة مجموعة من أنصاف الآلهة تعرف عليهم تاجر السلطان واحدا واحدا كما أطلع على لائحة أنصاف الآلهة المنتشرين في العالم المشكلين لمنظمة "دأسز".

- مرحبا بك ضيفا عزيزا

كان لهذا الترحاب وقع مريح في نفس تاجر السلطان، لا ينقص منه سوى المصير الذي لقيه طاقمه وطاقم السفينة.

- قبل كل شيء، باسم "دأسز" أعبر لك عن أسفنا عما لحق طاقمك، أما السفينة والبضاعة، فهما في تمام الحفظ.

ظل تاجر السلطان لا ينبس بكلمة، وكبير الآلهة يحدثه عن منظمة "دأسز" وأنشطتها في المعمور وعن أهدافها على المستوى القريب والمتوسط والبعيد... والتفت يسأل ضيفه:

- ما رأيك في ما سمعت؟

- أما عن الانتماء فأنا فرد منهم، وأما عن الأهداف من جمع الشمل وإيجاد وطن فشيء جميل يستهوي كل مشرد في هذا العالم، أما عن التحدي البعيد المدى والمتمثل في توحيد شعوب العالم تحت لواء المنظمة وإخضاعها بالقوة لتحيا تحت سيادة ()، فأمر لا يفقه فيه إلا الراسخون في السياسة وعالم المال والسلاح. أراني لن أجدي نفعا في الأمور التي تتجاوز طاقاتي الاستيعابية.

- لا عليك، ليس المطلوب من كل من يؤمنون بأهدافنا أن يكونوا نخباء. كل ما هو مطلوب منك أن تنفذ التعليقات التي تصدر إليك من "دأسز" في الحي الذي تشتغل لصالح سلطانه، والأحياء المجاورة.

- إذا كانت التعليقات ذات علاقة بالأمور التي أتقنها فأنا مستعد فداء للقضية المقدسة.

- بما أنك تحتل مكانة كبيرة عند الشيخ؛ أقصد السلطان الحالي، ستلعب دورا كبيرا في تحقيق ما تصبو إليه "دأسز" على المدى البعيد. إذا كنت من قبل تجهل "دأسز" ولا تعرف عنه شيئا، فهو يعرف عنك تفاصيل حياتك، يكفي أن تعلم أننا ندرك ما تقوم به من تحويلات مالية لحسابك الخاص من تجارة السلطان، وما تملكه من عقار في المملكة المتحدة ونعرف أبناءك ذكورهم وإناثهم.... أما الأرباح فلا تفكر في عائدات التجارة، ستحظى بأضعاف ما تكسب، فليكن عملك ملتزما بقضيتنا... لا تشغل بالك بأمر السلطان، لقد تدارس الأنصاف الحالة، وأحكموا نسج خطة، تُبقي على ثقة السلطان فيك أو تزيد... بحكم تواجدك داخل الخيمة (العفو إن الخيمة للشيخ أما وقد أصبح سلطانا فلا بد أن الخيمة أصبحت قصرا) كمستشار السلطان وتاجر، ستقدم خدمة جلييلة لقضيتنا، ترفع إلينا بانتظام تقارير ليس حول حي مالك وحده بل حول كل ما يدور في أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل، ونحن بصدد اتخاذ جميع الإجراءات لتسهيل التواصل بينك وبين كل أنصاف الآلهة أينما كانوا. يدا في يد نبحت جادين عن كيفية تسخير ثرواتهم لصالحنا ليسهل علينا التحكم فيهم، نزيل قيود العبودية عن أقدامهم لنضعها أصفادا في عقولهم. وبذلك نساعدهم على مدنا بكل ما نحن في حاجة إليه للسيطرة عليهم، نصدر لهم ما يخدم ماضويتهم وينمي هشاشتهم، ونزكي اعتقادهم أنها هويتهم التي لا ينبغي التفريط فيها. حتى تتمكن من النفوذ إلى خيامهم وقصورهم ونصبح ورثة عروشهم. وهذه نسخ من تقارير من إنجاز أجسامنا المزروعة بينهم وأعيننا المنتشرة في كل أحياءهم، ومن بينها،

تقرير "بيون" الذي بعثك إليه سلطان حي مالك الأشعري باعتباره مارقاً عن سلطته. نرى من المجدي أن تطلع على محتوياتها، اطلع عليها واحفظها جيداً قبل رحيلك... وكن على اتصال في كامل السرية مع "يونج" خليفة "بيون" هناك. فتأتينا خيرات أرضهم ذليلة حقيرة، تتملق حتى نقبل بها، نمرغ أنوفهم في التراب، واحفظ عني هذه النصيحة واتخذ بنودها منهج عملك: الدعاية والجنس والمال محور دوران عوالم بني عبد رسم وبني طلل. إن أنت تحكمت فيها لانت أعناقهم، وجاءتك على طبق من ذهب.



عاد تاجر السلطان من رحلته على متن باخرة جرمانية محملة بالبضاعة التي اقتناها من المملكة المتحدة إلى ميناء على الساحل المتوسطي، يرافقه طاقم متنكر من رجال "دأسز". استقبل التاجر من طرف السلطان نفسه على الرصيف، لا حباً فيه ولا قلقاً عليه، بل جرياً وراء استرداد ماله أو بالأحرى ثروته. رغم تفحص رجاله للباخرة المحملة، والاطمئنان لوجود البضاعة ظل ييدي غضباً. ولما أخبره التاجر أن القراصنة استولوا على الجمل بما حمل، أرعد وأزبد فارتفع ضغط دمه حتى حطم رقمه الخاص. ولما أردف التاجر أنه استدان ثمن البضاعة من جماعة من أصدقائه التجار، أحس أن العرش الذي قعره إسطه يهتز ويزحف منسحباً من تحته. لم يهتم للأرواح ولا للدماء، كل ما يهم هو العرش. كانت هذه الضربة الحلقة الأولى من سلسلة من الضربات الموجهة من "دأسز" يتلقاها الشيخ/ السلطان... كان هذا امتحان

للسلطان أبان فيه عن قدرات أنانيته لم يكلف نفسه الاستماع، قصد معرفة ما حل بالطاقم وكيف نجا تاجره ولا التفت إليه يعزيه في من فقد من طاقمه. أبدى التاجر تفهما لرد فعل السلطان، وحاول أن يخفف من أثر الصدمة عليه، يعده أن يعمل جاهدا حتى يعوض الخسارة ويثري خزانة السلطان...

بعد وقت غير قصير رفع التاجر إلى "دأسز" نتائج ما جمعه من معلومات في تقرير مفصل:

"كلما مر حكام أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل بمحنة صخبوا وضجوا، واعدوا وتعهدوا، توعدوا وشرعوا يدعون البحث عن الأسباب التي أدت إلى الأوضاع التي آلت إليها أحيائهم بل أحوالهم، يرفعون شعارات جوفاء، تكذبها كل الامتحانات. يبحثون عنها في ثنايا الماضي ويتغنون بتاريخها الرعنين، دون الالتفات إلى ما تشكله نخبهم من خطر على استمرار أحيائهم، جراء إعمال هذا الماضي في شؤون حاضرها، سواء عن قصد أو عن غير قصد وفي كلتا الحالتين عن جهل، يخونون أنفسهم ويخونون أحياءهم ولا أحد فيهم يقدر عاقبة الأمور. يشغلون الناس في أحيائهم بقضايا يختلقونها حتى إذا انشغلوا صرفوهم عن التفكير في قضاياهم الاجتماعية الملحة التي تزرى واقعهم وتحول حياتهم إلى جحيم. يكفي أن يصدر عن عمن ينعتونهم بالعدو التقليدي الأبدي ادعاء مخطط من أي نوع كان، ليدعو الحكام أحياءهم إلى الالتفاف حول المصلحة العامة وتأجيل التفكير في غيرها من المصالح، فيسوقون الإشاعة يسخرون لها أبواقهم.

فاجتمع قوى أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل حول كلمة واحدة لتقف في وجه القضية الشبح. في هذه الأثناء يخلو الجو لهم فيصفروا وينقروا رؤوس أحيائهم وديارهم كما يخلو لهم.

وثبت أن سداجة القائمين على هذه الأحياء والديار وجهلهم بما يدور حولهم جعلهم يفرحون بحصاد ما زرع لهم غيرهم من الغام، لرعونتهم وثقتهم بالغير عوض الثقة بنفسهم التي يفقدونها، الشيء الذي يفسر افتقارهم للتربية والتكوين الفعالين، كيف يثقون في أنفسهم وقد جردوها من العقل وألقوا مسؤولياتهم على الماضي فمن أين له أن يصدق نفسه ويثق بها وهي ليست ملكا له، ولا أدل على ذلك من تصرفاتهم. شأنهم شأن بصير تعرض لاعتداء فأمسك بأول من امتدت إليه يده. ولك في الواقع اليومي أمثلة لا تحصى، فما أصبتم به تجارة السلطان، أرجعته أعلى هيئة استشارية، إلى كيد بني عمومتهم الذين ظلوا طوال حياتهم يضمرون لهم العداء ويضمرون لهم الشر، وخرجت ببيان يقضي بأن يرد الصاع صاعين. هذا شأنهم ليس لديهم قدرة على التحليل الصحيح والاستنتاج السليم. يلقون اللوم على أعدائهم التقليديين سواء أذنبوا في حقهم أم لم يذنبوا. ولما كانت نخبهم جوفاء نخرها الجبن لا حول لها على المواجهة ولا تقوى حتى على رفع عقيرتها، راحت تجند الدهماء وتسلحها بأدعية منمقة زينت بأصباغ البديع تغطي حقائق الواقع بأقنعة الغيب ذخيرتها معاني وأفكار تظهر من مستودعات صقيع الماضي، حتى ليخيل للدهماء أنها ترمي بقذائف لا تخطئ الهدف تنال من الأعداء

المتجبرين ومن هم على شاكلتهم من القردة والخنازير وكأن الخالق صورهم من طينة غير طينة البشر. حتى غدا صبيهم ولم يبلغ الفطام بعد يأخذ كل ما يسمع منهم عن غيرهم على محمل المطلق، يكن للغير العداً وينظر إليه شزراً، انطلاقاً من فهم للنص خطأ سافر إن عمد الماضيون إلى ترسيخه بكل ما ملكوا من قوة، حتى أصبح اعتقاداً متوارثاً، يحذو فيه اللاحق حذو السابق بالتقليد، ولا سبيل له لإدراك أنهم وأدوا الكائنات الذكية في ذهنه، أو شردوها شر تشريد. حتى يتهياً للمرء أن ما تأتية هذه النخب لا يقدم عليه إلا من كان تحت تأثير إغراء لا يقاوم، أو خوف من تعذيب لا يحتمل لمن رفض أن يساوم.

يعيش بنو عبد رسم وبنو طلل بعيداً عن التأثير بحركة الأرض التي تتضاعف سرعتها يوماً بعد يوم، تنام أحياءهم في العراء وقد سقطت عنها ورقة التوت. وإذا أرادت الاستيقاظ، وطلبت القيام يمنعها الدوار، وتخونها ركب طال خموها حتى باتت في أمس الحاجة إلى ترويض طويل الأمد، حاولت أن تفتح عيونها، لكن الرمد يمنعها مدعياً أنها ملك له بحكم الأقدمية ولن يدعها تبصر إذ ضرب على الرموش لصاقاً لا يزول، حتى اخترق العمى البصر ليغزو البصيرة. تتململ في مكانها جالسة تتلمس شيئاً تنكئ عليه، كلما نوت الوقوف ترنحت، لتسقط ممددة لا تقوى على الجلوس وليس في جعبتها غير عملة أهل الكهف، تظنها عملة كل الأزمان.. لا دويُّ العقل المزجر المقبل من الشمال أروعها، ولا التكنولوجيا الحديثة استفزتها.

صنفت الكائنات العقلية في خانة الشياطين، خاصة لما أقبلت مجسدة في آلات ذاتية الحركة، حاملة على صهوتها فوهات تنبعث منها قذائف نارية، تتحكم في الرقاب، لم يرَ العبادُ من قبلُ مثلها في البلاد، يحاصرها من كل ناحية، وهي تحاول الفرار منه، بالرجوع إلى حصن الأطلال".

تقدم التاجر لسلطانة بطلب الاستقالة من عمله كتاجر، مبررا قراره بعدم أهليته، وتراجع كفاءته، مستشهدا بعجزه عن حماية طاقمه، وحماية بضاعته، وهو يدرك تمام الإدراك أن السلطان يستطيع إعفائه من مهمة التجارة دون أن يستغني عنه في الاستشارة. مرت أيام ليست بالقليلة قبل أن يصدر عن السلطان مرسوم إعفاء "شميع" من منصبه التجاري والاحتفاظ به في منصبه الاستشاري، ومبعوثا خاصا به ينوب عنه في بعض المحافل، الشيء الذي خول لـ "شميع" الاطلاع عن قرب على الحياة السياسية والاجتماعية داخل أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل، وسهل عليه مهمته. وكانت تقاريره تصل تباعا لـ "دأسز" منها:

"جريا على عادتهم بعث شيوخ أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل عيونهم العوراء تبحث عن مواقع العشب والماء. غابت طويلا وعادت لتفيد شيوخها بما رأته، أخبرتهم بتواجد مراع غناء تُدعى "الحاضر" يحكمها سلطان يدعى "حجى". فقرروا الهجرة إلى هذا الحاضر. أسلموا زمام القيادة كالعادة للماضي الذي يحرم عليهم الإيمان بقدرات العقل حتى ترسخ فيهم الاعتقاد أن أعمال العقل شرك، وأن الماضي وحده القادر على رفعهم إلى

الدرجات العلا في دنياهم وفي آخرتهم. حققوا حركة العقل بالشلل قبل أن يكتموا أنفاسه. بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حينما اعتقدوا أن من حق هذا الماضي أن يتحكم أيضا في الأحياء غير الطللية أينما وجدت. أعجب بنو عبد رسم بمرايع الحاضر كما وصفتها لهم عيونهم، فذهب الشيوخ يأمرؤن بفك أسباب الخيام عن أوتادها، وتجميع متاعهم وإعداد ركبهم، يتهيؤون للهجرة، عاقلين العزم على تجشم عناء السفر صحبة الماضي السحيق الذي يتخذونه دليلهم، لا يولون اهتماما للأدوات الضرورية التي ينبغي أن يتسلحوا بها، إن شأؤوا أن يجدوا لهم ربعا على هامش الحاضر. شدوا الرحال دون أن يولوا اهتماما للمسافة الزمنية الفاصلة بين الماضي الذي فيه يغرقون والحاضر الذي يرفضهم. يقدمون على المغامرة وهم يجهلون أن المسافة تجاوزت العشرة قرون من الصحراء القاحلة.

حدث أن سأل أحد الصحفيين العالميين أحد أعضاء اللجنة المنظمة للهجرة والساخرة عليها:

"كيف يمكنكم قطع كل هذه المسافات الزمنية من البيداء، سينفذ زادكم وينضب ماؤكم وتقل حيلتكم وتقعون فريسة للسباع".

أجابته - باستخفاف:

"هل نسيت أننا أبناء الصحراء، في الزمان والمكان فيها خلقنا وبين كثبانها رتعنا ولم نتوقف يوما عن البحث عن مساقط مائها حتى استنفذنا كل كالأ مراعها؟"

أضاف السائل:

"هذا واقع يشهد به التاريخ الذي قضى عمره يؤاخذكم على عدم انتباهكم لأهمية التفكير في إنتاج العشب البديل، وعدم تقدير عواقب استهلاككم. وهذا ما دفع بي للسؤال، كيف لكم أنتم من قضيتكم كل الدهر في صحراء ماضيكم تنتظرون أن يغيثها الغيب بقطر من سماء، وشعاع من ضياء أن تتأقلموا مع معطيات حياة الحاضر التي تحكمها سلطة العقل التي يرفضها الماضي الذي أنتم فيه غارقون؟ كيف يتسنى لكم ذلك وقد قطعتم كل صلة معها ومع كل ما يمت لأحكامها بسبب؟ وكيف يتسنى لكم نصب خيمتكم بين الأبراج وأنتم تنكرون ما يزرع في حقول الحاضر من خيرات وما يجنيه أهله منه من طيبات، وأنتم لا قبل لكم بالجد ولا بالحصاد؟

نظر الحادي إلى الصحفي نظرة ازدراء، ونادى صاحبه: تعال لا تهتم لبائع الحروف، إنه كافر لعنة الله عليه. انصاع الرجل للأمر دون أن يجيب.

كُتب لهم التغلب على مواجهة الصعاب والوصول إلى أطراف الحاضر ودخوله من بوابة التقليد، وليس من بوابة التفكير التي ظلت موصدة في وجههم مادام مفتاحها العقل، الذي ناصبوه العداء، وكالوا له، وأسروه بين طيات الزمان الغابر ونكلوا به بعد أن لفقوا له التهم الخطيرة. لكن لما هموا بنصب خيمتهم، لم تقوَ أوتادها الشعثاء على اختراق أرضية الحاضر، بل أخذت تصير إلى فتات كلما حاولوا إدخالها. ولما توصلوا بعد جهد جهيد إلى تثبيتها بغرز رؤسها فقط بشكل واه شدوا إليها أسباب خيمتهم، لم يخطر على

بألم الصراع الدائم بين رياح الحاضر الآتية من الغرب ورياح الحاضر الآتية من الشرق، حتى تعاورهم من كل جانب، فأضحت الخيمة خرقاً تتطاير في السماء. واستدعى منهم ذلك العودة على أعقابهم يحرون ذيول الخيمة.

نصحهم البعض باعتماد مواد حديثة موجودة في الأسواق ما داموا يرغبون في ولوج الحاضر. إلا أنهم أبوا إلا أن تكون الأوتاد من خشب والخيمة من وبر خالص أصيل. بعد ذهابهم وإياهم وعامل الوقت بالنسبة لهم مجرد زويع، لم يجدوا لهم مساحة موضع قدم. لم يعد المكان شاغراً لنصب خيمتهم، وراحوا يحلمون أن يثبتوها طابقاً من طوابق الأبراج الحضارية.

عانوا من الغربة في الحاضر، لم يجدوا لهم عوناً على تجاوز هذه المرحلة... أشار عليهم البعض بالتحالف مع آل "ماركس"، قد يساعدونهم على إيجاد مكان لهم... هيؤوا موكبهم، وأعدوا قافلتهم وجعلوا حاديها ماضيهم... استقبلهم جمع مختلط، نساء ورجال. التفت الحادي إلى من خلفه مباشرة وهمس "ها هم آل "ماركس" يستقبلونكم بالجواري الحسان، إنه لفأل حسن." لم تغادر عيون الوفد أجسام الشقراوات لحظة، بشرة لم يسبق أن رأوا مثل نصاعة لونها، لو كانت عيونهن سودا لظنوها حور العين جئنهم من باب الريان.. قال قائل منهم "وما الذي ترون سوى طلائع النصاب الذي ينتظركم. كلما ابتسمت إحداهن تراهم اصطنعوا إرهاف السمع، والحقيقة أنهم انشغلوا بتقشيرها. لم ييخل المضيف عليهم؛ قدم لهم كل الدعم والمساعدة وأمدهم بكل انتاجاته، وأعطاهم فكرة عن كيفية الاستفادة منها.

ولا أعتقد أنهم أولوا حديث الرجل عموماً انتباهاً، بل ظل ذهنهم منشغلاً يفكر في عدد الجواري اللاتي سيحظون بها..

جهزوا رحلتهم، حملوا ما جاؤوا من أجله أسفاراً وعادوا من رحلتهم شبه غانمين، وكأنهم عادوا بالمصباح السحري الكفيل بأن يضمن لهم مكاناً في ربوع الحاضر الذي صدهم. وكانت خيبة أملهم كبيرة لما لم يحظوا بمن على خصرهن تدور حياتهم.

انشغلت كائناتهم الذهنية التي تترشح تحت نير الماضي باستعراض جزء الشريط الخاص بالحسان، دون أن يلتفتوا إلى أهم ما في الأمر. ألقوا بالأسفار بين أيدي أولي الألباب منهم. راحوا يفركونها كما يفرك المصباح السحري بيد الأمية ينتظرون انتصاب الجنى والوقوف بين أيديهم ملياً، لم يتوقفوا عن الحك، حتى احترق كل ما كان بين أيديهم، وقاموا مفزوعين، يملأ الذعر صدورهم. منعهم الماضي من التساؤل عن أسباب الظاهرة واتخذ ما حدث حجة له تزكي منهاجه، بل أصدروا حكماً على المانح يقضي بأن آل "ماركس" يمارسون التدجيل، مدوهم بآفة فاسدة، وعليهم أن يلقنهم درساً في الصدق والإخلاص. عقدوا العزم على إرغام آل ماركس على التعويض، ولا يقبلون منهم كنوز الأرض كلها. بل سيسبون كل الشقراوات. وقبل أن يشدوا الرحال من جديد إلى ديار آل "ماركس" صوبوا نحوهم المدافع وحشوها بذخيرة اللعن والقذف... وقفوا بالساحة الكبرى، ورفضوا الدخول إلى قاعة الاستقبال وأيديهم لا تفارق مقبض السيف... قال حاديه في الجمع

سأدخل ما داموا رفضوا الحديث هنا وإذا صحّت "وا طلالة" أعلنوها حرباً عليهم، وأغبروا عليهم في عقر دارهم، واسبوا نساءهم واغتموا خيراتهم.

أخرج قائدهم رماد البضاعة المردودة وقال: هذا ما جُدتُم به علينا، لقد عملنا المستحيل وما شاء أن يستجيب، ونعتقد أنكم مددتمونا به وهو غير صالح". اقترِ ثغر "خرينكوف" عن ابتسامة رقيقة مبطنة بالسخرية، كاد أن يطير جراءها صواب القائد، لولا أن بادرت "زاتاشا" الجالسة إلى جانب خرينكوف" وقد أنبأها حدسها أنهم لم يحسنوا كيفية الاستفادة من الهدية: بأية لغة شغلتموه؟ هل كان العقل حاضراً أم غيبتوه؟

استساغ القائد حضورَ المرأة مجلسه، لكنه لم يستسغ مشاركتها لهم الحديث. انتظر من "خرينكوف" أن يطرد الحرمة من المجلس أو على الأقل يسكتها، ويعاقبها على مرأى ومسمع منه. أو على الأقل يدحض كلامها ويقول غيره بعد أن ينهرها "لا كلام للحرمة في حضرة الذكور". غير أن "خرينكوف" زكى كلامها بحركة من رأسه. طار صواب الطلي وهو ينظر إلى "خرينكوف" دون أن يستقر ذهنه على فكرة وراح يقول: كانت هذه كلمة الحرمة فما كلمتك أنت؟ أ يشتغل المصباح بما ذكرت وحده؟ لقد مددتمونا برماد لا بأسفار.. احتراماً لها ترك "خرينكوف" "زاتاشا" تستأنف الحديث فيما بدأت: إن ما منحناكم إياه هو آخر إنتاجاتنا، ولستم أول من اعتمدتموه. نظر إليها الحادي نظرة الذكر إلى "الأنثى"، ونظر إلى خرينكوف نظرة العزيز إلى الذليل وقال: لو كنا نعلم أن "حرمة" هي من ستشاركنا المجلس وأن ما

مددتمونا به في حاجة إلى ما ذكرت كي يشتغل ما كنا كلفنا أنفسنا عناء التنقل وإضاعة الوقت، رغم أن لدينا من الوقت فائضا عن حاجتنا... أمر القائد الموكب أن يصوب فوهات المدافع نحو آل ماركس وآل "خرينكوف" وآل العقل. وما غادروا حتى رشوهم بوابل من الدعاء واللعن والقذف.

لا قبل لهذه الخلائق وأشباه البشر بما يجري حولهم. فالظرف جد ملائم لمن يخطط لاستغلال سذاجتهم والانقضاض عليهم، لا لفائدة ترجى من وراء هلاكهم سوى تحويل ما كانوا يستهلكونه، في اتجاه غيرهم، ممن هم على صلة بالحياة...



لما فشل مسعاهم في الهجرة، ولم يعثروا لهم على مكان ولو على هامش الحاضر، ولم يجدوا لهم سوى الماضي ملاذا، انزوى كل حي من أحيائهم في ركن من أركانه الهشة، يبعث من هناك قذائف من الدعاء على الحاضر الذي رفضهم، وعلى قواه التي تستعبدهم. بقي كل حي من الأحياء وكل دار من الديار في ضيق أفقه المتوارى خلف قفاه، يقدح عبثا شرارة نور لا تقوى على إنارة ذاتها. باسم التعصب يلقي بنفسه بين فكي الجهل، وباسم العلم ينشر الأمية، وباسم الأنفة يغرد منفردا بعيدا عن السرب، وباسم العزة يبيع عرضه في سوق النخاسة... أحاط الماضي رأسه بمواد هشة تنكسر أمام أبسط التحديات، يغطي الهشاشة بعصبية صفيقة لا تلين للعقل وتتنكر للصواب. الأمر الذي يجعل منها لقمة سائغة أمام قوى الحاضر، يكفيها أن تدعي أن هشاشته

الأحياء والديار إرهاب لتحشد من الأطماع ما يعطي الشرعية الدولية لشن الحرب عليه قصد إنهاك قواه ولاستحواذ على خيراته الطبيعية. فيقع فريسة سهلة ولقمة سائغة لقوى الحاضر، تستنزف ثرواته، وتقتصص من أرضه شيئاً فشيئاً لصالح الحي الجار، وقد اتخذته حارساً يرعى مصالحها في المكان. بهذه الطريقة توقع بينهما، وتلقي بهما لهوة في رحى الفتنة. تقف متفرجة عليهما، تنظر إليهما يقاطعان بعضهما، يغلقان المعابر بينهما، وتبدأ الاستفزازات، وتنتشر الجيوش على التخوم، وتبرم صفقات لشراء العتاد من قوى الحاضر التي بثت الحقد والظغينة بين الإخوة المعوقين فكرياً وسياسياً واقتصادياً. هكذا تضمن قوى الحاضر دوام مصالحها داخل أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل. أمام ما يلحق هذه الأحياء والديار من أضرار، لا تأبه لتتأججها إلا بعد فوات الأوان وقد وقعت بين أنياب البولدوغ وليس لها إلا الخضوع لقبضته. أمام واقعها هذا لا تستطيع إدانة البولدوغ، فترمي إختوتها باتهامات خطيرة تكون سبباً في العداء الدائم؛ يستندب هذا الحي ذاك، يتهمة بالتفريط في الذات، والمساهمة في تقويض الهوية، عن طريق الانسلاخ عنها، وارتداء زي الآخر...

بما أن قوى الحاضر التي تستنزف ثروات الأحياء والديار المعوقة تكفر بالماضي، المحور الذي يدور حوله عالم الرسميين الطلليين، فعلاقتها بهذه الأحياء والديار، لا تتعدى المؤسسات التي تدر عليها من الذهب أصفره بعد أسوده، وتدر عليها الدولار قبل الأورو وتوجد عليها بالجنيه قبل الين.

تدر عليها العملة التي تستعبد الدرهم والريال والدينار. ولا يختلف سعر العملات عن سعر البشر رغم الشعارات المدوية التي تتردد عبرها ألفاظ العدالة والمساواة والديمقراطية وغيرها... يقيظ إنسان قوى الحاضر بمئات الأنفار من الأحياء الرسمية والديار الطللية.. وبما أن الأحياء والديار تشترك في ما بينها في الماضي كأقوى دعامة لحياتها كلها، ولا علاقة لها بقوى الحاضر تتأسس على الندية. كل ما يربطهما هو علاقة التسلط بالرضوخ وعلاقة القهر بالاستسلام. فهي تعيش اغترابا في علاقتها بقوى الحاضر، مغلوبة على أمرها، إن قيل لها نحيمك، جادت. إن غضب منها أفرغت خزائنها وجوعت أبناءها وعرضت ربوعها للخطر لإرضاء مالك رقها. ولذلك يشتد بها الحنين إلى الألفة، فلا تجد قلبا يفتح لها ولا أذنا تصغي لها عند قوى الماضي، فتشرع في التفكير في تجديد الأواصر، وتدعو نفسها إلى صلة الرحم، ولا تجد ضالتها إلا عند من تشترك معه في البنيات المكونة لهويتها، تحن إليها تعقد معها الهدنة. حتى إذا أشبعت حاجتها منها تولي لها ظهرها من جديد لترتمي مغلفة في ماضيها في أحضان قوى الحاضر.. والحنين على أشده وفي أعلى درجاته، تظهر عندها دعوات إلى الالتحام ورص الصفوف، والكل يلبي النداء. والتلبية لا علاقة لها بالعقل ولا بالمنطق، بل جاءت لحاجة يحكمها منطق البدئية. لذلك ما أن يتعانقوا حتى تواجههم عقبات نتيجة لعلمهم بالنظرية الماضوية القائلة "منا حاد ومنكم حاد" الأنانية حاضرة من خلال العبارة فما بالك بالقيادة؟ وهكذا يكون الحداة بعدد أفراد المجلس، الكل رئيس ولا أحد مرؤوس. والكل يتحدث باسم المجلس، والآراء بعدد

الأعضاء ولا أحد يقبل أن يدحض رأيه أو يفند، ويسود الانفعال، وتحتفي
لباقة اللسان والسلوك، تاركة المجال للسب والشتم وتجريد السيف من
غمده...

ولما كانت جميع أحياء العالم سواهم تتكتل، والتعامل يكون مع الجهة
كلها لا مع الفرد، وجد بنو عبد رسم وبنو طلل أنفسهم مجبرين على التكتل..
طلب أفراد منهم التكتل مع الغير لكن طلباتهم قوبلت بالرفض. فلم يجدوا
بدا للعودة إلى التفاوض بينهم، وإنشاء مجلس لهم على غرار قوى الحاضر.

أشار عليهم أحد من خارج ذاتهم أن يستقدموا من آل "سام" أو من آل
ماركس "أو من آل النبون" من ينظم لهم مجلسهم هذا. ماداموا لا يرضون
ببعضهم، رغم موقفهم من قوى الحاضر التي يوجهون لها قذائف الدعاء من
قرب المساجد، رحبوا بالفكرة فجاءهم خير. انبرى ممثل أغنى حي يتعهد
أمام المجلس أن أجّر الخير وتعيضاته وكل المتطلبات المادية على حساب
خزينة حيه. هلل الجميع وكبروا. لم يمر وقت طويل حتى أجمعت الأحياء
-ليس انطلاقاً مما يتميز به الخير من قدرات، لكن حسداً منهم لبعضهم
وخشية أن يقع الاختيار على شخص من حي معين- على اتخاذ الخير رئيساً
لمجلسهم وفوضوا أمر التسيير ومنحوه كل الصلاحيات؛ كبروا وهللوا.
جاءهم بمقترحات، كبروا وهللوا دون أن يطلعوا على فحواها ولو اطلعوا
ما فهموا أنها تصب في مصلحة قوى الحاضر. فُعّلت الاقتراحات.. واتخذت
القرارات.. فجرت رياحها بما لم يحسبوا له حساباً.. حينها أخذوا يتبادلون

التهم من جديد، توجهت الكثير من الأصابع إلى أغناهم الذي تصب أنابيب ذهبه في خزائن آل "سام" بقوة التحكم. وأغلب الأحياء تنهش في بعضها، ومن داخل الاتحاد، تكونت تحالفات من الذات على الذات وهم لا يدركون. وفي خضم انشغالاتهم في الكيد في ما بينهم كان الخبير يغرق سفيتتهم؛ تنقيبات لا طائل وراءها، صفقات خاسرة، وديون لا حصر لها. وما عقلوا يوما أن روح مجلسهم مستوردة، لا تتلاءم مع الجسد كاملا، ولا مع أعضائه، كل عضو على حدة.

تحولت وحدتهم المنشودة إلى فرقة محققة، تحول دون تسطير برنامج عمل موحد، أمر يؤكد لمن يتربصون بهم أنه ليس لديهم استعداد للانخراط في الحاضر، يفرضون على فكرهم التوقع في شرنقة الماضي، والانغلاق داخل دارس الرسوم، وفرض عقوبات على كل من تسول له نفسه أن يجيد عن ذلك المسار قيد أنملة. لا يبحثون عن تحقيق ذاتهم إلا في الأطلال، وفي هذا خدمة مجانية لقوى الحاضر التي تسعى إلى تحقيق مستقبلها والتربع على عرش العالم وقيادته.

ما تزال ديار بني طلل وبني عبد رسم تركيب الماضي وتسعى إلى تحقيق ذاتها بالخذلقة، والتموضع في موطن حذاء الأقوياء، لا تنام إلا إذا سمعت نداء من مالك زمام أمورها جزاء على الخدمة التي تقدمها له. فتراها وهي تتسابق لتكون حاجزا بين لهيب الشمس المحرق وكلب مالك رقها. تنهش في

بعضها، وتكيد لنفسها. تضع المتاريس في طريقها، وتحالف ضد نفسها مع الشيطان، عدوهما المشترك. ما زالت إلى يومها هذا تحيى على البسوس وعلى داحس والغبراء ولا تختلف علاقتها مع بعضها عن علاقة عبس بذبيان أو علاقة بكر بثغلب. كل بني عبد رسم وبني طلل قطين لآل سام وآل ماركس كما كانوا من قبل قطينا لآل "ساسان" وآل "رومان". لقد توقفت عقارب تاريخهم عند فجر الزمان، فلم يعودوا سوى عقار يؤث فضاء التاريخ، يغازلون الضعف ويتحرشون به. لا يرفعون ولا يعترفون بأخطائه؛ لقد ظل غرابهم عنزة رغم أنهم ينظرون إليه محلقا في الفضاء؛ لا يصدقون أنفسهم، يتهمون العقل بالكفر ويحلون فيه الجهاد، والغريب أنهم يخسرون جميع المعارك التي يخوضونها ضده، ولم يحدث أن اعترفوا بالهزيمة نتيجة لانتفاء مصطلح الاعتراف من قاموسهم. رغم فعالية العقل وانعكاسات آثاره بالإيجاب، يبقى بالنسبة لهم رجسا من سبل الشيطان، والانخراط فيه خروج عن الطريق ويؤدي إلى التهلكة. غير أن هناك من بينهم من يخرج أحيانا عن القاعدة لينخرط في هذا الاتجاه العقلي أو ذك، لكنهم ظلوا ينظرون إلى الحياة بعين تجزيئية لا يستطيع نظرهم الإحاطة بالقضايا من كل جوانبها، فمنهم من يرى أن العلة في الاقتصاد وحده، ومنهم من يجدها في السياسة وحدها وغيره يراها في التعليم، والحقيقة لو كانوا عاقلين لرأوها في هذه العلل كلها وإلى جانبها علل كثيرة. لكنهم دأبوا على الاختلاف فيما بينهم دون أن يفتنوا إلى أنهم مختلفون وعليهم أن يتعايشوا بوجود الاختلاف.

دخلوا في صراعات على إثر تحديد كل فريق منهم لسبب العلة، كل يرى أنه الوحيد الذي على صواب وغيره على خطأ، ولا يستطيعون أن يروا أن أعمالهم تتكامل وهكذا دخلوا في صراعات مجانية، عادت عليهم بالفرقة والتمزق. ثم لا يلبثون أن يعودوا من جديد إلى نقطة الانطلاق؛ فيشدهم الحنين إلى كل دارس يجمعهم، يعززون إخفاقاتهم للانحراف عن الماضي، فتعلو أصداء المناداة بالتحصن في قوقعة الرسوم؛ بالسيف يقفون في وجه الذرة، يغزون الفضاء على متن الناقة، يؤمنون بالحياة وهم أموات، يطمحون في نهضة وهم منبطحون يحلمون بصحوة بعد سكرة أسلمتهم لسبات أهل الكهف وهم يعتقدون أنهم لم يناموا لحظة، وأن عملة الحياة ما تزال صالحة، غير أنهم فوجئوا بعملات مختلفة منها ما كان وجهها حداثة وعلمانية، ومنها ما كانا عولمة من جهة وتنمية من أخرى، ومنها ما كانا ثورة وديموقراطية ومنها حقوق وحريات، وهم لا يملكون من العملة سوى قطع غير مصقولة، قديمة قدم الزمان، كادت معالمها أن تختفي ولا قيمة لها في السوق. ومع ذلك يصرون على صلاحيتها وغلاء سومتها. ولما كان هذا حالهم، غدت تماسيح آل سام لا تدخر وسعا في مساعدتهم على المضي في تيههم. تضع في طريقهم العقل في مختلف تجلياته، وحيثما تراءى لهم نظروا إليه نظرة احتقار ووجهوا نحوه رشاش اللعنات، ومضوا إلى حال غيبهم.

يعيشون على تراث لا ينمو ولا يُنمى، ولا يفتح على الغير، بل يُكرس جيلا بعد جيل، حتى مل نفسه، وأصبح يغار مما يصيبه الفكر المحيط به من

تغيير. أخذ بعض الأحياء ينادون بضرورة التغيير حتى يتمكنوا من المشي على هامش الحاضر، مادام ماضيهم يجرهم من الانخراط في قوة الحاضر. وكان الاتفاق على ممارسة التغيير داخل الماضي نفسه. فما كان من عبقرياتهم إلا أن جعلت من الفروع أصولاً، واتخذت من الأغصان ثوابت لا ترحزح، ومن الأوراق المعرضة للذبول واليبس والسقوط والحفيف دعائم ثابتة زكته سلطاتهم الفكرية، وأقسمت أن تبني عليها كياناتها الهشة، رغم أنها تسمع حفيفها، وكأنها لا ترقى إلى مستوى إدراك تحللها ودخولها من جديد في دورة حياة أخرى... وبذلك بصموا على تكريس الأمية المطلقة والجهل المكتسح للأحياء، حتى أغرقوا مريديهم في جدلية "التقاطع بين مبطلات الاستجمار ونواقض التبرز" وظلوا يشغلونهم بمثلها. يجوعون الناس ويعرّونهم باسم التقشف في الدنيا، يفرضون عليهم الفقر باسم الصدقة، يلقون إليهم برغيف هو ما سرقوا أضعافه منهم، يعرضونهم للعري، ليخلعوا عليهم ندفة صوف هي من قطيعهم الذي سرقوه منهم. حتى أضحت قناعة عند الأحياء والديار: "للحي كله نصف حظ أميره".

يعجزون عن فهم ما يدور من حديث حول واقعهم، وكيف لهم ذلك وقد اغتالوا العقل؛ إذا قيل لهم انقسمتم وأصبحتم أجزاء، فخروا، وقالوا نحن من فعلنا، ولم يفعل فينا ولا بنا: "انقسمنا ولم نُقسّم. إن في انقسامنا تشريف لنا، ذلك أننا فاعلون غير مفعول بنا ولا فينا"، غير متبهيّن أنهم يفعلون في أنفسهم لصالح غيرهم.

يفخرون بحريتهم في العبودية، يعتقد ابن أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل أنه ربيب الحرية، وهو لا يعي أنه لا يدرك من الحرية غير قيمتها المطلقة، يجهل متى وأين وكيف تبدأ كما يجهل أيضا زمن ومكان وكيفية انتهائها. ولما كان كل فرد يؤمن بهذه الحرية لم يكن ينصاع لنظام جماعي إن وُجد، لأن مثل هذه الحرية تفرقة. ويشهد حبر القلم على أنها السبب الذي استغلته فيهم قوى الحاضر، بدوا لها مجتمعين كقرص حلوى يُسِيل اللعاب، الاستيلاء عليه أمر صعب لا لقوة الديار نفسها ولا خوفا من اتحادها، ولا لفتنة نخب الأحياء وذكائها، بل بكل بساطة تأتي الصعوبة من كثرة الطامعين الذين يتحينون الفرص. فالأطماع أضحت تحتاط من بعضها، ولذلك لا تتجرأ على السطو، مخافة الوقوع في كمين قد يودي بها. والغريب في الأمر أن سذاجة نخب الأحياء والديار يتهيا لها أن قوتها الذاتية هي من تصد عنها الأطماع. لم يكن الأمر يسعف مساعي الأطماع لتحقيق نواياها إلا إذا قسمت قرص الحلوى دون أن تجهز عليه بسكين، فهي لحد الآن تحتفظ به مصبرا في براد محافظا على طعمه، ولهذه الغاية فكرت في صنع سكين جماعي يسيل لعاب الحلوى نفسها تتمنى أن تحظى بلمسة منه، سكين من نعيم يحدد النصيب دون إيلام ولا سيلان، ولا صراخ.. فقسمت الحلوى إلى قطع ونصبت الأطماع كل متملق من أهل الديار حاكما على تل، أو واحة، أو ريع، أو مسقط ماء أو بئر ذهب إلى حين. هكذا ظلت قطع الحلوى تحت أنظار قوى الحاضر يقبلها عن بعد، ذات اليمين وذات الشمال، تنتظر عيون الأطماع أن تشغل عنها. وتساعد

حداتها المتملقين على أن يتيهوا في حريتهم. ولكي تزداد الحلوى تعتقا، وتزداد دنوا من بطونها، كرسد لديهم هذه الحرية المزيفة، تغذيها فيهم. حرية تقوم على الماضي، لا تؤمن بالتمايز والاختلاف، وتحارب التعايش والائتلاف، تؤجج فيهم عصبهم كلما دعت حاجتها إلى ذلك. تجعل منهم قبلة قابلة للانفجار فيهم في أية لحظة. تستغل فيهم ادعاءاتهم، تشجعهم على المضي فيها في حدود ربوعهم.. يدعون أنهم أرقى فكريا من غيرهم، وغيرهم يسوقهم وهم لا يعقلون، يدعون احترامهم للسلم والسلام ويدافعون عنه وهم أضعف شعوب الأرض، يستبدلون الناس وهم البلداء لكن لا يعقلون. سألهم التاريخ من باب اختبار درجة كذبهم، هل عملوا قديما على نشر السلم في ربوع الأرض، يجيبون بالإثبات، وهم كاذبون وغافلون، غير متبهيين أن "كاميرا" التاريخ الذكية الموثوقة في زوايا الزمان التقطت سكناتهم وحركاتهم، وسجلت صليل السيوف وهم في غفلة من أمرهم. أحالوا صوت الأرض عويلا، وأكرمها ذليلا، طمسوا هويات وألبسوها ثوبهم مرغمة، واقتعدوا عروشها بدون وجه حق. مغلوبة على أمرها تتبنى فكرهم وهم على صدرها جاثمين، ولأعراضها مستبيحين، ولخيراتها ناهبين. كانوا بيوتا متفرقة، ادعوا التعارف، ليقال عنهم أتقياء، يحافظون على الفرقة/ الحرية، في شكل طوائف وأحزاب. انتقاما منهم على ما اقترفوا، لا تألو قوى الحاضر جهدا، تبذل الغالي والنفيس لإطعام النعرات وقودا، والعصبيات حطبا حتى تبقى حية قوية تعتمد عليها عند الضرورة بطلب منهم أخضعت قوى الحاضر ماضويتهم

لنلقح مستورد، هجن القيم، فإذا الأخلاق ترتدي أزياء الخلاعة، تتجول على شاطئ الرذيلة، تتأبط أذرع الفساد، والعدالة أضحت تعتمد على المال لتحكم لمن رجحت كفة كنوزه. تجهز على كل من رفع صوت الحق مجردا عن رنين الذهب. لكل عشيرة معتقد لا يتسامح مع معتقد الإخوان وأبناء العمومة وأبناء الخؤولة، هذا الاختلاف يولد لديهم الصراع، لتبحث كل طائفة عن حليف قوي لا تجده إلا في قوى الحاضر. وعن طريق الاستعانة بقيادة قوى الحاضر الذين لا هم لهم سوى تطبيق بنود الإمبريالية الاستعمارية التي أعدتها لاستعباد كل الذين ظلوا في ماضيهم يعمهون، ينطقون بما لا يعرفون، يظهرهم خلاف ما يضمرون، كُتب عليهم النفاق كما لم يكتب على أحد قبلهم. يخططون لاستعباد سقط المتاع الذين لا يصلحون سوى للعمالة ضد الذات. يسلمون في حاويات من جبن ثروات أحيائهم وديارهم لقاء إبقائهم قاعين على عروش لم تستطع مقاومة الغازات السامة حتى تقعرت وأصبحت ماثرا للسخرية والتندر في محافل قوى الحاضر. تستعين بهذه القوى ونخب الأحياء والديار تدرك أن لهذه المساعدة مقابلا لا يطاق، ولكن كل شيء يهون في سبيل العرش. تستعين بها وهي تعلم أن قوى الحاضر لا تعترف بوجودها إلا على الأوراق للتمويه، لأن في نفسها حاجة. وتحقيق أهدافها بالتراضي يدعوها إلى غض الطرف عما تكيله نخب الأحياء والديار لأهاليها من جور وظلم، وما تمارسه عليها من حرمان، أما إذا أبدت نخب الأحياء والديار تعنتا ولم تستجب بما يكفي، فيتم تأليب كل القوى ضدها، وتتهم بما فيها وبما ليس فيها، وتعرض للقصف والاستقبال أجسام

غريبة تحمل أسماء منظمات لم يسمع باسمها من قبل، تلقنها درسا في الرضوخ والاستسلام وطاعة أولي الأمر، يعملون بالحكمة القائلة: "وإذا العرش كاد يضحى هبابا *** فمن الحمق أن لا تبذل عرضا"...

أما الأحياء الفقيرة التي لا ثروة لها فلا أحد من هذه القوى يلتفت إليها إلا إذا كان لها موقعٌ يجعل منها قواعد لتسهيل التحكم عن قرب.. بإيعاز من قوى الحاضر بسطت نخب الرسميين والطلليين جورها معتمدة على طبعها النرجسي، الذي ضيق آفاقها. بسط قادة الطلليين الرسميين عجائزهم على العروش حتى تقعرت، وتبرملت بطونهم المحشوة بالأبعار، أوقفوا حركة الزمان عند نقطة من الماضي، لكي لا تبلى عروشهم ولا تتقادم ولا يطمع فيها غيرهم. أوقفوا حركة الوقت احتفاء به أقالوه ليرجوه من عناء العمل، بنوا له قصرا عند جذع الزمان ينعم بما يشتهي من طيبات ونعم، شريطة أن لا يفارق مربطه. اختلقوا الأباطيل ونسبوا للعقل ليغتالوه وقطعوه وألقوه أشلاء لضباع الأطلال وذئاب الرسوم. زوجوا العلم للرديلة والجهل للفضيلة والنتيجة سيادة الظلام داخل النور، واستشارة الشيخ/الماضي المصاب بالزهايمر محاطا بفقهاء رسوم عصفت بها الريح وجرفت السيول وعلماء أطلال احت معالمها وبادت حروفها. بنفوس مضطربة تحركها أهواء قادمة من بعيد".

الفصل الرابع

بعث كبير "دأسز" بخطاب وجيز للعميل مستشار السلطان بعد أن بلغه هذا التقرير جاء فيه. "نقدر لك مجهودك ، لقد أطلعنا على نتائج عملنا المتواصل فيهم، أملنا أن تمدنا بما يساعدنا على تحقيق ما لا يقع في الحسبان. إنك على ذلك قدير"



بفضل مستشار السلطان الذي لم يدخر وسعا في خدمة المنظمة "الدأسوزية"، خاصة بعد أن اعتبرت محتوى التقرير الذي سبق أن رفعه إليها تحصيل حاصل، انتهى إلى علم "دأسز" أن "آدم" و"نضال" يمارسان من الأنشطة ما يشوش على المنظمة، فأبرق إلى مختلف أتباعه خاصة في حي كعب، يدعوهم إلى اليقظة وعدم الاستهانة بأبسط الأمور مهما كانت تافهة وحثهم على تسخير أكثر العيون إبصارا وأبعدها مدى، لتضع آدم وفريقه

تحت المجهر. تقتفي أثره حذو النعل بالنعل. تترصد حركاته التي لا تسكن. وتقتفي أثر حبره الذي لا ينضب، وإذا دعت الضرورة، وألح الواجب، خرجت من محاجرها حتى تتضاعف سرعتها ويسهل عليها ملاحظته ولو اختفى في خلية نحل. كما أمر بنشر الأذان في كل زاوية تلتقط صوته الذي يسعى إلى كسر الصمت المضروب حول واقع ربوعه في العالم. وبترصده تنقلاته الخاصة والرسمية وجولاته الثقافية الفكرية، والنضالية والترفيهية واللقاءات التي يحضرها، ترفع كل أثار بصماته في المنتديات، وتجمع كل صوره في المرافق التي يرتادها سواء بصفة رسمية أو أكاديمية أو حتى خاصة.

هكذا أحيط "آدم" ونضال" من القبل ومن الدبر، من اليمين ومن الشمال بعيون ثابتة وأخرى متحركة، وأذان تلتقط الصوت حتى وإن كان خارج عتبي السمع، تدون كل ما يصدر منهما ولو دخلا دورة المياه فهي معها... لم يتعب آدم من "كامرات" "دأسز" التي تلاحقه حذو النعل بالنعل. لقد أرهق أشرطتهم السمعية والبصرية قبل أن تحيط بشخصه وبفكره وبنظرتهم إلى الحياة والناس.

همه الوحيد هو أن يجد لأحياء بني عبد رسم وديار بني طلل مكانا في الحاضر، غير أن حداة هؤلاء ونخبهم تعتبر ذلك مساسا بهويتهم وبمقدساتها. فاتهموه بالكفر وبالمروق. لقد عدد مثالهم، وعرى هنتهم، وكشف عن العطل الذي ابتلي به دماغهم. وفي المقابل اعتبروه عميلا يخدم أجندة من

يريدون بالأحياء والديار شرا. وقوى الحاضر لا تدخر وسعا في إمدادهم بالمعلومات والصور الصحيحة منها والمفبركة.. لم يهدأ لهم بال حتى وأمروا مفتي الأحياء والديار أن يصدر فتوى تبيح دمه.

أصبحت عيون دأسز لا تألو جهدا في سبيل الاطلاع على فكر "آدم" وولا تدخر وسعا في رقم التقارير في شأنه ورفعها للجهات المعنية:

"لن يتجسد هذا الحلم، ولن يصير واقعا ملموسا، ولن يرفع هذا الهم وينزاح عن الصدور إلا إذا ركبت الأحياء والديار طريق الصراع على مختلف الواجهات. لا بد للذات من مواجهة القوى التي تقف في سبيلها سواء الداخلية منها أو الخارجية ولعل الداخلية أشد صعوبة من الخارجية. يرى "آدم" أن الأمر يستدعي أولا وعي الذات بنفسها ووعيها بمحيطها ثانيا ووعيها بالآخر ثالثا، وعليه فالصراع مفروض على ثلاث واجهات. ولذلك وجب إيجاد منهجية مؤسسة على معطيات صحيحة في كليتها ودقيقة في جزئياتها. فالصراع المفروض ضد الذات يستدعي منها أولا وقبل كل شيء الوقوف على النقائص التي تعاني منها، وتحديدتها والاعتراف بها كنقائص تسيء ولا تفيد، والعمل على إقناعها بضرورة تجاوزها، وإذا اقتضى الأمر إخضاع الذات على التمدد فوق كرسي "فرويد" وإجراء الفحوصات اللازمة عليها، وسبر أغوارها للوقوف على مكوناتها السلبية والإيجابية، الصلبة منها والهشة، الأصيلة فيها والدخيلة، التقليدية منها والحديثة، لترميم ما يستدعي الترميم أو إعادة البناء من جديد، ووضعها تحت المجهر لاختبار مدى قدرتها

على الصمود ضد قوى الحاضر التي لا تدخر جهداً لإبقائها حيث هي في ماضيها السحيق.

ويرى "آدم" أن من تجليات الخضوع للماضي ما دأب عليه شيوخ بني عبد رسم وبني طلل، منذ نعومة عهدهم من جور؛ يتقنون مختلف أساليب القهر، ينسفون الآليات التي تعمل على تعبيد سبل الخير. قطعت سيوفهم الأيادي البيض التي امتدت لهم لما كانوا مشردين يضربون في الأرض مستنجدين. "أحصنة طروادة" أغرقوا في البؤس الكرماء الذين احتضنوهم، وأغدقوا عليهم من حيث لم يحتسبوا. استغل خبثهم طيبة المضيف الذي لم يفكر لحظة، ولم يخطر له على بال أن تحت ثوب الملاك نَارَ الجحيم. حتى إذا ما قويت شوكة خبثهم، أحاطوا شرهم برجال أشداء على الخير، رحماء بالجور، يتكلمون لغة السوط يمارسون مختلف أنواع القهر على من كان لهم مضيفاً حتى جعلوا القهر سبيلاً للاضطهاد واتخذوا ذلك قاعدة. رسموا بين الأصل والوافد حدوداً ومسافات، يستحيل قطعها، فلا طريق ولا مسلك ولا فج ولا معبر كل ما هناك هوة سحيقة. صنعوا واقعا يغتال أدنى شروط الكرامة، عن طريق بناء أسوار، وتكليلها بأسلاك شائكة، عن طريق زرع بذور الجهل وتعهدها حتى تونغ وتثمر كل حبة عشر سنابل، حتى إذا تساقطت حباتها على الأرض نبتت تلقائياً لتتضاعف سطوتها، فينعم الجهل بالقوة ويتجول حراً طليقاً يملأ الشوارع، يسن قوانينه ويتحكم في الحياة الاجتماعية، يزودها بما لا تحتاج من جوع، يملأ أحكامه على الناس، ويوجه سلوكهم اليومي نحو

السرقه والجريمة، والرذيلة، حتى يصبح الإنسان كلبا جائعا، وعبدا تابعا لقاء لقمة، يحلم أن يُمنَحها، بل أن تلقى له من الأعلى .

ويضيف "آدم" أن شيوخ وحُداة بني عبد رسم وبني طلل حققوا ما ظل يصبو إليه جشعهم، بالاعتماد على التسلط وما ينتج عنه من قهر يؤدي للخضوع وأحسوا بالأمان والطمأنينة، بعد أن جسوا نبض الشارع عن طريق امتطاء ظهره مسافة زمنية طويلة دون أن يردد يوما "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها" ويلقي الحمل الذي يثقل كاهله. وبعد هذا النجاح مروا للمرحلة الموالية، فلبسوا زي الإحسان، حتى إذا ما تمكنوا من الاستيلاء على النفوس، ارتدوا أزياء الوعظ والإرشاد، ليمروا بعد ذلك لمرحلة الإغراء بالدنيا وبالأخرة معا. فوضعوا في متناولهم حور الجنة، وما يتبع من قصور تنفتح أبوابها على السماء، وأنى توجه المرء يقدم له شراب عذب لا هو خمر ولا هو نبيذ ولا هو ماء أعناب، بل هو مزيج من سلاف ورضاب، في آنية من لمى. وبالأموال المقدسة والقصور المؤثثة والسيارات الفخمة والزوجات العديدة، سهل إيمانهم فاعتنقوا تعاليم أبدع في هندستها الترائيون، مراعين أدق جزئيات مكونات الذين آمنوا بهم ليسوقوهم قطعانا إلى الجبهات. وما انتبهوا أنهم يقتلون أنفسهم، وعلى عيونهم غشاوة الجهل تحفي عنهم أن من يحق فيهم القتل هم النخب أنفسهم؛ من يمتصون دم الديار حتى الثمالة، ويعملون كل ما بوسعهم حتى يبقوا عليهم أبقارا ولو كلفهم ذلك خدمة الشيطان، وهذه الاستعانة تكلف أحياءهم ما اعتقدوه أرباحا طائلة. وهي

كذلك باعتبار مصالحهم الشخصية. دون أن يعوا أن ضُعب أهل الحي ضُعبٌ للحي وضعف الحي ضُعبٌ لهم، يجهلون أن القوة في العلم لا في الجهل، في التحرير لا في التكيل، في التفعيل لا في التجميد، في الحرية والاحترام لا في الإذلال والاستعباد، وفي التربية على القيم التي ترفع إلى العلا، لا في سلب الإنسان كرامته قبل الردى.

ويوضح آدم "ممارسات حداتهم ووقوعهم في حبائل منظمنا:

نسي حداة بني عبد شمس وحداة بني طلل أو تناسوا أن باطل الماضي وضعفه جر علينا من الولايات ما لا يحصى ولا يعد. لا أعتقد أنهم ليسوا من سمى ربيعا الأعاصير التي ضربت الأحياء والديار وما زالت آثارها الكارثية، لقد فعلوا ليحجبوا الخريف الذي خلفته الأعاصير وراء أمل زائف لا يعدو أن يكون سرايا؛ وهم يعقلون. لقد فعلوا وهم يتلقون في غفلة من الغافلين منا، وعلى مرأى اليقظين من غيرنا صفعة قوى الحاضر على القفا. وهم يتسمون يسلمون زمام أمورنا للمالكي رقهم منها. وهم ينظرون إلى بعض الحداة منهم يعاملون على انفراد معاملة الشاة القاصية، يتهمونهم بالزيف عن الطريق المرسوم لهم، وينفذون فيهم حكم الإعدام. فتبقى قوافلهم تائهة لا تجد لها مسلكا يوصلها لشاطئ الأمان. فتعرض سيلهم قطعان الذئاب. عوض أن تتأزر تنحى على بعضها باللائمة. تنعت بعضها بالخيانة، فتستعين على نفسها بتجار الحرب يمدون كلا الطرفين بالعتاد، وتعلو الأصوات مناصرة ومعارضة، ويقف الموكب منتظرا، يتفرج على الصليل، ويسمع

ضياح الصهيل، وتعرض الرعية للتمزق ولا سبيل للخلاص سوى ركوب دروب الهجرة والهروب من رحى الذات إلى أنياب الغربة، وقد فقدت روح الإنسانية في مسالك دياره التي طالما جهلا تغنى بفروسيها وفحولة تاريخها. يبحث عن موطن يتبناه، يصون كرامته ويوفر له أسباب العيش الكريم، يفر إلى أحياء بني العمومة، وما أن يبلغها حتى توصل أبوابها بمزالج استبدادها وتفقيرها وتجويعها لبنيتها، بحجة التخوف من نقل العدوى. تبقى الوجهة التي تفتح أذرعها هي ديار الكفر الكريم في ظل فيء قوى الحاضر، وهم يجهلون أنها تطعمه من شحمه. وتأويه في بيت، طابوقه من عرق جبينه.

ويسترسل "آدم":

إني رأيت شيوخ أحياء بني رسم وشيوخ ديار بني طلل هم من يسوقون أحياءنا وديارنا غنيمة لقوى الحاضر التي يخشون بطشها، مستعدين لدفع المال والعرض للحفاظ على مراكزهم كعملاء. وإلا كيف يفهم فتحهم أبواب أحيائهم على مصراعيها في وجه الشر. في الوقت الذي تُرفع أصوات في المنتديات والمؤتمرات لشرفاء ولشريفات يتألمون لواقع قبائلهم المغلوبة على أمرها. يلتزمون الصمت تجاه ما يصيب أحياءهم، وينهبون جيوب المستضعفين من أبناء أحيائهم.

قادوا أحياءهم إلى الهاوية وهم القوامون ! في الوقت الذي تسير المرأة الحرة الكريمة في أراضي قوة الحاضر ببلدانها نحو العلا بخطى ثابتة. تضمن لأهلها العزة والكرامة. يؤمنون عن ظهر غيب أن "الحرمة" إذا ساست،

قادت البلاد حتماً إلى الهلاك. وهم يستقبلون في خيمهم النساء القائدات لشعوبهن، وهن يزرهن كبراميل نبط لا كحدادة. بل يخفون كخوالفهم وراء نساء قوة الحاضر يدافعن عن أحياء إخوانهم ألا إنهم الحريم (مع كل الاحترام والتقدير لبنات حواء) ولكن لا يفقهون في المروءة شيئاً.

ولا يتوانى آدم في نشر فضائحهم:

أيها العالم الحر حينما تسمع أن الحاكم الطلي يقدم لرعيته رغيفاً- وفي هذا إهانة لها. فاعلم أن الرغيف من حقل القمح الذي صادره منها. وحينما تراه يقدم لها كسوة فتأكد أنها من صوف القطيع الذي سرقه منها. وحينما تدوي أبواق إعلامه تعلن أنه قدم لها خيمة تأوي إليها فاعلم أنه من وبر الجمال التي سطا عليها ليلاً لصوص يسرقون تحت إمرته. يحدث هذا في الديار الطللية حيث لا حق لروح أبنائها في نزر كسر من الكرامة، تحفظ لها موقعا من الإنسانية. لا حق لها في التمتع كإنسان بنصيبها من الكائنات الذهنية، حيث يغرق الحاكم هذه الكائنات في مستنقعات البلادة. يحدث هذا حيث يشيخ الشباب تحت سياط القهر في صحارى الهشاشة. يحدث حيث لا إيمان باحترام البشر ولا حق له في العيش الكريم، يحدث حيث الكفر بالاختلاف مبدأ تتبناه و الاستبداد منهاج تسير عليه. يحدث حيث صراع الأضداد محظور. حيث الإيمان بالقدرات الفردية والجماعية كفر.

يحدث هذا حيث العقل الحاكم هو المسير والمدبر والمترس والمفاوض والبابي والرافع والخافض. العقل الحاكم فريد زمانه منذ مهدد لغاية قبره لا

يحق لأحد أن يضاهيه أو ينافسه على العرش أو يزحزحه عنه سوى الموت، وللغرض ذاته فصل المدارس والمؤسسات التعليمية على مقاس جهل بمناسم تطأ رقاب الكائنات الذهنية، وأنياب تدقها دق حناء تذروها، إذا حدث أن عصيت على الدق أحاطوها بأنشطة النظام السادي أو وضعوها تحت مضاء مقصلة الاستبداد، وفي أحسن الظروف يسمح لها بحياة محصورة بين شهقة وزقرة...

للمرضى يصف المداوي بول البعير دواء معبأ في عبوات ما دام الحاكم راعيا، صاحب قطعان الإبل كلها، تنتج البول والأبعار. يستغل بول بعيره لتدر عليه من جيوب الرعايا المقهورين. أما ألبانها فمن نصيب مالكي شهيقه من قوى الحاضر، التي لا تفتأ تزين لهم أعمالهم، حتى تضخمت فيهم الأنأ، كيف لا وقوى الحاضر هي من تشهد لهم وتحفزهم وتكرمهم. أعمالهم النظر في مرآتهم عن رؤية من وما حولهم، عن الضرر الذي يلحق أحياءهم في كل لحظة، عن رؤية مدى تخريب ديارهم بأيديهم وأموالهم، يفعلون وهم مطمئنون. هؤلاء الخداة والشيوخ هم من جعلوا من قطاع طرق النماء، ومؤسسي شبكات الخيانة، وبناء الجسور التي تضمن العبور للصوص الأبقار، ومستغلي الآبار، هم من حولوا عرق الرعايا طابوقا، وحديدا وإسمتتا مسلحا، تحت رعاية قوى الحاضر. فلقد استطاعت أعتى قوة في الحاضر أن تتوارى خلف آل سام تفرض عليهم مشرفين على استثماراتهم، ومخططين لحياتهم. هذه النخب من بني عبد رسم وبني طلل تعرف أحق المعرفة هذه القوة، تلقي عليها التحية

مع مطلع كل شمس فرض عين يؤديه كل من يجلس منهم على العرش وإذا حدث ولم يفعل اهتز عرشه تحت إسته، واضطر للسعي زحفا إلى المتحكم في شهيته يستعطفه، وقد أحس بسائل ينزل دافئا على فخذه، قبل أن يصل باردا إلى ساقيه، دون أن يفكر في بطلان الوضوء مادام لا يعرف للوضوء معنى . ماذا تنتظر الأحياء والديار ممن حادوا عن سواء السبيل؟ ابتعدوا عن سواء السبيل، ليركبوا طريق العز الشخصي يبدلون مال أحيائهم دون أن يكفي، ليزيدوا عليه كرامتها، دون أن تكفي، ليزيدوا فوقها عرضها، دون أن يكفي ليزيدوا عليها المروءة والعفاف، لقد أضحت نخبا من دمي مسلوبة الإرادة تصفق للهزيمة إرضاء لغازيها، وتبكي لإنجاز بنيتها إن حصل، خوفا من أن يسحب الأكسيجين عن هوائها.

يكاد آدم أن ينفجر من شدة الغضب.

إن واقع أحيائنا واقع مزر في عصر بدون مُثل، ذل فيه الحق، وساد الباطل، اغتيل فيه الحب واغتصبت العدالة، اختفى فيه أولو الألباب، بعد أن أذيقوا أشد العذاب. واقع يستدعي تكيفا سريعا وليس مستعجلا، كي لا يوقع الأحياء في الندامة إلى جانب الإزراء الذي هو عليه. وهو مطالب بضبط خطاه على إيقاع حركة الكون وقوة الحاضر التي يدور حول خصرها، ليوكب سرعته، ويراقب كل ما يدور فيه وما يدور حوله، ولا سبيل له إلى هذه الخطوة إلا بعملية إنعاش العين الأصلية التي ما يزال محجراها في مكانه،

وإن تعذر الإنعاش فنقل عينه المثبتة في القفا إلى مكانها الأصلي، أو على الأقل إذا شاء المحافظة على عين القفا أن يعيد زرع عين العقل في مكانها الأصلي.

فما كان لآل سيزار وآل سام وآل ماركس مجتمعين بما لديهم من إمكانيات، أن يخترقوا ذات بني عبد رسم وبني طلل، والتجول فيها بحرية مضرة، لولا اعتماد الأحياء عتبات الماضي أساس منهجها لإدارة الحاضر. رغم التغيرات التي يعرفها العالم لم تبذل مجهودا للسعي نحو الأمم؛ إذ ما زالت تعتمد سيفها سلاحا لمبارزة الأسلحة النارية، وتعتمد الدعاء لرد أذى الصواريخ العابرة للقارة، وتعتمد رجم النفاثة بالحجارة لإسقاطها. بالخرافة تواجه الحقائق العلمية، وباسم التسامح عن ضعف تفتح يد هشاشتها أبواب الذات للغرباء المتربصين بها، وتسميه كرم الضيافة. تطلعها على مكوناتها، وتصرح لهما بممتلكاتها في مختلف أحيائها. عملا بسنة نار القرى، تُنيلها عشاء صغارها، ليبيت الأبناء على الطوى، وإذا اعترض أحدهم ولو باكيا تعرض للعقاب الشديد وفي أحسن الحالات حكّت له والدته المغلوبة على أمرها أسطورة، من تأليف الماضي لتكريس الواقع والاستفادة منه، تخلق به في سماء العجائب والغرائب حتى يغلبه الموت ويرحل جائعا ظمآن. لقد تسرب الماضي إلى قلبه وذهنه وأصبح جزءا منه، يتغذى وينمو ويكبر ويقوى حتى يصبح مسيطرا وصاحب العقد والحل، يملئ عليه حركاته وسكناته بل يجعله يقف في صفه يدافع عنه ضد كل محاولة تغيير مرتقبة.

يتأوه آدم :

آه يا زماني!

تعاني الأحياء والديار من الموت بسبب ما تتعمده النخب من اجترار للقراءة الخاطئة للتراث، عن طريق الافتراء على المثل، ونحل سيرتها، وحمل الناس على الاقتداء بها والسير على خطاها. هدفها تكريس الغباء في أوساطها. حتى تُبقي عليها ضيعةً أبقار تستغل درها، ويخلو لها الجو للسرقة والنهب والقتل والسلطة والجاه. لقد بلغ بها احتكار السلطة أن قعرت العروش، مسحت عضلات المؤخرات، وأرخت عضلات البطون حتى تدلت كعجينة فاضت عن آنتها من فرط خير التخمّة. وهي ماضية في فبركة تراث ينتج نماذج تسبح ضد التيار وتسير عكس قوانين الطبيعة، لينفذ عبرها كل جسم ملوث؛ والنتيجة مجتمع يعمه في الجهل والرذيلة، ذليلاً، محاطاً بالنار يوهم نفسه بالعزة، جاهلاً يخال نفسه أعلم الناس، يحتل ذيل اللائحة في الترتيب غير أنه يمسكها مقلوبة، حتى فعلت به العادة فعلها وأضحى مصدقاً لما خلف ظهره، يدعي أنه أحسن الأحياء على الإطلاق. لكن مجرد نظرة سطحية من الخارج تكشف عن هشاشته على جميع المستويات، ولا أدل على ذلك أنه "ما يزال يضع الثيران خلف المحراث. مسيروها لا يفكرون في حياتهم ومجتمعهم وأحيائهم ولو جزءاً واحداً من المائة من تفكيرهم في فروجهم. وهم ما يزالون على قيد الحياة، منشغلون بالتفكير في حور الآخرة،

ينبذون المستقبل الدنيوي لما يطلبه من جد واجتهاد، ويلهثون خلف المستقبل الأخروي حيث تنتظرهم الحور متكاسلين متكئين. ديار لا تعي الحكمة من مجيئها إلى هذه الحياة، تجهل أن الأمم التي تحترم نفسها لا يرضى أبنائها بأجر دون أداء عمل مثمر يعود على الجماعة بالنفع العميم، يحارب أبنائها الكسل باعتباره قوة تسحب الأمم إلى الخلف. ترى الزوجة ذاتها عالة على مجتمعها وعلى زوجها إن لم تنتج. ولك أن تحكم أي نوع من الإنسان تنتج أحياء الأموات؟ تنتج بشرا "بوله دم وبرازه ديدان" يتعثر فيه كل مشروع تنموي، تنتج بشرا لا يفلح إلا في إفراغ عجالات التقدم من هوائها، وقص أجنحة التنمية. وهذا النوع من المنتج البشري يسيء إلى الإنسانية.

والحالة هذه ماذا عسى أن يكون مصير من عقدوا قران الجهل الوسيم على حبيته الأمية، في أفق امتدت فيه أبعاد ظلام، دثر الشمس، وطمس نورها فلم تعد قادرة على الإشراق، وإن حدث أن تسلل شعّ، فهو لا يعدو أن يكون قاصرا لا يقوى على إنارة بعض ذاته فيصيبه الغياب السريع تحت سلطة ظلام دائم ومستمر؛ هو العامل الأول الذي ألقى بالحي الرسمي الكبير، بأطرافه المترامية، في مسالك من الليل، ليقطع قرونا بيضاء الصفحات، تكبل حركاته جيوش حام، تُفلّ مضاء النور إن عنّ له أن يهل محتشما. ولما لاح بصيص هناك بعيدا في مدخل النفق، لم يستطع الحيّ لم يفلح في فتح عينيه بعد إغماض طال أمده. وبقي لحد اليوم يفركهما في عالم تشكل أنواره من أساطير حديثة، من تنمية وحرّيات وديمقراطيات وحقوق وتقرير مصائر، حيث ضاعت

حكمة شيخهم، فلم تبدِ الحزمة تماسك عيدانها الذي يضمن لها الصلابة التي تحول دون النيل منها. فراح ينفلت منها عود بعد عود، ومن قطيعها تشرد شاة بعد شاة حتى تحولت خريطتهم الممتدة شرقا وغربا وشمالا إلى بقع مكرو سكوبية، أصبح لكل خيمة كيانٌ مستقلّ مبنًى، تابعٌ معنى، وعبدٌ فعلا. أخذت كل خيمة من هذه الخيام وضیعةً كانت أم رفيعةً تجد لها مسوغا في ضواحي الدين، يبرر نرجسية نخبتها (عائلتها) ويبيح لها بإيعاز من آل سام إخراج كل من خالفها الرأي من بني جلدتها لا من الحي فقط، بل من الفكر أيضا. تتخذ من آل سزار أو آل سلاف أو آل سام أو منهم جميعا ومعا روحا لروحها الجوفاء، ومن نفسها الخرقاء عوناً على ذاتها لصالحهم، وهي تجهل أنها تعي أن بصرها عمي وأن بصيرتها استلبت...

تمخض عن تهورها ظغائن بين أحيائها، تطورت إلى حروب بينها لتسري داخل الحي بين مختلف مكوناته التي فرخت باسم حرية التعبير وحرية الاعتقاد وحرية التصرف المزعومة توالدت بطريقة قيصرية، وأنبوية واستنساخية كائنات شبه بشرية بملل ونحل غريبة. استغل الطامعون الوضع الهش فأنزلوا فيها وبينها أجساما غريبة عنها مقنعة بأوراق من فروع العقيدة تدعي أنها من الأصول. فإذا الأحياء التي طالما ادعت النقاء جسم رسمي دارس هجين مستورد الأعضاء، تقرأ على جبينه "صنع غربي" أو "مستورد"، أو "مكرور بالخارج" وفي أحسن الحالات: معاد الصنع في معامل أجنبية. بنية تحكمها علاقات تناقض، لا يعرف الائتلاف إليها سبيلا. تصفق لها

الذات الخارجية تدعي التعايش مع الاختلاف... حالة تراها مخططاتنا ثمرة استوت على ضجيج الصرّار، وحان موعد القطاف ولا بد من السرعة كي لا يفسد الوقت الفاكهة. فبادر المتربصون بالحجر على قوى حُداة الأحياء تحت تسويغ أنها باتت تؤذي نفسها. وخشية أن تؤذي محيطها وجب الإسراع باستئصال أنيابها وسمها. وهكذا ترصدت قواهم حركاتها وسكناتها وهي تتعثر وتكبو. يبذلون العطاء لتعميق هوة الشقاق بينها. يعتمدون طرقاً شتى حتى يتسلل عملاؤهم إلى عمق الكيان الهش وهم يظهرون خلاف ما يضمرون، ينشرون قيم أساطير الآخرين؛ ذئاب في جلد أحمال ينشطون في صفوف القطيع يدعون نشر قيم السلم والتعايش والسلام. حتى إذا انهكت قوى القاعدة الساذجة، حرضوهم على التمرد والعصيان، خرجت تملأ الشوارع والساحات، تطالب بتغيير الأنظمة والحادّة، فيختلط النوّ بالطوفان والإعصار بالبركان، يومٌ لا يسمح بالتفكير إلا في الذات والنجاة ويوم يتحالف فيه النظام مع الشيطان ويطبّع معه العلاقات. وتحترق الذات ويبقى الرماد على أمل الانتفاض والبعث.

لقد آن الأوان للبحث لهذا الجسم، الذي ما تزال عروقه ممتدة في تربة ماضٍ، فسُدت أملاحها وأتى الزمان على فعالية أسمدتها، والذي ما يزال مربوطاً بخيوط واهية إلى قوى الحاضر الخيرة، وبسلاسل من فولاذ إلى قوى الحاضر الشريرة عن غذاء واقعي، وفعال، كفيل أن يمنحه من الطاقة ما يسعفه على الاعتسال من أدران الرسمية الطللية من جهة، ومن نجاسة قوى

الحاضر الشريرة، وارتداء ثوب اعتناق نسج على منوال العقل السليم، حتى يتسنى له الدبيب نحو الحاضر، والزحف على هوامشه، والحبو على عتبته، والقيام من السجود للماضي والقيام من الركوع لقوى الحاضر الشريرة، قد يتسنى له طرق بابه، لعله يسمع نداءه، ويدعه واقفا، يراقبه من خلال العين السحرية، في حركاته وسكناته، وتعابير قسماات وجهه، وكأنه يضعه تحت عدسة المجهر. لعله بعد كل ذلك، يرخص له القفز من إحدى النوافذ الخلفية، ليبقيه في إحدى الزوايا البعيدة ينتظر منه أن يبدي استعدادا كافيا..

لقد شاع عن هذا الجسم أن ضغط ريحه أكبر حجما من فتحة شرجه، يدعي أن له القدرات العظام وهو أجوف معتل، منخور القوى، يزعم ما ليس فيه رغم أن شواهد الامتحان ما فتئت تكذبه يوما بعد يوم، وورقة التوت تنزاح عن عورته كل يوم أكثر. أثبت الواقع أنه يزعم تقديس العلم والحث على طلب العلم وهو يزرع الجهل بين أعضائه عمدا وقسرا. وعندى إذا لم يكن ذلك زعما فهو فهم مقلوب لمعنيي العلم والجهل. يتعقب العقل بالتسميم والكائنات الذهنية بالاغتيال وكل ما يمت إلى المنطق بصلة بالتقتيل. يدعي الطهر والطهارة، وحديث الواقع يملأ الدنيا بحقيقة اتساخه إلى حد التن ونجاسته إلى حد العفونة. يربط الطهارة بالجسد ولم يتبادر إلى ذهنه الذي فقد كائناته، أن طهارة الروح تطهر الجسد بالضرورة، فلو امتلك روحا طاهرة ما احتاج إلى مواد التطهير. يدعي السلم والسلام والإسلام، والواقع يشكو من قسوة سلطته التي تقمع كل القيم النبيلة، تند كل حرية قبل أن تنوي الخروج

إلى النور. لا يستطيع تفكيره الابتعاد من المادة مدار كوكبه الخاص. جسد بلغ أقصى درجات الجبن، والكذب والنفاق والتغليط ورسم الأحابيل، يدخل بيوت الغير بغير حق باسم إرادة الله ومشيتته، يسبي النساء والأطفال، يمارس عليهن نزواته، يسرق مال الغير قبل أن يزهق روحه؛ إنه جسم الزعم والادعاء والتبريرات المغرضة التي حارب العقل واضعا سيفه فوق رقبتة من أجل أن يرفعها سلاحا للإقناع. كل شيء بأمر الغيب، وما الجسم سوى وسيلة عليه يتكل وبالاتكال يكسل وبالكسل يعجز عن إتيان شأنه بنفسه. لا حول ولا قوة له على مواجهة النوائب والصروف إلا بالاستنجد المؤدى عليه سلفا بأصعب العملات وأندرهما، يدخل الحروب اليومية والمعارك الشرسة من داخل الغيب، فيسلط على أعدائه الكثر طائرات تنفث سموم الدماء، توجه نحوهم رشاشاته الذي لا تتوقف عن القذف، يعتقد ساسته هذا الجسم أنهم يضللون أبناءهم وما يضللون إلا أنفسهم، والشواهد من الواقع لا حصر لها. لا يختلف اثنان في السبب أو الأسباب التي جعلت منهم حثالات الأرض، كل ما في الأمر أن قوى الحاضر المتربعة على عرش العالم، قايضتهم خدمتهم الدائمة لها بضمان خلود عروشهم.

آن الأوان لإعداد نشء يدرك أن تقديس الأطلال والتمسح على أعتاب الرسوم أسلوب سنّه المستبدون، إذ وجدوه ذا جدوى لإضفاء الشرعية على هيمنتهم على المستضعفين، لنهب ثروات أحيائهم واستغلال عضلاتهم النحيفة ليزيلوا الشقاء من طريق مستغليهم، وسارقي أحلامهم وناهبي

آمالهم ومغتصبي حقوقهم. يكفي لأبسط عاقل أن يحيل بصره في العالم الرسمي، والحال التي آلت إليها أحياءه من ركوع لجبروت آل سام وتملق لعطف آل سيزار، وارتعاد من انطلاقة بني ساسان، وتخوف دائم من بطش آل سلاف، ليدرك أن وراء هذا الوضع عوامل وأسبابا واضحة وضوح الشمس في عز الضحى...

إن الوعي بأهمية الإصلاح يستدعي عدم إسناد مهمة زرع الخصوبة وتعهدها لعقم يدعي فحولة فكر، وبلاغة حرف. فالتاريخ المناضل يشهد أن العقم لا يروي إلا عن الماضي، والماضي عطاؤه مستهلك، يقف في حقول الفكر دمية لا تملك غير ترديد الأصداء، تستوقف سخافتها السائح، فيقف متفرجا لحظات، يسلط عدساته على العورات، ينقل الصور متحركة على المباشر موضوعا للتندر، ينقل صورا لعقم سيادات وزعامات ماضية خلف أولي أمرها من قوى الحاضر الشريرة ترفل في بلادتها، تتوهم، وتوهم الناس أنها ندّ لهم، ولا توهم إلا نفسها، وما هي بندٌ ولا حليف بل هي الطبق الدسم وهم الأنياب البارزة، هي بيدق على رقعة السياسة ينصاع للشاه في ذهابه وإيابه، في حركاته وسكناته، تدين له بالطاعة العمياء، تمنحه ذهب حيها ليسمح لها أن تشخذ منه الرضا، بهال حيها تشتري منه رضوخها لسلطته، قائلة: "خذ كل الغالي والنفيس وامنحني فيء ظلك". كريمة بسيدها، رؤوفة به، شديدة على أبنائها، ترغمهم على حمل نار قراها إلى حيث مالك رقتها، توقدها عند مطرح قدميه وهو يدوسها دون اكتراث لتعيد إيقادها بالشكل

الذي يرضيه. بخيلة على دعاماتها ومصدر قوتها، تمارس عليهم استبدادها. شأن "الضاييم" الذي كان في بداية اللعبة مجرد ييدق عاد، حالفه الحظ وآزرتة ييادق جهته من الرقعة إلى أن "ضام" فأخذ يضحى بالبيادق التي ساعدته على بلوغ مركزه، الواحد تلو الآخر ليقطع الطريق كرا وفرا، إقبالا وإدبارا على كل من سولت له نفسه أن يبلغ مبلغه وينافسه، يُجِيل جبروته على الرقعة كلها دون أن يتجرأ أحد على رفع عقيرته مهما كان. كل محاولة جادة، أو اجتهدا يتوخى الرقي بكرامة الناس، وحقهم في الحياة الشريفة، تقيض له من القوى ما يجبره على الإجهاض.."

الفصل الخامس

أما العيون التي اقتفت خطى "نضال" حذو النعل بالنعل، في حركاته وفي سكناته، آناء الليل وأطراف النهار فكان همها رصد تحركاته الحاضرة والآنية، ومشاريعه المستقبلية، مادامت حياته الماضية لا تخفى على عاقل. صاغت تقريراً مفصلاً حول المشاريع التي يشغل عليها، بعثت به للجهات المختصة في منظمة "دأسز".

"يرى فريق "نضال" أنه لا يمكن لأي إصلاح أن يتحقق في أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل ما لم ينصب الاهتمام أولاً وثانياً وثالثاً على العنصر البشري منذ خروجه إلى الحياة بل قبل ذلك، منذ أن صار جنيناً. ينبغي له أن يستفيد من تربية سليمة تجعل منه شخصاً عزيزاً يأبى الضيم، ويقف في وجه القهر ويحارب الاستغلال سلاحه لغة الرفض. لتحقيق هذا الهدف لا مناص من زرع كائنات ذهنية معقدة في الجماجم الغضة لهذه الخلائق، وتعهدها ورعايتها، فالكائنات الذهنية المعقدة وحدها الكفيلة عن طريق

نموها وتلاقحها بإصلاح كل ما أفسده الماضي العقيم بمؤازرة من قوى الحاضر الشريرة. إن الاستثمار في العنصر البشري هو الطريق الأنجع لقطع المسافات الطوال التي تفصلنا عن الحاضر المرام. إن حاجة أحياء بني عبد شمس وديار بني طلل ليست إلى الرفاهية المادي بل إلى بناء ثقافة من روح قيم المجتمع الرسمي والطللي حتى يتسنى لها الإبداع والخلق لتدخل الحاضر من بوابة الزمان الواسعة. هذه الأحياء والديار تفتقر إلى إنسان يتقن ركوب طريق العقل بكل ما يتطلبه من تحديات. في حاجة إلى إنسان يمتح من ماضيه النقاء يعينه على الاقتراب تدريجيا من الحاضر الذي ظل الدنو من حراس كنوزه محظورا من طرف سلطة الماضي. ولذا كان من الأولويات، حسب فريقه، تهيب المناخ الملائم لإعداد النشء. وإعداد النشء يجب أن ينصب بالدرجة الأولى على عقل بني عبد رسم وبني طلل، ومده بالوسائل الصلبة والأدوات الفعالة الكفيلة بإخراجه من قعر الماضي السحيق إلى سطح الحاضر المشرق، ليشق طريقه نحو المستقبل. ولن يتسنى ذلك إلا بمحاربة رواسب العقل "المستقيل" فيه أولا ومكافحة الآثار السلبية للعقل "البياني" فيه ثانيا، والاستئناس بالوجه المشرق للعقل "البرهاني" ثالثا. مع ضرورة الحرص على تعقيم البيئة حتى يولد عقلا من صلب نقي خالص الهوية، لا تشوبه شائبة حتى يشق طريقه بنفسه. ولتحقيق ذلك وجب التحقق من سلامة الآليات المتحركة في الجودة. والعمل على تغيير قطع القيم وصيانة أجزاء الأنساق، وتجديدها ما دام بناء المجتمعات يستدعي ذلك. فواقع أحياء بني عبد رسم

وديار بني طلل الحالي، يترجم بكل صدق وبكل أمانة المراحل المبوءة التي يمر بها الفرد في هذه الأحياء الأمر الذي يستدعي اعتماد مبدأ الانتقاء.

لم يكتف الفريق بالتنظير بل مر إلى العمل على الساحة. لقد تعقّب أفراد اللجنة التي يترأسها "حيّ" يعالم الأطفال الصغار، رجال الغد، في أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل فتوصلوا إلى الوقوف على وضع الطفولة، فالطفل في هذه الأحياء، أعيته المسافات المادية أو المعنوية أو هما معا، تفصل بينه وبين تحصيل العلم الحق المؤسس على العقل السليم، نتيجة لسياسة إبعاد المدرسة عن الطفل، سواء في مظهره المادي، إذ لا يقوى التلميذ على قطع مسافات طويلة تفصل بين السكن والمدرسة، حتى في حالة توفر النقل المدرسي؛ أم في تجليه المعنوي، إذا توفرت الحجرة، غاب عدد المقاعد الكافية، وإذا توفرت المقاعد غاب المدرس، وإذا حضر المدرس تعذر على التلاميذ شراء لوازم المدرسة وإذا توفرت كل هذه الجوانب غاب التحصيل، فالبرامج لا تستجيب لحاجيات الطفل الروحية والنفسية ولا تستجيب للأنساق الثقافية المحلية التي تتغذى من البيئة والمحيط وتدخل في التكوين العضوي للفرد وللجماعة، إذا يغلب الطابع التجاري على كل من البرامج والمناهج. فيجد المعلم -باعتباره صلة وصل بين البرامج والطفل وهو مدعو لركوب المنهاج المعمول به- بين عالمين لا تقاطع بينهما، تربط بينهما علاقة تنافر يحاول إيجاد صلة أو بناء جسر لكن هيهات. خاصة إذا لم يكن يمارس النقد على أطراف العملية التعليمية الثلاثة. وهكذا يبقى التلميذ عند النقطة التي انطلق منها

مهما بلغ مكوته في حجرة الدرس، بل يبحث لنفسه عن ملء ذلك الفراغ والشغور الذي نما لديه في حلقات الخرافة والشعوذة، وفي ثقافة الشارع، حيث دروس الاحتيال العملية في كل ركن من أركانه، ودروس الإجرام وطرائقه في كل زاوية من زواياه، يتدرج عبر أقسامها، حسب جده ودرجات إتقانه. في البداية يتخذون من الأسواق دار الخضانة، ثم يلجئون سوق شغل القاصرين، يدفعون عربات توصيل يدوية للمتسوقين، أو يبيعونهم الأكياس البلاستيكية ما أن يلبثوا فيها شهورا عددا حتى تتحسن أوضاعهم ويترفون ويحصلون على عربة "كارو" يجرها حمار، إذا نقلوا بضاعة سرقوا، وإذا تاجروا خانوا وهذا مسلك يقودهم إلى احتراف السرقة، ثم إلى الاتجار في المنوعات، ومن هناك يجربون دروب المتاهات ويكتسبون خبرات تؤهلهم لإنشاء عصابات تحترف الإجرام بمختلف أشكاله. فلا الإصلاحات قادرة على الإصلاح، ولا مراكز إعادة التأهيل قادرة على التقويم مادام فاقد الشيء لا يعطيه، والراغب عن العطاء لا يعطي.

إذا وقع المجرمون في قبضة القضاء، أدوا فريضة السجن ليصبحوا مليون، مخلصين لا تمر سنة دون أن يزوروا المقام مرات، والمكوث بالسجن يدر الأرباح على الشاطر وعلى حراسه، الكل ينعم بالمال وبالمال يكسبون رضا رعاته الذي هو من رضى مالك الرق. لا تطيب لخرجي المدارس الطللية الحياة إلا داخله، يمارسون تجارتهم يوزعون بضاعتهم محاطين بالخدم، يسهرون على راحتهم ليتجنبوا غضب الأباطرة. وليحظوا منهم بعقب سيجارة أو نفس منها منسم بطيب الحشيش.

راحت اللجنة تتعقب حركات هؤلاء الصغار الذين اغتصبت سلطات الأحياء والديار طفولتهم، وسودت ملامح حاضرمهم، وغيب عنهم المستقبل عن طريق وأد الحاضر. تحاول أن تكسب ثقتهم وتطلع على ضياعهم هذا. استطاعت أن تقنعهم أن تخضعهم لَوْخز خفيف على مستوى الذراع، دون إخبارهم أنها تزرع جسما الكترونيا ذكيا تحت جلدهم.. بعد عقد من الزمن عاد أفراد اللجنة في جولات عبر المدن والأسواق بآلات تقرأ عن بعد المزروعات في أجسام أطفال الأمس ومراهقي وشباب اليوم. القليل من تلك الأجسام المزروعة ترن مستجيبة من تحت التراب، أغلبها رن من خلف جدران السجون. والنسبة المتبقية استجابت من داخل الحانات والمواخير، أو من زوايا الشوارع يتاجرون في الموت البطيء. وبعد عقد آخر من الزمن عادت الآلة الكاشفة لتتطرق بالعجب رنت المزروعات مستجيبة من البورصات والشركات التجارية، ومن تحت القبتين، ورنّت أيضا من داخل مقر الحكومة تم اجتماع الفرق لتدارس النتائج.

تتبع اللجنة الثانية والتي ترأسها "نور" أطفال المدارس وتوصلت إلى النتائج المصوغة في هذا التقرير:

أما الأطفال الذين اعتقد ذووهم بجدوى التعليم الطلي الذي ارتضته لهم النخب ولم ترضه لأبنائها ووثقوا به فصبروا وصابروا، ورضوا لأبنائهم هذه المدرسة وهي في الحقيقة لا تملك منها سوى الصفة، فتحصيلهم لا يختلف كثيرا عن تحصيل من أفرجت عنهم في سن مبكرة وولجوا مدارس

الشارع. لكن تكوينهم كان أضعف بكثير ممن تلقوا تكوينهم في مدارس الشارع حيث فرص الاختيار متاحة والحرية موفورة. التحصيل واحد في المدرستين معا، فالمدرسة الرسمية الطللية تبقى أخت مدرسة الشارع، فإذا يرجى من مشرف على العملية التعليمية تلقى تعليما طلليا وتربية طللية وتكويننا رسميا تحكمته فيه مكونات طللية، فقرات عمودها جمعت من هنا وهناك من حقول الماضي على يد جهاز رسمي لا هم له سوى أطللة الأحياء وأرسمتها، فكيف يتسنى للمشددود إلى الماضي بسلاسل الخرافة أن يلج عالم الحاضر جارا خلفه متعلميه. إن الكثير من مرتادي المدارس الرسمية أبلوا بلاء حسنا في ابتكار طرق غش دأبوا عليها منذ نعومة أظفارهم، إما نتيجة لعجزهم على التحصيل لعوامل معلومة، وإما نتيجة لظاهرة التغشيش المقصودة التي يداري بها المشرفون عقم رحمتهم. وخريجو هذه المدرسة هم الذين يعملون تحت إشراف أبناء النخب الذين ارتادوا مدارس تنتمي إلى عالم الحاضر، هم الذين تسند إليهم سلطات الأحياء وظائف خدمة إخوانهم في المجتمع لتجدهم قد سنوا قوانين العمل حسب مؤهلاتهم وتكوينهم النفسي الأجوف. أما الذين امتلكوا حسا نقديا وجدوا في التحصيل وبلغوا من المعرفة مبلغا، اعتبرهم ولادة الماضي وزعماء التراث ومريدو الرسمية مارقين وزنادقة وجبت محاربتهم، أغلبهم لاذوا بالفرار إلى حيث يحققون ذواتهم، وما تبقى منهم، إما شكلوا معارضة عقيمة وإما بحثوا لهم عن سبل للالتحاق بأولياء أمرهم.

كانت المهمة المنوطة بهذه اللجن جد خطيرة وعليها أن تكون عملية كي لا تتيه في التأمّلات النظرية لذلك تنوعت حتى تتنوع الآراء ويستخدم النقاش الشفوي.

جاء في التقرير الذي أعدته اللجنة الأولى:

- "نحن في اللجنة الأولى كانت العبرة بالنتائج لا بالمقدمات، فالبحث الذي دام عقدين من الزمن أثبت لنا أن النهج المتبع في تسيير الأحياء أعطى ثمارا طيبة، يكفي أن اعتماد الأطفال على أنفسهم أنجب سياسيين محنكين، واقتصاديين، ومقاولين يساهمون في بناء اقتصاد الأحياء والديار. وإذا أجرينا مقارنة بسيطة بين خريجي الجامعات وخريجي الشوارع سنجد نتائج المدرسة الثانية أفضل.

- انبرى صوت شارد يقاطع المتحدث محتجا، "لا وجه للمقارنة".

- رجاء دعني أنهي عرضي، ولك متسع من الوقت لتعرض رأيك..
"تؤكد الإحصائيات الرسمية أن نسبة خريجي الجامعات لا تتجاوز بعض أجزاء المائة من مجموع المتمدرسين، والمتخرجون الذين استطاعوا تحقيق ذاتهم يعدون على رؤوس الأصابع، وبعد، إذا كان السجن مكان اللصوص وقطاع الطرق وتجار الممنوعات وخريجي الشارع، ألا تضيق السجون باللصوص المتخرجين من كبريات المؤسسات الاقتصادية وهم أكثر خطورة من غيرهم، رغم أن أغلبهم لا يطاله القانون. وفوق هذا كله فمدرسة الشارع مجانية أما الجامعات والمدارس العليا فتكلف الميزانية ما لا تطيق..."

غادر عضو اللجنة المنصة، تحت استغراب كبير، يثير العديد من التساؤلات: أياكون الأستاذ "عبد المال" رسمي المذهب، طليل التوجه أم يكون مأجورا؟ أم هو مؤمن بما يقول؟

اعتلى المنصة ممثل الفريق الثالث، وقبل أن يعرض رأيه صوب نظره إلى صاحب الصوت الشارد قبل أن يرميه قائلا:

"الكل يذكر إحراق أكبر سوق روحية في حي بني كعب.. من الذي أضرم النار فيها؟ ألم يكن من خريجي المدرسة العليا للمهندسين وقد تعلم في الجامعات الأوروبية؟ لن أطيل عليكم، لا يمكن إنكار النتائج كقيمة مطلقة لكنها تظل ضعيفة من جهة ومن أخرى غير مبنية على أسس قانونية ولا أسس علمية مضمونة النتائج ذلك أن المقدمات تقوم على العشوائية والحظ إلى جانب العنف. ومن ثم فاللجنة تقترح العمل على إيجاد طرق صلبة تؤدي إلى نتائج أكثر فعالية في المجتمع".

أما المتحدث باسم الفريق الرابع فقال:

"نأخذ بعين الاعتبار رأي المعارض الأول في كون العبرة بالنتائج، لكن هل الإنتاج العشوائي لبعض السياسيين المزايدين ذوي اللون الكرنفالي، وبعض المضارين والمرايين هو ما يدعى بالنتائج؟ ماذا نسمي نسبة القراءة التي لا تتجاوز في صفوفهم بضع دقائق في السنة؟ ماذا نسمي عدم قدرتنا على تسيير ذاتنا من الداخل ولجوءنا إلى خبراء من الخارج؟ ما نوع المعرفة التي ننتجها؟ يقترح فريقنا إعادة النظر في مؤسسة الأسرة، باعتبارها نواة

المجتمع وبقطبيها باعتبارهما المسؤولين عن نجاحها أو إخفاقها كما يشدد على إعادة النظر في المنظومة التربوية ككل وتسجل في هذا الصدد ملاحظة تعتبرها ذات أهمية قصوى مفادها أن المدرسة الطللية تكرر الرسوم من حيث لا تشعر، لم تنتبه يوما أن لها زمنين تعلمهما لأبنائنا وهما الحاضر الذي هو ماض بالضرورة ما دامت عجلة الزمان لا تعرف التوقف، والماضي الصريح ولا يوجد زمن صرفي للمستقبل، يحسب له حسابه. فالأمة التي تعيش في ماض مزور لا حاضر ولا مستقبل في الحياة، كل مستقبلها مرتبط بتقديس الماضي. وبناء الحاضر على نبذ العقل. وانطلاقا من هذه الملاحظة يرى الفريق أنه من الأولويات إيجاد حلول لمشكل مؤسسة الأسرة والتعجيل بإدراج زمن المستقبل في جدول الصرف حتى يستفيد منه التلاميذ ويظل نصب أعينهم حتى ينخرطوا فيه.. وترى اللجنة بقية الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية ستأتي تلقائيا نتيجة لما تقدم من إصلاح اجتماعي."

وتحدث العجوز "نضال".

- بعد إفادتها من النتائج التي توصل إليها الفريق، توصي لجنتنا بالانكباب على وضع خطة متكاملة، تعتمد فيها مقاربة الإصلاح بالأهداف، تحدد أهدافها على الأمداء الثلاثة. والرأي عندنا، لا يختلف عن رأي القائلين بإصلاح مؤسسة الأسرة و إعداد نشء غير موبوء، نشء يربى على القيم العلمية والقيم الإنسانية بعيدا عن الأنساق الثقافية التي لا تراعي إلا أنانية الذات؛ تستمد فكرها العقيم بل المؤذي من المأثور ومن الكلام المناسباتي

المتناقض. ولنا في ثقافتنا اليومية أمثلة لا تحصى تكرر الخضوع والانبطاح، ترفع الكسل درجات وتخفض الاجتهاد درجات وعلى من يرغب في الإصلاح أن يكون شجاعا بقلب أسد. ولقد وضعنا مسودة لما نراه كفيلا بإخراج أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل من خنوعها. وستدارسها اللجنة قبل أن تؤثر عليها."

كانت وسائل التواصل الاجتماعي التي أنتجها أهل الحاضر نقمة على ما يرسخه الماضي، مكنت جماهير الأحياء والديار من الاطلاع السريع على التقارير التي تفضح ممارسات الماضي، كما مكنتهم من التفاعل مع المشاريع المزمع تنفيذها من طرف القوى الحية الثائرة ضد الماضي، والتعبير عن الرغبة في الانعتاق من قمقم الطللية عن طريق الانخراط في مشاريع الإصلاح التي نادى به "نضال" وزكاه آدم وجماعته. لم تقف الطللية مكتوفة الأيدي أمام ما يهدد مصالحها، وزادت محاربتها للمشاريع الداعية إلى اعتناق الحاضر مذهبا، وحظيت بمؤازرة آل سام وآل ماركس، يقفون في وجه المشروع الإصلاحي الذي يهدد مصالحها ومصلحتهم على السواء..

آمن الناس بما يقدمه لهم الواقع من أدلة؛ مع طلوع كل يوم يجدون الهوة بين الحاضر والماضي تزداد، يسمعون الأبواق تملأ أرجاء الفضاء ديمقراطية، وجنابات الأرض تنن تحت وطأة الاستبداد، تعلن في الملاء سهر الحداثة على رعاية حقوق الناس، وتضممر ممارساتهم التي تفرغ الحقوق لهوةً لرحاهم تدعي العدل نهارا وتغتال عمر ليلا. يدعي جهابذتهم السلم وهم يزرعون

الحرب خلسة ويتعهدونها بأيدي غيرهم، ينظّرون للمعروف ويبارسون المنكر على أرض الواقع، يُصدرون الإيثار عن نرجسية لا تهوى غير الذات... فراحوا يناصرون التغيير والدخول في هذه التجربة الجديدة. كان لهذه الحركة الإصلاحية أثر إيجابي في أوساط القوى الاجتماعية، إذا تحركت بشكل أضعف تصلب الطلّيين ومن يقفون خلفهم من الساعين إلى إجهاض عزم أنصار التغيير، فاقترح عليهم مستشارون لهم مأجورون تنظيم استفتاء لصالحهم مضمون النتائج. وذلك بإسناد مهمة التزوير المتقن لوكالات خارجية لها باع طويل في مثل هذه المهام. ولكن القوى التي تتوق إلى التغيير كانت يقظة، فطول تجربة "نضال"، والدراسات الحديثة لـ "آدم" في مجال علوم التزوير وعلوم الأجرام أفشلت كل محاولات القوى الطلّية. أفشلت الكثير من محاولات قرصنة ملفات المشروع، كما أفشلت العديد من محاولات تسليط حصان طروادة على الملفات. كما أحبطت محاولات التأثير على النفوس الهشة الضعيفة من خلال إسقاطها تحت تأثير الإغراء المادي وشراء الذمم. لقد جندت من الأساليب المضادة ما يجعل من النفوس الهشة أصلد من الصخر. كانت التعبئة مبنية على الدليل الإقناعي والبرهان الواقعي، وكان لوسائل الاتصال والتواصل فضل كبير في فضح النوايا المبيتة. وهذه إحدى صور الواقع تجسد الصراع بين الماضي العقيم والحاضر كما ينبغي أن يكون:

جلس ولي أمر العروس واضعاً يمينه على يسراه، متكئاً على مقبض عصا انتصبت بين ساقيه المتواريين خلف جلباب فضفاض، بلحية كثة تكتسح

جوانب خده، ما تعدها بتشذيب أو تقليم، أرخى لها عنان الحرية، لتشغل الفضاء الواسع المحيط بالوجه ولتتوغل بعيدا تستوطن تل الخدين. لا تبدو من الوجه سوى معالم بارزة العظام. استبد بها بياض كاد يخفي كل سوادها، امتدت نحو الأسفل لتحتل مساحة واسعة من العنق. أعطيت من الحرية ما زاد عن حاجتها. أما شارباه فمضروبان يكشفان عن شفتين لمياوين من أثر السواك، يضع على رأسه عمامة حال بياضها، فقدت كل تناسق مع الجلباب، عمامة تحرم الشعر من نعمة الهواء والأكسجين حتى غدت الحياة تحتها مستحيلة، أضحى الرأس أجرد كصخرة ملساء، وما يدريك أن هذا الحرمان قد طال أثره محتوى الجمجمة، وإذا كان الأمر كذلك فالأذنان قد لحقهما المصير نفسه. يرتدي جلبابا واسعا فضفاضاً حتى بدا كتفاه من فتحة الرأس. يمكن أن يسع ثلاثة أجساد، تبذير نتج عنه نقص في العرض أمام كثرة الطلب حتى أضحى غلاء الأسعار يضطر الشباب إلى الاقتصاد في الثوب يكتفون بسر اويل الهابطة لا تستر عوراتهم إن على مستوى المؤخرة أو مستوى البطن، أو باللاصقة على الجلد، كأنها شهادة تصريح بالامتلاكات الجسدية أو بعبارة أوضح، يحرم شخصين آخرين من نعمة اللباس...

قبل أن ينس الشاب معبرا عن الرغبة في الزواج من الشابة، من فراغ انتصب أحدهم واقفا، يشع وجهه نورا، حليق الذقن، عاري الرأس تعلو محياه ابتسامة رقيقة، حاد النظر، واثق النفس... طلب أحد العدلين من العريسين، وولي أمر العروس الاقتراب، وشد انتباهه تقدّم الوجه الباسم،

فسأله عن هويته وقرابته وسبب حضوره وتواجده. فرد بصوت عذب يخنقه الأسف.. انتبه له الولي ظانا أن ارتبكا قد ألم بالرجل بوجوده، وقال:

- تحدث يا رجل! لا تستحي ولا تخش شيئا!

رد بالصوت نفسه:

- أما عن هويتي، فأنا "جوهر"، وأما علاقتي بالعروسين، فهي سبب تواجدي هنا اللحظة.. في الحقيقة لدي رغبة في ربط هذه العلاقة معهما. وكان عليهما الحرص على توثيقها معي من تلقاء نفسيهما منذ وقت بعيد، ربما كان المانع جملة من العوامل التراثية.

التفت الولي إلى العدلين، دون أن ينبس، فتحركت الرؤوس الخمسة حركة إنكار ودارت العيون في محاجرها معلنة شجبها، والتفت الولي من جديد ناحية "جوهر".

- لكن، كان من الممكن أن تربط علاقتك وتوطدها في زمان ومكان غير هذين..

- اعذر تطفلي سيدي الولي، لكن حضورني هنا الآن في هذا الظرف اضطراري ومصيري، يعني في لغة الرياضيين أنه لم يعد للعروسين سوى الوقت بدل الضائع، وأنا هنا لأجعلهما يتراجعان عن قرار الارتباط قبل أن يداهما فوات الأوان، وتلازمهما لعنته. وسيكون لهما من الوقت أوسع حتى يرشدا ويعقلا ويكونا أهلا للزواج. ومن هنا يمكن لعلاقتهما أن تؤسس

لحياة الرخاء والاستقرار، وتجنبهما المشاركة في تأزيم الوضع، والإساءة للمجتمع.

- هل أنت مغرم بالعروس أم عاشق متيم تقف في وجه زواجهما، أم أنت مصاب بمس؟ لا بد أنكما تتنافسان في حبها وأنا لا أعلم بذلك، وإلا فعليك بمراجعة طبيب قد يساعدك على التخلص من وهمك هذا... وبعد ما علاقة المجتمع بهذا الزواج؟

- لست مغرما ولست منافسا، لكنني محب، وحبّي لهما معا، أعني للشابين معا، جزء من حبّي للخير، من حبّي للإنسان في هذا الكون الذي أغار عليه، وحبّي للإنسانية التي يسار بها نحو اللامعقول، أنا هنا لأقف إلى جانب هذين المقبلين على الزواج بكل قوتي من خلال وقوفي ضد حصول هذا الزواج، وهما غير مؤهلين.

ضحك الجميع سخرية من موقف هذا الدخيل، معتبرين "جوهر" مصابا بمس حتى أضحى بدون "جوهر".

أما الولي فسأل من باب الاستخفاف:

- لم تعترض على هذا الزواج؟ فيما يضيرك؟ هل تخشى على الأنثى من الذكر، أم تخشى على الذكر من الأنثى؟

- سأمحك خالكك أيها الولي، ما أخشاه هو عواقب هذا الزواج، لأن بكل بساطة تنعدم فيه أدنى الشروط. يجهل المقبلان عليه معنى مؤسسة العائلة،

وما تستدعيه من وعي بالمسؤولية، وعلم بمقتضيات الحياة الأسرية، وإدراك لمبادئ التربية الحديثة والإعداد السليم للنشء. كما يجهلان قصورهما وعدم إلمامهما بقداسة العلاقة التي يرغبان في إنشائها. ولا قبل لهما بانعكاسات هذه العلاقة. فهما يرغبان في علاقة، الباعث الأساسي عليها ليس شيئاً آخر غير الغريزة الطبيعية عند كليهما... في هذا النوع من الارتباط، ضير للبلاد والعباد. وهما وأنا وأنت وغيرنا أجزاء من هذا الركن من العالم، هذا النوع من الزواج وغيره من المؤسسات العشوائية عامل قوي من عوامل ضعفنا التي تجعلنا عرضة للنواب والمصائب نعجز عن حماية ذاتنا ولا توفير احتياجاتها وبلك نقع لقمة سائغة لغيرنا...

كان الولي قد ثبت الجهاز المساعد على السمع وقال:

- لا أرى شيئاً مما تتحدث عنه من أخطار، فأنت لا شك تمزح يا هذا، أو أن حديثك ضرب من الهذيان. إذا كان المقبلان على الزواج بالغين وعاقلين ومتفقيين وراضيين، وها أنا وكيل العروس أزكي هذا الزواج وأباركه، وهذان شاهدا عدل مستعدان لتوثيقه وفق الشريعة والقانون، فلا عائق يمكن أن يحول بينهما إلا مشيئة الله. ليت الشباب يقتدي بهما ويسارع إلى الزواج، لتجنب العنوسة وابتعد عن الموبقات.

- سيدي الولي لا اختلف معك في أن للزواج إيجابيات، لكن ما يتنافى مع الصواب ينعكس سلباً على مؤسسة الزواج، وما لم يخطر لك على بال أو أنك تصطنع عدم معرفتك به، هو انتفاء صفة الرشد عند هذا النوع من العروسين، أو بمعنى آخر أنت تزكي قران الجهل والأمية. وبعد لقد قلت:

لا أحد يستطيع منع هذا الزواج سوى مشيئة الله. وأنا لا أختلف معك في هذا، لكن عليك أن تفكر في كيفية وصول هذا المشيئة، افترض فقط أنني من ستتحقق بمجهودي البسيط مشيئة العلي القدير... دعك من هذا، واسمح لي أن استأذنك في إبداء ملاحظة حول ما ورد في كلامك من ضرورة اقتداء الشباب بهذا الزواج؟

- تفضل

- أنت ترى أن الزواج يعصم من الزلات، وأنا لا أخالفك الرأي، لكن شريطة أن يكون المقبلان على الزواج مسؤولين ويقدران مسؤولياتهما. أما فهمك أنت يا شيخنا للزواج فخطأ، أو بعبارة أوضح فالزواج بالنسبة لك تقليد. وعن هذا الخطأ/ التقليد تترتب الموبقات، لا عن الزواج الذي أدعو إليه. هل لديك علم بنسبة فشل الزواج، هل تدرك أن هذا النوع من الزواج الذي تدعو له وتشجع عليه لن يطول، ومآله الفشل؟ دعني أقول لك: هذا الزواج الذي تدعو له هو مصدر الكثير من الآفات الاجتماعية..

- سأمحك الله، ألا ترى أن العروسين راشدان؟

- نعم، لا أراهما راشدين، وهل لديك ما يثبت عكس ما أرى؟

ضحك الشيخ ملء شذقيه، وأطال الضحكة، ليربح وقتا كافيا لتحضير الجواب، قهقهة حتى أشفق عليه "جوهر"، وقال:

- يعوزك الجواب، أما أنا فلدي دليل قاطع على أن العروسين غير راشدين، وكيف يعقل أن يكون غير الراشد في مستوى المسؤولية؟

- أي دليل هذا؟

- ما سبب تواجدك هنا؟

- للموافقة على هذا الزواج أو عدم الموافقة عليه.

- هل هذا يعني أنك إذا اعترضت عليه لن يمرر العدلان العقد؟

- أجل

- إذن لماذا تجشمت عناء التنقل كان عليك بكل بساطة لا تحضر صحبة الفتاة لتجد نفسها بدون من يصرح لها بالزواج أمام العدلين، وتعود بخفي حنين من حيث أتت.. ألم يرد في معرض حديثك أن الشاين راشدان؟

- بلى

- إذن أنت لا تأبه للتناقض الذي تدافع عنه بشراسة

- عن أي تناقض تتحدث؟ (سأل وهو ينظر إلى العدلين كأنه يشحذ منها مساعدة على "جوهر")

- ألا يكفي أن توافق المعنية بالأمر بنفسها لنفسها، ما دامت راشدة وعاقلة؟ أحتاج الراشد إلى من يتولى أمره؟ أما بالنسبة للعريس، بالله عليك كيف يرضى لنفسه زوجةً من تحتاج إلى ولي يتولى أمرها الذي تعجز عن توليه بنفسها، لتولي عن أمرها غيرها، ترى هل سيتولى عنها أمر ممارسة حياتها؟ هل سيتولى أمر ترتيب مواعيد معاشرة زوجها؟ لله عليك ألا ترى أن ولايتك

هذه إهانة لمن كرمها الله، تجعل منها خليقة لا تعي ما ينفعها في حياتها وما يضرها؟ الله عليك كيف لها أن تعد لنا رجال المستقبل تحت ولايتك؟ حسبك هذا دليلاً، وبعد، انظر إلى ما يؤول إليه هذا النوع من الزواج بُعيد حصوله، لا بد أن العدلين قد وثقا كل زواج أشرفاً على تحرير عقده، كما لا بد أنهما وثقا كل عقود الطلاق التي حرراها، ولا بد أيضاً أنهما قاما بتوثيق إحصاء نسبة الطلاق بالنسبة للزواج، وما يترتب عنه من إهمال لمؤسسة الأسرة؛ تُلقى الأم في الشارع صحبة ما أنتجت بطنها من نسمات. وأكد أنه وبناء على تلك الإحصائيات حررا تقارير يرفعانها إلى الجهات المسؤولة عن شؤون الأسرة حتى تقف على المشاكل التي تتخبط فيها الأسرة، وتعمل على تلافيها مستقبلاً. فاسألها عن تقييمهما الخاص؟

دون أن يتلقيا السؤال من الولي أجاب أحدهما:

- أما التوثيق ففعلت أما الإحصاء فلم أوله أي اهتمام، وأما التقارير فليس هناك جهة تطالب بها...

- هذا دليل على الإهمال المقصود لمؤسسة الأسرة من طرف إدارة تشرط ولاية للأمر، يبدو أن كل الانشغال منصب على التزويج والتطليق فقط ولا يهم البحث عن أسباب فشل أو نجاح هذا الزواج، بقدر ما يهم إنتاج الجهل والامية في معامل الزواج وبمعدل إنتاجية جد مرتفع، أعلى نسبة الزواج في البلاد والطلاق هما أحد المعاهد العليا التي تسهر على إنتاج البؤس في أرقى مظاهره. حتى أصبح المجتمع حقلاً خصبا تنمو في تربته كل المتناقضات

تحتضن الأجسام الغريبة بمختلف هوياتها... لو كنا ننتبه لدوافع الزواج ولأسباب الطلاق لتجنبنا العديد من المشاكل والآفات الاجتماعية بعدم الترخيص بالزواج لمن لا تتوفر فيهم شروط الزواج. فالزواج مؤسسة وإنشاء مؤسسة ليس بالأمر الهين لا تقوم ركائزها على البلوغ والعقل والولي، مع تحفظ شديد على معنى العقل بالمفهوم المتداول.

استنكر الولي:

- هل ترى أن هذين الشخصين لا تتوفر فيهما شروط الزواج؟ انظر إلى طول العريس وعرضه وإلى اكتمال أنوثة العروس وهما راضيان تشع الفرحة من وجهيهما.

- هل عقلت الحكمة الشعبية القائلة "إن زواج ليلة يقتضي تدبير سنة"؟ هل لديك فكرة عن آليات التدبير؟ أفترض من خلال فهمي لكلامك أن اكتمال الأنوثة وعرض المنكين والبشاشة وإشعاع الوجه هي أهم شروط الزواج أو بمعنى آخر يقوم الزواج على اكتمال الجسد عند العروس، أما العقل فيمتلكه ولي أمرها. وكأن ولي الأمر هو من يتدبر أمور حياتها، يحدد مواعيد رغبتها وحالات عدم استجابتها، يعمل على تنظيم أسرتها والإشراف على تربية أبنائها وأن الزواج يقوم على مقومات مادية وله أبعاد مادية فقط، وبعبارة أشد وضوحاً أن المرأة بالنسبة لكم لم تخلق سوى لإشباع الرغبة الحيوانية عند الرجل، وقد لا أكون مخطئاً إذا قلت أنها محرومة من التعبير عن

رغبتها وعليها كبح جماحها وقتلها تماما. تجعلون من الجسد مقياسا للرشد، دون أن تلتفتوا إلى أهم ما كرم به الله الإنسان، وأنتم تعملون على إلغائه. ولا يختلف عاقلان أن العقل في حاجة إلى العناية، والرعاية حتى تتوفر له شروط النمو السليم.

- القانون والشرعية يقضيان بهذا. نحن لسنامشرعين ولا رجال قانون فلهذا وذاك أهله.

- أكيد هما الشريعة والقانون، لكن هلا دللتني على تاريخ صدور هذا القانون؟ ألا ترى أنه من صنع أمثالك من الأولياء، ومع ذلك لما اشترط المشرع العقل كان يعي معنى العقل الذي يعني القدرة على التمييز بين الصالح والطالح ويحترم الغير ولا يقصيه. وبعد، ما دورك في المجتمع، هل هو تكريس واقعه الذي هندسته يد الماضي المشبوه وكرسته أصنام التاريخ التي ظلت تحمل المشعل، حتى دُفن معها، دون أن تسلمه للاحق كي يطعمه زيتا جديدا، وظل كذلك هناك حتى نفدت زيته وأحرق وعاءه لينطفئ نهائيا، ويعم الظلام ويسود الاستسلام لنتائج الآفات الوخيمة والعواقب والظواهر المترتبة عن انعكاسات هذا الزواج؟ هل يقضي الإنسان الطلي عمره في دهاeliz الماضي يقيس الكفاءات باعتبار البنيات الجسدية، ويزود العالم بالقنابل الموقوتة لتغذية الإرهاب؟ كفاءات جوفاء لا تصلح إلا مرقاة تركبها النخب وذوي الجاه والنسب لامتصاص دمائها رغم فقر الدم الذي

ابتليت به. يركبون شقاءها لتحقيق سعادتهم. ليتها كانت تدرك أن لولا وجودها ما وجدوا سبيلا إلى أهدافهم. ولذا كان من الأجدى لها أن تختفي من الوجود حتى لا تتيح لهم فرصة بناء سعادتهم على حساب شقائها.

- أترى أن يصيب الأحياء الرسمية والديار الطللية من هشاشة ومن كساح ومن عجز سببه هذا النوع من الزواج؟ وترى الحل في اختفاء وجود هذا النوع من الراغبين في الزواج؟ هذا جنون!

- أجل لا سبيل إلى تجاوز هذا الاضطهاد، ولا سبيل للوقوف في وجه القهر، ولا سبيل لقطع الطريق على المستثمرين في الهشاشة إلا بهذا الجنون كما أسميته، لا بعث بدون موت يسبقه. فمثل هؤلاء الراغبين في الزواج لاكتمال جسدكم موجودون وجود جهل وأمية، وجود معاناة وشفاء وجحيم، وجود شر وإيذاء، لا وجود علم ومعرفة، ووجود رفاه ونعيم وخير ومعروف وجميل، فهم بهذا الوجود يشكلون الركائز التي تدعم النخب الجائرة؛ جاهلين أن النخبة صديق لهم لدود. فالأسد سيد الغابة لا سيادة له إلا بوجود ضعاف الحيوانات يقتات على لحمها، لن تجد يوما أسدا يلتهم نمرا ولا نمرا ينهش في أسد. وإذا افترضنا أن حيوانات الغابة الضعيفة اختفى وجودها الضعيف واستبدل بوجود قوي لن تستطيع الأسود ولا النمر ولا الذئاب أن تنال منها ولا أن تسودها إلا برضاها. وهكذا تتغير العلاقات في مجتمع الحيوانات، وتضطر الغابة إلى صياغة قوانين جديدة تتماشى مع ما تحقق من قوة للضعيف.

- إذا كنت قد فهمت عنك، فأنت ترى أن الحل في إعادة تربية المجتمع، من خلال تجريده من القيم التي نشأ عليها.

- كأني بك فهمت من حديثي أن علينا نحت المواطن حتى يتلاءم مع المقاس الجاهز الذي أعد سلفا. ومع هذا، ربما في فهمك سهم من الصحة، لكن أكذوبة إعادة التربية تمويه لا طائل وراءه. المشكل أعوص من أن يحل بإعادة تربية المجتمع. ما يصعب على الاستيعاب عند الرفيع والوضيع على السواء، هو الإصلاح الجذري لمؤسسة الزواج أولا ثم تربية النشء الناتج عن هذا الزواج ثانيا، وليس إعادة تربية المجتمع. فعلى المجتمع أن يحارب مجموعة من ال"الأصفار"؛ صفر علم ومعرفة، وصفر حرية، وصفر عدالة، وصفر حقوق، وصفر وظيفة، وصفر ديمقراطية، وصفر وطنية، وعليه أن يناضل لكي يتسنى له تحقيق مجموعة "الأصفار" صفر بطالة، وصفر جهل، وصفر أمية، وصفر استغلال، وصفر اضطهاد، وصفر دوعشة. وأن يريح هذا الرهان الذي لم توله المؤسسات الماضية أي اهتمام، وعجزت النخب على بلورة تصور برنامج راق وجريء كفيل بمحو الأصفار السالبة، ورقن أصفار موجبة على أنقاضها، وفشلت المشايخ في التطرق إلى أكبر تحد يضمن العيش الكريم لكل ذي نسمة في الأحياء والديار. فالعز لن يتأتى بالأحلام والتمني، بل بسداد الرأي، الذي ينبت مع التربية السليمة في البيت المبني على أسس سليمة. فالأصفار السوداء من صلب الزواج العشوائي في صفوف الأوساط الشعبية التي تمثل القاعدة الواسعة للمجتمع الذي ينصاع بسهولة

للأطلال.. أعتقد أن الأحياء الرسمية اليوم قد تأخرت كثيرا في إصلاح مؤسسة الزواج ما دامت تسمح لشابين نشأ على الأمية، في وسط يسيّجه التفقير ويكبّله التجهيل، ويسوده الاستعباد. بالاعتراف بهذا النوع من الزواج، قصّت من جذورها أجنحة القيم العلمية والدينية الحقّة والأخلاقية. أيعقل أن يرشد المرء لمجرد كونه بالغا بالمعنى المادي؟ أي رشد هذا وأي عقل؟ إذا كان الجسد قد نما فلاّنه لم يتوقف يوما عن الغذاء بالغريزة، فإنّ العقل في الأحياء والديار ما يزال محروما من الغذاء ومن كل أنواع المقويات والفيتامينات حتى أصيب بالهشاشة، يعاني من الكساح إلى درجة الإعاقة، ظل مهملا، لم يُعتنَ به ولم يغدّ، فكيف له أن ينمو ويرشد؟ بل سلطت عليه آلات تنسف ما تبقى منه حتى تشكّله النخب وفق مآربها الخاصة فيصبح الجسد هو من يسير العقل...

هذان الشخصان لا يمكن أن يكونا راشدين ولا عاقلين، وأستغرب لماذا لا يحتاج الفتى أيضا إلى ولي كما تحتاج إليه الفتاة. أنظر إلى هذا النوع من الشباب الذي يساق كالقطيع دون أن يعي إلى أين يسير، تحدوه غريزة الأكل والشرب والجنس، إذا سئل عن مؤدى الطريق الذي سيق فيه لا يعرف له وجهة، إذا سئل عن قراءة لافتة حُمِّلها في وقفة احتجاجية، كان كالحمّار يحمل سفرا، لا يقوى على تهجية حروفها، وإذا سئل عمن أقنعه بما يفعله يرد في سذاجة: "موزعو أضحيات العيد، وموزعو الأوراق النقدية" وضعية هذا النوع من الشباب كشفت عن واقع الجهل المطبق والفقر المؤدي إلى

الكفر وهو جهل تراكم عبر الحقب تماشيا مع إرادة النخب وتواطئ القوى الاستغلالية المستغلة، التي تخدم أجندات تملئ عليها من جهات كثيرة. دون التفات للشباب وإذا حدث أن حظي بالتفاتة فهي لتجهيله تجهيلا مطبقا إلى درجة القضاء على أشلاء شخصية، واغتصاب ثقته. ومن ثمة يسهل التلاعب بمصالحه...

فبطلا هذا الزواج إن سألتها عن الدافع لن يجيبك، لأن لا قبل لهما بمعنى الزواج وأبعاده. في أحسن الحالات يكون جوابها: لإنجاب أطفال يساعدوننا على مصاعب الحياة. جواب يدل صراحة على عجزهما على توفير متطلبات حياتها بالاعتماد على نفسيهما من جهة ومن أخرى لا علم لهما بدورهما تجاه الأطفال. لا رشد لهما، والنتيجة لا يختلف حولها اثنان...

من أين جاء هؤلاء الأطفال الذين يبيعون أكياس البلاستيك في الأسواق؟ وما الذي دفعهم إلى هذا عوض أن يكونوا في مكانهم الطبيعي؟ وأولئك الذين يبيتون في الشوارع ما ذنبهم؟ ألا يتحمل المشرع والقاضي والعدل أوزارهم بحكم وظائفهم التي تمارس بشكل آلي بعيدا عن أي وازع إنساني. لقد آن الأوان لوضع شروط صارمة للزواج لا ينبغي التهاون في تطبيقها. ووضع الشروط يستدعي كفاءة المثقف وسلطة العقل لا السياسي ولا رجل دين وأنا على يقين أنه سيضع شروطا تساعد على تجاوز الكثير من المشاكل الاجتماعية. فهو لن يسمح بالترخيص إلا لمن كانوا أهلا للزواج ويدركون حق الإدراك أعباء مؤسسة الزواج.

- أراك تركب السحب وتستمتع وحدك بعالم نظري مثالي بعيدا عن أرض الواقع.

- ألم يكن الطيران يوما في حد ذاته خيالا؟ بلى.. أولم تكن وسائل الحياة اليومية بما فيها من تكنولوجيا في يوم ما حلما؟ بلى.. إذن ما المانع في أن يتحقق هذا الحلم؟ غير أن الطريق شاق والأمر يتطلب بعض الوقت. فكل جديد في عرف المجتمعات العائمة في البؤس مبتذل ومرفوض وكل قديم مقدس ومرغوب. فعلينا أن نعمل على محو قدسية الماضي حتى يؤمن الناس بجذوى الجديد... لا بد من تفكيك الخطابات السائدة التي تكرس قدسية هذا الواقع المزري، سواء المتوارث منها أو المستحدث وتحليلها والوقوف على جوانبها ما وجب منها وما سلب وغربلتها وإزالة شوائبها وتكييفها مع المستجدات ومتطلبات الحياة الحديثة التي أصبح العقل فيها لامعقولا عند جميع مكونات المجتمع من خلال الممارسات اليومية، في الشارع في الإدارات العمومية، في مؤسسات المجتمع المدني، داخل التنظيمات الحزبية والنقابية، والتعامل اليومي في الأماكن العمومية من أسواق وساحات، فما وجه المجتمع سوى نتيجة حتمية لعوامل مضمرة كامنة وراء هذه الصورة التي يبدو عليها للنظر إليه من زوايا مختلفة. ومؤسسة الزواج كما هي عليه اليوم من العوامل المساهمة بشكل كبير في هذا المظهر.

- يا لك من جوهر، إني أخال ما تفكر فيه فصلا من مسرحية سريالية، مكان الحدث مدينة الزواج، زمانه المستقبل، أما الممثلون فشباب في سن الزواج...

قاطعه جوهر معلقا:

- مادمت مولعا بالتمثيل، تتقمصون شخصيات تحتلقونها، تجدون لها أدوارا وهمية في الحياة، كالدور الذي جئت لتلعبه في مشهد عقد النكاح، سأحاول أن أصوغ لك الفكرة في قالب درامي.

- ربما ما لم تفكر فيه وما لم يخطر لك على بال من ردود فعل للقوى الحية والوازع الديني والمجتمع المدني سيكون كارثيا، ومع ذلك دعني أمتع بجموح خيالك، أنا في الاستماع.

- حاول أن تكون جمهورا ذواقا:

"المدينة كلها محمومة، محمولة على كف شيطان أنى اتجهت تسمع التذمر والزفر والتنهيد، وترى الاحتجاج والتنديد. أمام بناية إدارة قضاء الأسرة، يتجمهر الشباب، يرددون الشعارات ويحملون لافتات تستمد محتوياتها من النصوص الدينية ومن الواقع الاجتماعي. ورجال حفظ الأمن يقفون طوابير تحسبا لأي خرق يستدعي التدخل السريع...

(انطفأت الإنارة وأسدل الستار ليرفع عن ديكور جديد)

مرت أيام وشهور دون أن تقدم الجهات المسؤولة أي تنازل. فعاد الشباب للتظاهر أزواجا أزواجا، يتأبط الشاب ذراع الشابة، يطالبون بحقوقهم الذي تخوله لهم كل من الطبيعة والمشرع، تحت أنظار رجال الحفاظ على الأمن، وكاميرات الإعلام...

(تنطفئ الإنارة من جديد ويسدل الستار ليرفع عن ديكور جديد)

مر الزمان واشتد التصعيد من الجانبين فوقف الشباب أزواجاً أزواجاً
بزي العرس. لتجهز عليهم قوات حفظ النظام بالقوة، تفرق بين الأزواج،
الرجال من جهة والنساء من جهة أخرى خلف الستار.

(تنطفئ الأضواء ويسدل الستار ليرفع على ديكور جديد)...

مر وقت قبل أن يحتل الشباب أكبر حديقة في المدينة يتخذونها سريراً
يمارسون فيها ليلة الدخلة، على مرأى من كاميرات الإعلام، لتدخل قوات
حفظ الأمن ومحاربة الفساد الأخلاقي، وتعتقل المئات منهم يحاكمون بتهمة
الفساد...

(يسدل الستار من جديد ليرفع على ديكور قوامه زاوية شارع)

وتحت مصباح إنارة عمومية مشنوق في أعلى عمود إسمنتي لم يراع في
صناعته الكميات المتعارف عليها دولياً من الإسمنت والحديد، تأكل وتشقق
حتى ظهر هيكله الحديدي الذي لا يتجاوز قطر قضبانته ثمانية مليمترات،
تقرص شاب وفتى يتسامران:

- أين وصل ملف طلب رخصة الزواج؟

- أمثالي لم يعودوا يحلمون بالزواج..

- أأنت رجلاً راشداً؟

- ما زلتَ صغيراً يا أخي على فهم هذا الموضوع المعقد، ولذلك إذا كنت ترغب في الزواج فعليك أن تستعد منذ اليوم..

- ما زلتَ صغيراً على التفكير في الزواج، أما أنت فربما فاتك القطار..

- على العكس، عليك أن تفكر منذ قبل اليوم بكثير، لقد تبدلت الأحوال، لم يعد كل ذكر وكل أنثى قادراً على الزواج، لم يعد للمال سلطة في الزواج، بل سلطته تأتي في درجة متأخرة ولا للسن بل للرشد وحده، إذ على الراغبين في الزواج أن يكونا راشدين بمعنى عارفين بما ينفع فيعملان به، وبما يضر بالمجتمع ككل فيتجنبانه، عملاً، لا قولاً فقط.

- أردت أن أرى كيف تقام الأعراس، لم أر أو أحضر عرساً في حياتي، ولم تعد الأعراس تقام كما من قبل ماذا أصاب الناس؟

- الأعراس؟؟؟ هههههههه، لي صديق قد يحصل على رخصة الزواج، بشرط أن تتأهل زوجته المستقبلية، لقد حكمت اللجنة بعدم أهليتها ومنحتها فرصة ثانية، لا بد أنهما سيدعوانني، قد ترافقني.

- أفضل أن يكون العرس في عائلتنا حتى استمتع..

- إذن سيكون عرسك، شريطة أن تكون حاصلًا على شهادة رشد جد عالية، أنت ومن تختارها زوجة لك، ولهذا عليكما أن تكونا طموحين لا حالمين..

- وما دخل الشهادة في الزواج، وهل كانت لوالدينا شهادة عالية؟

- لم تكن مدونة الأسرة الجديدة قد جاءت إلى الوجود، فمفهوم المدونة الجديدة والداك لم يكونا راشدين، بالتالي أنت منتوج فاسد عليك أن تصلح نفسك حتى تحقق رشدا يؤهلك للزواج فتنجح في تكوين أسرة محترمة صالحة لخدمة المجتمع.

- لماذا لا تتزوج في السوق السوداء؟ فلا حديث للناس إلا عن زواج السوق السوداء، ينشط فيه متعهدون من الماضي، يدر عليهم أموالا طائلة يستخدمون وسطاء وسماسرة، يحققون للشباب حقهم هذا بتوفير عقد شرعي يدعون أنه سليم موقع ومسجل حسب ما يقتضيه القانون .

- أعلم، لكن يبدو أنه أمر طبيعي، ما دامت الأغلبية ليس لها من مؤهلات الزواج إلا ما حبتهم به الطبيعة من أعضاء، ولم تبدل أي جهد لبناء رشدها بناء يؤهلها للزواج. ودافع الغريزة عندها قوي في ظل الفراغ الذي يغرق فيه الطليل ولا يخرجها إلا المواظبة على المواقعة. غير أن هذه العقود ليست مضمونة السلامة، قد تكون التوقيعات مزورة. أضف إلى ذلك أن من ضبط مخالفا للقانون يحاكم وتكون عقوبته درسا وعبرة لغيره. قد تصل العقوبة إلى حد السجن المؤبد. هب أنني فعلت، هل أنجب في السوق السوداء؟ ماذا عن أبنائي في المستقبل، كيف أخفيهم عن الأنظار وكيف يتعلمون؟ والقانون لا يسمح للوالدين بتربية أبنائهم بل مهمة التربية تسند إلى مؤسسة متخصصة بعيدة، ليس للوالدين حق في رؤية أبنائهم عن قرب لحما ودما إلا مرتين في السنة لبعض الوقت فقط، يسمحون لهم تحت المراقبة الشديدة برؤيتهم ومحادثتهم.

- وماذا عن منظمات حقوق الكائنات، والمجتمع المدني؟

- أية منظمات؟ ليس في الأمر خرق لمواثيق حقوق الكائنات، هو مجرد تقنين للزواج يراعى في صياغته المصالح العليا على حساب الأهالي الذين يرجى أن يصححوا مواطنين...

- وماذا عن موقف الفقهاء؟

- سيملئون الأرض وعيدا. وسيتولى العقل مناظرتهم في الأمر بالوقوف عند كل نص مرتبط بالزواج والأسرة ويتدبره...

- لم لا تسافر إلى الخارج؟ أقصد أن تتزوج هناك..

- السفر ممكن والزواج ممكن شريطة أن تعود وحدك كما غادرت، أو تغترب بصفة نهائية،

ولماذا يجرمون الناس من حقوقهم الطبيعية؟

- يقولون خطة إصلاح، تدوم ثلاثة أجيال وتعود الأمور إلى مجاريها الطبيعية..

– ألسنا في بلد ديموقراطية؟

- بلى، نحن في بلد ديمقراطى لكن الناس يجهلون أن الديمقراطية أسطورة.

- وما الأسطورة يا أخى؟

- مـــــــــــــــــــــم الأسطورة مثل لا تتحقق أبدا.

- غموض الديمقراطية أهون على فهمي الخاص من شرحك.

- ماذا عن أصحاب الشهادات المتوسطة في الرشد؟
- عليك أن تقرأ المدونة، فالراغبون من هؤلاء في الزواج يتقدمون بطلب للمشاركة في اجتياز امتحان...
- نظري أم عملي؟
- كفالك مزاحا وإلا توقفت عن الحديث..
- رجاء أكمل..
- الناجحون منهم يخضعون لتكوين نظري بالطبع يتلقون فيه مبادئ وأسس مؤسسة الزواج وكيفية الحفاظ عليها وكيفية صيانتها ضد كل ربح قد تعصف بها..
- وماذا عن الإنجاب؟
- هناك من يرخص لهم، وهم من أبدوا رشدا ونضجا ودراية بالزواج وهناك من يسمح لهم بالزواج دون الإنجاب.
- طيب أخي، وماذا عن غير المؤهلين سواء الراسبون في اجتياز امتحان الرشد منهم، أم من لا رشد لهم بتاتا؟
- هذه معضلة تضاربت فيها الآراء واحتجت أصوات لكن الأغلبية رفعت شعار مصلحة الأحياء والديار فوق كل اعتبار، فوق حقوق الإنسان وفوق الديمقراطية. أما الراسبون فلهم الحق في فرص لاحقة شريطة أن يجتازوا الامتحان بنجاح واستحقاق، وأولاء يسمح لهم بإنجاب مولود واحد فقط.

- ولماذا واحد فقط، على الأقل مولود ونصف، باعتبار مكانة الأنثى في العائلة مقارنة مع الذكر.

- عدت للمزاح... لقد رد المتخصصون على سخريتك هذه، عندما تبين لهم أن من يرسب مرات في المباراة يبرهن على رشد ناقص ومن ثمة تبقى إدارته لمؤسسة الأسرة غير مقنعة قد ينجب مواليد يشكلون عالة على المجتمع. ولذلك راعوا من جهة عدم حرمانهم ومن جهة أخرى مصلحة الأحياء والديار.

- ومن هي النوعية التي لم يسمح لها بالإنجاب، وكيف يضمن عدم إنجابها؟
- هي شريحة المتخلفين والمعاقين ذهنيا والذين يرفضون الانصياع لمدونة الزواج عقابا لهم، ويتم تعقيم الزوجين معا.

- وهل سمحت المدونة بالإنجاب خارج الزواج؟

- ولم لا تسأل عن زواج المثليين؟ يكفي مزاحا.

- بقي سؤال لو سمحت، ماذا عن المواليد؟

- بل قل ماذا عن المستقبل؟

- ما هو المستقبل يا أخي؟ هل هو جامد أم متحرك؟ هل يوجد في الحاضر أم في الماضي؟ أم هو المواليد؟

- هههه.. إنه نوع من الطعام الشهوي.. إنه لغز أيها الصغير..

- لم أفهم ما قال لي والدي رحمه الله قبيل وفاته وهو يحدثني عن المستقبل، أن مستقبلنا في طاعة الله، والزهد في الدنيا والعمل للآخرة...

- صدق والدك، وماذا قال لك أيضا رحمه الله؟

قال لي أن أعضائنا مهما فعلنا ستشهد ضدنا، تُسأل العين، فتجيب نظرت إلى ما لا يحل، تسأل القدم فتجيب ذهبت إلى حيث لا يحل، تسأل اليد فتجيب حملت ما لا يحل، أما البطن فتجيب: كان لا يطعمني إلا القليل ومن فتات الطعام. ولذلك وجب حرمانها من نعم الحياة الدنيا. قال لي يجب التفكير في الآخرة والعمل للفوز بالجنة والأنهار والشمار والخمور والحسان. وقال أيضا أن أفضل السبل المفضية هو قتل الكفار. ولذلك سأعمل كل ما في وسعي حتى أكون من أهل الفوز.

- ذاك مستقبل كما يراه الماضي، وهناك مستقبل آخر لا يعرف عنه والدنا شيئا المستقبل في الحياة قبل الآخرة، ما تقوم به اليوم لغدك لأن من لا حاضر له ليس له مستقبل. أعتقد أن والدنا لم يحدثك عن شهادة العقل الذي كرمنا به ضدنا.

- قال والدي: ما دمنا سنموت وما دام مصيرنا الجنة إن شاء الله أو النار لا قدر الله فلمَ التعب وبذل المجهود في ما لا يفيد، علينا أن نوجه جهودنا كلها في العمل الصالح الذي يرضي الله.

- وما هو العمل الصالح حسب ما أمدك به والدنا؟

- العبادات وأعمال الخير والتصدق على الفقراء والقيام والتهجد والصيام والنوافل حتى ننال رضا الله.

- جيد، أن تطيع الله وتعبد، وكيف تذهب إلى المدرسة؟

- في الحافلة

- ومن يصنع لك هذه الحافلة؟

- قال والدي: الكفار، الذين سخرهم الله لخدمتنا.

- ومن أين لك المال لاقتنائها منهم؟

- قال والدي نقلا عن جدي: لقد وضعه الله لنا تحت الأرض، نستخرجه،

بل هم الذين يستخرجونه لنا

- وإذا انتفض هؤلاء المسخرون، وحاربونا؟

- نقاتلهم بالسيف، ونأتي بغيرهم، أو نشترهم من سوق الرقيق.

- ومن أين لنا بالسيف لمقاتلتهم؟

- نشتره بالنا.

- هل هذا ما قاله جدك، أو ما قاله والدك أم هو قولك؟ ممن نشتره يا

صغيري؟

- من الكفار الآخرين.

- الكفر واحد، لا يتجزأ، لن يستخرجوا لنا مالا من الأرض ونحن نقتل به إخوانهم، أو قد يستخرجونه لأنفسهم من حيث لا ندري أو من حيث نتواطأ معهم ليقاتلوننا.

- إنه مالنا، سخره الله لنا وسخرهم لخدمتنا لأنه فضلنا عليهم، ويجب أن يعيشوا تحت رايتنا رغم أنوفهم.

- ومن يرغمهم؟

- عن جدي الأكبر، عن جدي عن والدي: نعمل السيف في رقابهم

- أ يحدث أعمال السيف في من يتحكم في القتل عن بعد؟

- وهل جدي مخطئ في ما قال؟ أبدا

- يا لك من صغير ساذج! يستخرج لك مالك من الأرض، الذي يخترع أحدث التكنولوجيا ويبيعك منتجاتها، ويصنع أحدث الأسلحة ويمدك بها لتقتله، أي منطق هذا؟... فإذا باعك أسلحة فلكي تقتلني أنا أما هو فله من الأسلحة ما لا يمكن أن تتصوره، تقتلك عن بعد وأنت في فراشك، ولما يشخص حكيمنا موتك يقول نوبة قلبية. يسخر لك فيروسات يطلقها من مختبراته (الإيدز والإيولا، وأنواع الحمى وغيرها كالتى نشرت أوبئة كالطاعون والتهفوس من قبل) لقد علمك والدك الكسل والالتكال على الغير، وبهذا الإيقاع ستبقى دائما تابعا، تُحرَّك كحجر على رقعة الشطرنج. وجب إعادة التفكير في ما أخذته عن والدك، وتتمرد عليه، وتتنفض لكي

تجد لنفسك طريقا سالكا نحو مستقبلك وتساهم في تغيير مستقبل الأحياء الرسمية كلها... ماذا تعلمتم اليوم في المدرسة؟

- درسا في الدين والمعاملة، ودرسا في الصرف.

- ماذا تعلمتم في درس الدين؟

- الكثير.. "تعلمنا أن من لا يواظب على الصلاة في المسجد كوالدي الذي يصلي في المسجد الصغير المتواجد بمقر عمله الذي يبعد كثيرا عن أقرب مسجد، أبونا هذا الذي يبر بوالديه ويعنى بنا، يحقق لنا طلباتنا وبه خصاصة، ويسأل عن جارنا ويصل دمنا، منافق وعدو يحق فيه الجهاد. وأن من يتعاطى السجائر مثلك، رغم أنك تسهر على راحة المريض، تنقذ العديد من الأرواح من الهلاك، وأن من يشرب كأس نبيذ رغم أنه يُعلم النشء يخرجهم من الظلمات إلى النور، وينخرط في جمعيات خيرية يساعد الناس فاسق وعدو، وأن الفنان الذي يعيد تشكيل الطبيعة من حوله رغم إيمانه بأن الله جميل يحب الجمال، رغم الرقة وطيبة النفس والذوق الرفيع، فهو عدو ينشر الفتنة والفساد، وأن المفكر رغم ما يقدمه للإنسانية من خدمات مشرك والمشرِك عدو.. وأني أنا الذي أقبل منهم هذه التصرفات ولا أحاربها فيهم أشرتِك معهم في كل هذه المعاصي وبالتالي أنا عدو والعدو يُحارب حتى يعود إلى الحق أو يقتل. لقد أصبحت عدو نفسي بعد سماعي هذا الدرس.

- فعلا إنه والله لدرس في العدااء. وماذا عن درس الصرف؟

صرفنا بعض الأفعال الناقصة إلى الماضي وصرفناها إلى المضارع مجزوما ومنصوبا، وصرفناها إلى الأمر أيضا، وكان الدرس صعبا لم أستوعب الكثير، وأطمع أن تساعدني على الفهم.

- أساعدك بالطبع، لكن عدني أن تسأل المعلم عن سبب نصبه وجزمه للمضارع بل عن سبب عدم رفعه. واسأله هل يمكن صرف الفعل في زمن المستقبل دون تسويق.

- أعدك..

...

- سألته، وليتني لم أفعل

- ما الذي حدث؟

- لقد نهري قائلا: أنت لم تتعلم بعد الماضي ومازلت تقف دون المضارع وتسأل عن المستقبل، فما شأنك أنت وزمن المستقبل؟ المستقبل غيب...

- أهذا ما قاله الأستاذ؟ ماذا فهمت من كلامه؟

- ربما أن التفكير في المستقبل والحديث عنه حرام.

ترك أخاه الصغير تائها يحاول أن يربط بين ما تعلمه على يد كل من جده ووالده، وما تلقاه عن معلمه وما سمعه منه ودخل في سبحة كونفوشيوسية:

عاد من سرحته لما امتدت إليه يد أخيه تعيده إلى الواقع.

- أخى كيف يكون المجتمع موبوءاً؟

تطلبت عودته من شروده وقتاً... وسأل أخاه:

- ماذا قلت؟

- أسألك عن الوباء.

أ لا تعرف أن الوباء مرض يصيب غالباً المجتمعات التي تعاني من التخلف ينتشر بسرعة فائقة بين الناس، قد يصيب كل أفراد المجتمع ويحصد الألباب ويخلف العاهات، والمسببات لا نراها لكنها موجودة معنا وتعرضنا لها بصفة أو بأخرى بل تتسرب إلى الذات من حيث لا نعلم وقد نحس بأثرها لكن لا نوليها اهتماماً؟ سأحاول أن أبسط لك أكثر لقد تعلمنا أشياء كثيرة عبر مسار حياتنا، نُخزن في ذاكرتنا وتطفو من حيث لا نشعر في الوقت المناسب، لتوجه سلوكنا فنحن نتفاعل بواسطتها مع الحياة، ونؤثر فيها وبفضلها نكرس واقعنا وندافع عنه. هي بمثابة علامات تشوير كهذا حلال وهذا حرام مثلاً، وكهذا مباح وهذا مكروه وكهذا فرض وهذا واجب وكهذا عيب وهذا عار... كما يحدده القوي ويفرضه على الضعيف ليعتق هذا الرضوخ، ويدمن على الطاعة، ويتخذ من الاستسلام منهاج حياته. هذه العلامات تبقى في لا وعي كل منا تسير حياته وفقها، علامات فرضتها سلطات أغلبها تناسلت عبر تدرجها من الماضي وأخرى فرضتها التقاليد والأعراف، وغيرها سنتها القوانين التي تحكم العلاقات الاجتماعية. وجماع هذه العلامات جاء نتيجة للقهر الذي يمارسه القوي على الضعيف كالعلاقة

بين الشيخ والمريد وكالعلاقة بين الرجل والمرأة وكالعلاقة بين الحاكم والمحكوم والعلاقة بين المعلم والتلميذ كما ينظمها الماضي... هذا الوباء بما يحمل من عناصر السلب ومن عناصر الإيجاب إن وجدت فيه، وبما يعج به من تناقضات وبما يحفل به من خزعات هو ما يدخل في تكوين الذات التي يجبرها القهر على الدفاع عن مكوناتها الهشة تضيي عليها هالة من القدسية. ولعل الأنساق الثقافية في المجتمعات المتخلفة نتيجة حتمية لمكونات هذا الوباء في تفاعلها مع نفسها ومع العالم الخارجي."

تنفس المصباح المشنوق أعلى العمود الصعداء لما أكرمه الصباح بنوره ليعلن ميلاد نهار جديد، ينعم بنور الطبيعة، ونهض المتحاوران متناقلين من جراء النوم الذي خدر ذهنيهما من جهة ومن أخرى جراء التفكير في ما ينتظرهما أو على الأصح في ما تحملهما خطى الأيام السريعة نحوه.

كبر "الولي" وهلل، وصمت تعقياً على ما سمع، وكأن الماضي لم يسمح له أن ينبس بغير ذلك، أو كأنه لم يدعه الماضي يدرك أبعاد حديث "جواهر" الذي أخرجه مما هو فيه.

- أرايت أيها الولي أن العقل المستقل الذي تعتمد عليه لم يتجاوز بك حدود الجنس عفوا الزواج، ولم يستطع أن يقرأ فنجان رأسي ويكشف عن بنات ذهني في حين أن الأمر ليس عصياً على من يؤمن بالحاضر ويعتمد على العقل السليم.

- وبعد يا جوهر، أتتعتني بما فيك؟ ألا ينم هذا الفصل السخيف عن جهل وكفر، لو كان في ما تفكر فيه ذرة واحدة من الخير، لانتبه له أسلافنا الكرام الذين حباهم الله بسداد الرأي، وفصلوا فيه تفصيلا. فما أنزل الله بهذا من سلطان. فمهما فعلت ومهما حاولت لن يستجيب لك ولمن يقف خلفك أحد. وإذا كنت تحسب ذلك إصلاحا فأنت حر، لكن اعلم أنه إذا شرع القائمون عليه بإنزاله إلى ميدان التطبيق فذاك ما سيجر البلاء على أحيائنا.

- لا كفر يا ولينا في ما يخدم الجماعة، بل الكفر في ما يهدم، وما تسميه أنت كفرا هو الإيثار الحقيقي. حبا الله الأسلاف بسداد الرأي أي نعم، لكن ليس كلهم، وكما حبا السابقين فهو ما يزال يحبو خلقه على مر العصور. يا ولينا، أنتم من أجبرتم العقل بعد تجريده من طاقاته على الخنوع بعد أن أجبرتم بالسيف كائناته الذهنية على الاستقالة.

كن عاقلا ولو مرة، وفكر كيف لله العادل في خلقه أن يخص الأسلاف بسداد الرأي دون بقية الخلق؟ رجاء حاول أن تبعث الحياة في كائنات ذهنك ودعها تُجِب على الأسئلة التي تلح عليها بكل حرية. ودعها تجيبك على: ما قولك في الأقوام الذين سخرُوا لك ما تتمتع به اليوم وما يسهل عليك أمور حياتك بل ما يسهل في مرضك؟ أحباهم الله بسداد الرأي أم لم يفعل؟ ولماذا لم يساهم أبناء الأحياء الطللية ولو بنزر قليل من ذلك؟ الجواب واضح وضوح الشمس، وهو ما ينفثه القهر من سموم الذل والانبطاح والاستسلام في فكر أبنا الأحياء من أن سداد الرأي خص به الله السلف دون الخلف. كما

أن استخفافك هذا يزكي مدى قصورك عن إدراك قدراتي التي لا تأتي أكلها إلا إذا وجدت من يوظفها توظيفاً سليماً مجرداً عن كل مصلحة ذاتية تخدم نزعة أو نعمة أو ميذاً مهما كانت دوافعه، أو ثقافة أحادية لا تنظر إلا لنفسها، ترفض دون اطلاع، كل ما حولها، وهذا يؤكد حقيقة النمو المزرية؛ نمو في ذات الوقت يسير في اتجاهين متناقضين، مع فرق صارخ في السرعة، بينما يدب النمو في العالم من حولنا وفق متتالية حسابية، يطير النمو السلبي فينا وفق متتالية هندسية، أو بمعنى آخر، نعيش عصر سرعة تتلاشى أضواؤه جراء طول مدة مقاومته للظلام."

- ألم تهيء خطة لمشروع إصلاح شامل لإنقاذ العالم من انزلاقاته المؤدية إلى الهاوية؟ أين أنت من إصلاح الحياة الاجتماعية والحياة السياسية؟

رد جوهر بغلظة وقد استفزه الولي:

- لست من يعد الخطط، بل هناك باحثون متخصصون، لا يصدر عن جزافاً بل لهم منهج متكامل يسرون وفقه حتى تكون النتائج مضبوطة. أما في اعتقادي الخاص فأمر الدين أولى بالإصلاح، لأن كل من استصلح ذقنا، وأرسل حية أصبح مصلحاً، يصول ويجول في الفسق متخذاً من الدين حارساً له...

الفصل السادس

أنا الآن وفي الحالة التي أنا عليها، وحيث أستطيع أن أتواجد- كائنٌ بإمكانيات كبيرة، تساعدني على التخلص من جسدي وعلى مغادرته والتحليق في الأجواء، دون مركب أو بساط. يتسنى لي الاطلاع والمشاهدة دون أن يشعر بوجودي كائن مخلوق، غير أن قدراتي على الإدراك والفهم والتحليل لم تعرف تطورا ملحوظا، ظلت كما هي، وهذا مصدر قلق بالنسبة لي، لا أدري هل مرجع ذلك إلى سني ومستوي العلمي؟ وإنّ ما يقلقني هو أمر تطوري، أو بصيغة أخرى، هل وضعي وأنا على هذا الحال قابل للتطور مع مرور الوقت أم سأظل كما أنا الآن ما لم أعد إلى جسدي وأعود إلى حياتي الطبيعية؟ أم أُنِي في كلتا الحالتين لن أختلف عن الكائنات البشرية في بني عبد رسم وبني طلل، بحكم أن مكوناتي من مكوناتهم وبنيات عقلي من بنيات العقل الرسمي الطللي الذي تؤثته أنساق ثقافة رثت ولا تعترف لنفسها أن الزمان عفا عنها. لا طائل من ورائها سوى الدوران في حلقة مفرغة لعلها تصادف

مبررا تستدل من خلاله على وجوب التقوقع في شرنقة الماضي السحيق، واتخاذ ملاذا إلى الأبد. وفي كل الأحوال لن أرقى يوما إلى مستوى الإحاطة بما يجري في العالم في حقول المعرفة، ولا إلى فهم ما يحاك خلف ظهورنا من مؤامرات. والأمر الذي يؤرقني هو كيف أتمكن من إفادة الأحرار من بني جلدتي بما اطلعت عليه من أسرار وحقائق تساعد على فهم محيطهم أكثر وتعينهم في عملهم على إيجاد سبل قد تمضي بالأحياء الرسمية والديار الطللية نحو شاطئ النجاة، علما أنه لا تربطني بهم بل بكل ما هو خارج عن عالمي الخاص أية قناة للتواصل، أنا عاجز عن إيصال ما أقرأه وما أراه وما أعيشه، وما أعرفه إلى غيري لانعدام شبكة التواصل بين عالمي وبين العالم الأرضي، بل بيني وبين الناس على الأرض.

توجد في حوزتي تقارير لا تحصى، من إعداد القوى "الدأسية" عن العالم الخام، عن أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل، والأخطار المحدقة بهذا الجزء من العالم، محط أنظار المؤامرات، توجد في حوزتي دراسات، مفصلة التفاصيل، لا تدع جزئية صغيرة دون أن توليها من الاهتمام أكثر مما تستحق، وهي دراسات سبقت بمسافات كبيرة الدراسات التي استأثرت باهتمام آدم وفريقه.. عندما أفكر في العجز الذي يستبد بي، وأنا أنظر إلى أمثال آدم من الذين يؤمنون بقضاياهم دون أن أستطيع محادثتهم ومدهم بما بين يدي لا أملك إلا التمني؛ أغرق في شرود، وأتيه فيه أراني اخترعت تكنولوجيا تواصل بين العالم الذي أنا فيه والعالم الأرضي، فأراني، من حيث أتواجد في تواصل مع سكان الأرض، خاصة الأحرار الساعين إلى تجنيب ديارهم

الأرسمة والأطللة التي تعمه فيها فأفيدهم حتى يجدوا سبيلا لتحقيق هدفهم المنشود، وحتى يعدوا السلاح الأنجع لإحباط النوايا التي تسعى قوى الشر، سواء قوى الماضي منها أو قوى الحاضر، إلى تجسيدها بهدف التوسع والتحكم في مصائر الرعايا والأهالي. غير أنني استيقظ مفزوعا وأنا أتفرج على الذات في إطارها الرسمي الطليي بما يحكمه من قهر، ولد من رحم التسلط، لينشر أنواع الخضوع والانبطاح، وأصناف الاتكال والكسل، تحجب وضوح الرؤية وعمقها ولا تسفر إلا على ضيق الأفق وعلى السطحية وعقمها. ثم لا ألبث أن ألتفت إلى الإطار العالمي المحيط بالذات الرسمية الطللية لأستنتج أنه من غير المستبعد أن تكون هذه التكنولوجيا "التواصل بين العالمين" قائمة وتؤدي وظيفتها، غير أنها في ملك قوى الحاضر وحدها، محظورة على سقط المتاع. تكنولوجيا لا تباع ولا تشتري ولا تهدي. كما يتبادر إلى ذهني أحيانا أنني إذا فكرت أن أقرأ جهرها هذا النموذج الموجود تحت نظري قد تلتقطه صدفه إحدى الجهات المهمة بالسيطرة على الأوضاع الطللية، علما أنني في حالتي لا أتوفر إلا على جهاز صامت. وفجأة تذكرت أنني إنسان طليي، رغم كل التجربة التي مررت بها، فمهما فكرت ومهما فعلت سيبقى نتائج تفكيري خاضعة لترسبات رسمية طللية. وفي انتظار أن تربط من حيث لا أحسب تكنولوجيا التواصل بين الأرض والسماء لا أملك إلا أن أقرأ وأعيد قراءة ما أطلعت عليه بجهازي الصامت:

"لقد كلّفنا -نحن "دأسز"- العمل على تكريس واقع أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل تضحيات مادية ومعنوية، ونحن نبحث جادين عن

سبيل لا يثير الشك للاستيلاء على مساقط مائهم ومواقع هوائهم، حتى يهجروا ديارهم من تلقاء أنفسهم. رغم ما توصلنا إليه في سعينا من تقسيم لأرضهم إلى بقع، وتشتيت لقوتهم عليها، حين أنزلنا نرجسيا على رأس كل ربع، واجهنا عائقٌ كبير جدا، بدا أول الأمر من المستحيل تجاوزه، إنه اعتقادهم الذي يلتفون حوله، يدافعون عنه بالنفس والنفيس. غير أن دُهاتنا نفذوا إلى ذاتهم وسبروا أغوارها، حتى يقفوا على السبل التي تمكنهم من قطع الحبل الذي يربطهم بالعروة التي يستمسكون بها. أثبتوا أن هذه الذات منكمشة على نفسها، تحتمي داخل قوقعة نسجتها من خيوط ماضيها. حين بحثوا في فكرهم الخالص الصفاء، في وهلة أولى لم يجدوا إليه منفذا حتى كادوا أن يياسوا ويستسلموا. لكن لما تناولوا بالدرس والتمحيص فكرهم، وجدوا فرقا شاسعا، بين ماء أخضر زاهر تمر أحياءهم بجانبه صباح مساء وتشيح عنه وبين ماء حسيّ راكد، تلقي عصاها عند منابعه، فاهتدوا إلى استغلال ضعف عقلهم الذي يشير عليهم بأكل القشور وطرح اللب لزرع أجسام غريبة بين مكونات أحيائهم وديارهم، تحب لهم القشور بل تحملهم على الإيمان بها إيمانا لا يتزعزع، وتنفرهم من اللب، عن طريق نسخ النص الأصلي بالنص الفرعي، أجسام متضاربة الاتجاهات ومتناقضة الفكر، استطاعت أن تنشط حتى انتشر مفعولها في الأوساط. حينئذ نفخ دهاتنا من بعيد في رماد كان يغطي جذوة لم تحب نارها، ثم اقتعدوا المدرجات يتفرجون كيف سرت الفرقة إلى الذات التي لم تكن يوما واحدة إلا على الورق وفي الأبواق، فإذا هي ذوات متنافرة داخل الذات، وأشلاء يدعي كل شلو منها

الأفضلية مصدقا زعمه حتى يحوز قيادة القافلة، وترأس الركب. حتى إذا اختصموا لم يلجأوا للعقل لإصلاح ذات البين والضرب على يد الجهة الجائرة، عفوا لجأوا إلى عقلهم "المستقيل" فساقهم إلى دهاتنا من حيث لا يدرون نفرا نفرا، يشحذون منهم الدعم ليقبضوا مقابل كنوز الذهب أسوده قبل أصفره، وهم لا يعلمون عنهم سوى أنهم تجار حرب، فيدفعون لهم بدون حساب، ويغدقون عليهم النوال، يتوسلونهم ألا يزدوا خصومهم بالسلاح، فيقبلون توسلهم ويبيعون خصومهم وخصوم خصومهم وهم لا يأبهون لهم. يستنزفون خزائهم وآبارهم ومناجمهم وفوق كل ذلك كرامة أحيائهم. لا يأبهون لرعاياهم، جردوهم من إنسانيتهم عرضوهم في متاحف الفقر والجهل، عبر مختلف الأروقة. لم يبقوا من شرفهم سوى على فكة تافهة هزيلة القيمة. فاتورة الحرب دماؤهم، وأرواحهم وعرضهم. تمتطي الخلايا المزروعة متن الحقد والكراهية والانتقام نحو القتل والسطو والإغارة والسبي باسم الدفاع عن الذات. حتى لم تعد هناك ذات واحدة بل فيروسات على شكل حصان طروادة، دمرت الذات التي لم تكن سوى شبه ذات. ذات من قش قش تميل حيث تميل الريح لا فرق عندها بين الصبا والجنوب... ذات من قش يمكن حرقها بأدنى شرارة، تراها بين أنياب القوى تهرب من بطش هذا إلى جحيم ذاك، أو تهرب منه إليه، وهي في غفلة من أمرها، ذات من هباء تعجز عن الوقوف في وجه أضعف تيار، تستنجد باللصوص ضد قطاع الطرق. ينجدونها مقابل الارتقاء اللا مشروط في حضنها، ليرغموها على الخدو حذوهم والسير على نهجهم واستهلاك ما ينتجون من مادي ومعنوي.

لقد استطعنا إغراء نخب هذه الأحياء والديار؛ بالسلطان رفعنا لها
عروشاً تجثم على صدر ما تبقى للأهالي من فتات الكرامة، إذ أوحينا لشیطاننا
أن يلقنها دروساً في طريقة تحويل الإنسان إلى آلة تركب وتشغل ولا تتوقف
إلا بأمرها بعد إذن من شیطاننا، وإلى رعية مجردة من كل إرادة، بينها وبين
الحرية حواجز من القهر حتى أضحت مطوعة تنقاد حسب مزاج النخبة إلى
حيث يراد لها أن تمضي. ومن حرصنا على انغماسها في الملذات وضعنا على
بصيرة هذه النخب غشاوة، إذ أوحينا لعملائنا أن أغرقوها في الشهوات
ولما كان عالمهم يدور حول خصر الشقراوات، جاؤوها بنُجْل العين عاريات
الجيوب والساق، ووضعوا عروشها فوق بطن الشقراوات وهندسوا لها
حدائق بأعنان ونخل ذي أعداق، فطاب الهمس واللمس والعناق بوجود
ما لذ من الكؤوس الدهاق. وبالرشوة تحت غطاء الهبات، أغدقوا عليها
العتاء فملكوها على ذاتها وسحبوا من تحتها البساط، حتى صارت مشلولة
العضلات تحتاج منهم في كل ما تنوي القيام به المساعدات. إذا أذنوا فعلت،
ونحن لا نأذن إلا إذا كانت الخطوة تدر علينا ما يشبع جشعنا من الصلات..
وما انتهت أنها تحون ذاتها، لإرضائنا ولا قدرت عواقب ما تقدم عليه من
سلوك أرعن، يسوقها نحو الهاوية. تمكنا من تجريدها من هويتها؛ صرحت
النخب أصالة عن ذواتها ونيابة عن رعاياها، لا شفوياً ولا كتابياً بل بالفعل
الملموس أن لا هوية لها على الإطلاق، تدعي أن من مكونات هوياتها دفع
الحرام وإتيان الحلال، وهي ترتشي وتسکر وتزني، بل تدعي العدل وهي
أظلم من مارس الظلم، تدعي المساواة في الحقوق، والواقع أن للرعية كلها

نصف حظها من الخيرات، كلاهما متخمة وأبناء الرعية يبيتون على الطوى.
تدعي الإيمان بالخالق تبني له بيوتا مصنفة، والرعية تبيت في العراء تفترش
الثرى وتلتحف السماء.

لم نجد بني عبد رسم وبني طلل بلا هوية فحسب، بل وجدناهم داخل
قوقعة، جدرانها من طابوق الماضي، بذلنا كل ما يمكن كي نقوي صلابتها،
حتى إذا عن لأحدهم القفز خارجها لن يتسنى له ذلك، وبهذه الطريقة نبقى
عليهم داخلها، بعيدا عن الحاضر؛ لما وجدناهم قد أوقفوا الحياة عند جذع
الزمان تحتمي به، لا تغادره آناء الليل وأطراف النهار، أوحينا لجنتنا أن ابنوا
لها مقاما و اجعلوه ضريحا، واجعلوا النخبة تُجري للضريح منحة شهرية
معتبرة، لأن في تقديس الأموات والتمسح على أعتاب الأضرحة لتكريس
لسلطة الجهل، ودعم لسيادة الماضي أكثر فأكثر، وفي سيادته قضاء على العقل
أو على الأقل تكريس استقالته، وإبعاده عن الحجاج والبرهان. وهكذا خلا
لنا جو الحاضر وبقي خالصا لنا.

فأحياء بني عبد رسم وديار بني طلل تشكل من تجمعات عائلية متفرقة
لا ترقى إلى مستوى قبائل، تتناحر في ما بينها، لا تهدأ الحرب بينها إلا لتشتعل
من جديد لا لشيء سوى أن السيوف التي أنفقوا على اقتنائها أموالا طائلة
لا ينبغي لها أن تصدأ. يبدو هذا أمرا غريبا، لكن إذا علمنا أن تجارة السلاح
تخضع لالتزامات تفرضها السوق التي نتحكم فيها زالت الغرابة. إن الأحياء
والديار تعتبر أسواقا مدرة والتفريط فيها حماقة، ولذلك نقيدها نحن الجهات

المصدرة ونشل حريتها. من البنود التي تقيد العبيد بند ينص على تغريم الجهة المخلة بأحد البنود بأضعاف تكلفة الصفقة السابقة. وينص الاتفاق على رفض طلب المشتري، وتغريمه إذ هو تقدم به قبل توظيف السلاح الذي حصل عليه في الصفقة السابقة في قطع الرؤوس الذابلة واليانعة والمبرعمة، وتم استعماله ولو لمرة واحدة. والسيوف التي اشترتها الأحياء والديار في الصفقة السابقة مازالت في غمدها. ولذلك تجد نفسها مضطرة لتصطنع حربا توظف فيها سيوفها، حتى يزول صدأها وتتمكن من إبرام صفقة جديدة. وبحكم ضعفها وتبعيتها لا تقوى على شن حرب إلا على نفسها، تغير على حي منها، ونحن نحرك خيوطهما من خلف الستار، ندعم هذا وذاك، ولا ننهي الحرب بينهما حتى نهكهما معا، ونفرض عليها إعادة بنائها من طرف شركائنا، بعد أن تؤدي لنا مقابلا عن مساعداتنا. نحن من نشترط عليها لإبرام صفقة أسلحة جديدة أن تفتعل حربا وتعلنها على حي من أحياء الذات. أما إذا شئنا العصف بها سلطنا عليها من يجثم على أنفاسها بكل ثقلنا. لكننا لا نفعل لأن لنا فيها سوقا مربحة نحافظ عليها لنا إلى حين.

تدعي النخب الرسمية الطللية الحكمة، رغم أن شمسها تشرق من ماضيها لتغرب فيه، تعيش على الحركة، لا قبل لها بالاستقرار، وهي فخورة بعدم الالتزام بمبدأ أو بمبادئ تضبط عليها خطواتها، وترسم طريقها وفقها، لذلك كان النظام مصدر إزعاج لها يقيد حريتها الفوضوية ومن ثمة يستحيل أن تدخل مفهوم الوحدة إلى قاموسها. ومن هذا النوع من الفجوات تتسلل

قواتنا تسخر عصبياتها لخدمة مخططاتنا، والسهر على مصالحنا على حساب نزيف أبناء جلدتها. تفخر هذه النخب بغاراتها على أهلها تغنم أنعامهم وتسبي نساءهم، ابتغاء مرضاتنا، ونحن نرعى مصالحنا، بل ونحن نسعى لمضاعفتها، نضخ في أوصالها دماء التفرقة، علما منا أن وحدتها تقوم على الذات النرجسية لا تعتمد إلا على تمثيلية نخبة الحي، تسود بالقوة، بالاستبداد والعنف والجور والطغيان. وكل الأحياء من طينة واحدة مع اختلاف في اللون، نستغل فيها عجزها الناتج عن كونها تركز إلى كل ما هو ماضٍ والذي لا يسمح لها أن تؤمن بالتغير طريقا. إذا أحست بحاجة إلى التغير لا تبحث عنه خارج دفتي الماضي نساعدنا على ذلك لصالحنا فيتفرع الماضي إلى تيارات واتجاهات، وأحزاب وفرق وجماعات متباينة ومتصارعة حول المحسوم من الأمور. نحن من ناحيتنا، نساهم في تقوية عضد تخلفها، لتتأسطر نهضتها، وإلينا تدوم حاجتها.

لما وجدناها ربيبة الخنوع وأخت الانبطاح يعتلي متنها تسلط الماضي، علمنا أن التحكم فيها جد متاح، وهكذا طبعنا على أيامها "أن كوني لنا لا لها" وكذلك صار، كانت لنا على حساب ذاتها. وأغنى الأحياء مالا، هي الأفقر جاها، والأكثر خنوعا. هي والموت صنوان، تعايشت معه منذ القدم، تدافع عنه، وتحميه ما استطاعت إلى ذلك سبيلا، نشأت بينهما لحمة بفضل الجوار، والنسب، أصبحا يتوارثان، حتى صعب التمييز بين الوارث والموروث؛ هل ورثت الأحياء التخلف أم أن التخلف تورط في إرث هذه الأحياء. فلا

التخلف حاول أن ينصرف عنها ولاهي حاولت أن تجد لها طريقا تصرفه عبره، أصبحا فرديّ نعل لا تستقيم الخطى إلا بهما معا. إذا اشتكى بنو عبد رسم وبنو طلل استجاب لهم التخلف وإذا اشتكى التخلف استجاب له كل من بني عبد رسم وبني طلل على الفور. تولد عن هذا النسب كائنات من فساد، فرقت بين العقل والوعي والفعل، وهمشت كل معنى إنساني فيها. وأصدرت أمرها المطاع لنفي العقل على متن قوارب الموت نحو ضفاف الذلة والمهانة.

لودرت أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل جميعها أن الداء لا يصير داء حتى يسكن الجسد، وأن الدواء لا يصير دواء حتى تسري جرعاته في الوقت المناسب وبالقدر المناسب في الجسد المريض، لتوصلت إلى صيانة كيائها، وحمايته من أخطار الماضي الذي نخر ذاتها، وفتحت الباب على مصراعيه للقوى التي مزقتها شر تمزيق، حتى أصبحت تبحث عن قطرة ظل تحتمي بها من هجير الفرقة، وعن ذرة وصل تحول بينها وبين صقيع الاغتراب في الزمن السحيق. رفضت وهي مريضة تناول جرعة من الحاضر، بدعوى أن دواءها الشافي من كل سقم لا يفد إلا من الماضي. أصر حكماؤها على استجلابه من جذع شجرة زمانها. أحياء هذه المواصفات لا يمكن أن تنتج من البشر إلا أشباه البشر عبر كل الدهور والأزمنة، وأشباه البشر مجبولون على التبعية، إذا أبدعوا وجهوا الحصان للجور والحمار للسباق. لا تنجب سوى العوق العقلي، المجبر على الانصياع، المنفذ لما يؤمر به. لا يستطيع سوى اجترار

المستهلك من الحياة. أحياء إذا استفتيتها في شأنها قالت لا تكلف نفسك عناء استفتائنا، أنت أعلم بنا وبحاجتنا، تصرف وفق ما تراه خيرا لنا. إذا خيرتها بين التغيير والتكريس، كانت النتائج لصالح التبعية، والبقاء على الحال. لا لأنها تخاف الاضطراب الظرفي الذي قد يصيب حياتها، بل لأن نخبها في تقعير العروش يتنافسون، رغبة منهم في دخول كتاب "جينيس" من باب لم يسبقهم إليه أحد. ولأن دماغهم يجعهم إن هم نوا إعمال العقل في أمر بل أكثر من ذلك يتطيرون من إعمال العقل، فالماضي رسخ في أذهانهم أن كل من فكر أو أعمل العقل تنزل به مصيبة في الحال، والتجربة أثبتت لهم ذلك بالواضح الملموس. يفضلون أكل عجة الهوان عوض عجة البيض مادامت هذه الأخيرة تتطلب كسر البيض لإعدادها، وهم أشد الناس خوفا على أن يعرضوا ببيضهم للكسر. إن شمس هذه الكائنات تشرق من جذع الزمان الماضي، ولذلك لا تصلها أشعتها، أبدان ترضى بالعيش في صقيع دائم. كيف يتأتى لها غير ذلك وبينهما مسافة زمنية طويلة؟ أحياء، قد تحسب من يقطنونها أحياء حقا، لكنهم أحياء في الموت يعيشون، ديار لا تعي أنها أبلد من أن تعي أنها أحوج الأحياء للانصياع لمنطق العقل، ديار يربعها الاقتراب من أسوار العقل التي تعانق السماوات والأرض، فتحرّم الاقتراب من العلم. فحسب اعتقادها الذي رسخه الماضي، يكون اعتناق مبادئ العلم ومناهجه التي تؤدي إلى الرقي بالحاضر أمرا محرما، ما دامت تختلف مع ما سطره "لات"ها و"عزة"ها وهبل"ها من مبادئ. أحياء بقيت وستبقى غرقى في الجهل، تتخذ من حامض بول النوق مضادا حيويا. أحياء لا تدري من فرط

جهلها أن جماجمها لا تعدو أن تكون مدفناً للكائنات الذهنية. يدعون العقل لكنه لا يخضع للمعايير المتفق عليها كونياً. عقل لا حركية فيه كلما حمل على استشراف المستقبل أصيب بالدوران وكأنه وضع على صراط. عقل لا يمكنه أن ينظر إلى الظواهر في شموليتها، لا يعرف للتركيب سبيلاً. ولا يقوى إلا على التجزيء.

لقد أسدت لنا هذه الديار والأحياء خدمة عظيمة من خلال تقوقعها في ماضيها الذي عفا وراحت تبحث له عن صور جنيسة. لا تملك من الإدراك ما يؤهلها لأن تفقه أنها نعاج شاردة عن القطيع، ورعاتها في انشغال عنها فيها بالدر. انقسمت، أو بالأحرى قُسمت إلى قوى ميتة، وداخل كل حي أغصان مستمدة من أحد فروع الماضي اليابسة، كرسها نبهاؤهم الذين اعتقلهم الماضي ولم يسمح لهم ببلوغ الحاضر وتجاوزه نحو المستقبل ليقوا مجرد تأثيث لفضاء العالم، وعنصر يضمن حفظ توازن الطبيعة، وعُقار يستخدم من طرفنا "دأسز" متى دعت الضرورة إلى استعماله. ماضٍ توقف عند محطة قطار الكون، وأفرغ كل حمولته، لتغطي حاجيات البشرية على مر الدهور، لا حقل في اعتقاده اليوم ينتج، ولا رؤوس تنوع. ولا قطار يوزع المنتج الجديد. إن فعل تصدى له سيف حجاجهم، يستفزه الفكر التنموي. بل كل عملية عقل تفتح أفضية للبحث بالنسبة له إثم لا يغتفر ما دام يعارض الأجوبة الجاهزة".

أحياء وديار تمثل موتها، تحجب هجير الشمس بالغربال، ترشق الصواريخ الموجهة نحوها بالحجارة، لما تبلغ ثورتها أشدها تعود لتعيد بناء

جسور نسفتها الحداثة والمعاصرة بهادة التعايش والتوفيق بين الانتماء العرقي المغلف في ورق الأصالة الذي يتمزق دون أن يحوي شيئاً وبين التراث الذي همشت أصوله وتحولت فروعه الثانوية والثلاثية وغير المرتبة في ثقافة كل حي إلى أصلي، يُعتمد إطاراً مرجعياً لا غنى عنه. هو بدوره محط صراعات على الدوام وبين قشور المستورد من العقل المستهلك الذي عفا عنه الزمان.. لهذه الأحياء فكر يعمل على حياكة أنسجة من الهزائم. وخلق علاقات تقوم على التجهيل والتعتيم باسم ماض عقيم مجرد المجتمع من العقل، ويخلق فكراً يعمل على تتريث الحداثة وثورة الرجعية وأسطرة الديمقراطية".

لقد تنبه بعض أبناء الذات الرسمية الطللية إلى أنها في حاجة فظيعة إلى ترميم، وما فتئوا ينادون بذلك، غير أن لهم نظرة متطرفة في رسم خارطة الطريق، إذ يرون أن لا سبيل إلى إصلاح الذات إلا باختراق ما بناه أجدادهم من حصون، تحمي الماضي من غزوات الحاضر حصون طابوقها من مادة الماضي الذي عفا عنه الزمان، بالاعتماد على روح مكونات نسقهم الثقافي بعيداً عن الاستيراد من غيرهم. أصبحت هذه الطائفة تعي تمام الوعي أن الثقافة والعلم والتقنية لا تستورد بل تبدع، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاعتماد على الذات. ولذلك وجدوا أنفسهم عاجزين على الاعتماد على الذات كما هو وضعها الحالي وبناء على ذلك وجب القيام بخطوة إلى الخلف قبل الانطلاق. وتواجههم مشكلة عويصة قد تحول دون ما يصبون إليه. ذلك أنهم يلقون معارضة بإيعاز منا من جهة ومن طرف العديد من الأوصياء على أحيائهم وديارهم.

هذه الطائفة من الشباب أصبحت تبحث عن سبل تخلص أحياءها وديارها من المسار الذي رسمناه لها، تبغي إدخالها تدريجيا في طريق الحاضر. ونحن نضعها تحت المجهر نرصد حركاتها، وعملاؤنا يدركون مهمتهم ويلمون بتفاصيلها، يردد أهل هذه الأحياء مثلا من صميم حياة الرعاة: "لا تنزعج الذئب من ضراط النعاج" وهم الأنعام، لكنهم لا يعقلون.

لم يمض على عودة التاجر من رحلته التي تلت رحلته المشبوهة ما يكفي من الوقت، لتوزيع السلاح على جهات الحي، وليتدرب عليه المحاربون ويحسنوا استعماله، حتى أقحم أتباع "دأسز" السلطان في حروب على جهات عدة، استنزفت خزائنه، أهلكت جيشه، فما عاد قادرا على تسديد أجور المرتزقة، ولا تسديد تكاليف السلاح، ولا على إيجاد يد تمتد إليه. لقد استطاع "يونج" بالتعاون مع "لويز" إقعاد زوجها عبد المؤمن حاكم الربيع؛ فلم يعد قادرا على الحركة إلا قليلا، ولا يقوى على الكلام إلا اضطرارا، لما تكثرت الإشاعات حول صحته، يُجلسه الأعوان على صهوة جواده، فيُشد العنان بواسطة مادة لاصقة إلى راحة يده اليسرى خشية أن تخذله قوته، ثم يُخرج ليراه الناس، يفتقر ثغره عن ابتسامة ذابلة. يبادل الناس التحية فلا تسعفه قوته ليبقي عليها مرفوعة وقتا طويلا. ترد عليه رسائل من مقر السلطنة تساعده "لويز" على قراءتها، وتكتب رده لكنها تبعث ردها كما يريد "يونج". كلما طلب السلطان إمدادا لم تتوان في الاستجابة لكن "يونج" يكون قد جهز كمينًا لقطع الطريق

على الإمدادات، ولكي لا يشته فيه كان ينصب كرائته بعيدا عن الشك والريبة. إذا استبطأ السلطان قافلة الإمدادات بعث يستفسر، ليعلم أن هناك جيشا يحول دون وصول إمدادات حاكمه. كل الربوع كانت تخضع لهجمات إلا الربع الشرقي من السلطنة، حيث الحاكم عبد المؤمن، كان آمنا مطمئنا لا من يغير ولا من يسطو. وما بعث الوضع السلطان على التساؤل.

دخل موعد تسديد الديون، والسلطان يحارب على مختلف الواجهات، وخزائنه فارغة، وحسب العقد المبرم بين الدائن والمدين، ينص بندٌ على أن في حالة التأخر في الدفع ترفع نسبة الأرباح بخمس نقط... بعث السلطان بتاجره ومستشاره رسولا إلى الدائنين يطلب مهلة محددة ويلتمس تجاوز رفع نسبة الأرباح... غاب الرسول مدة بعيدا عن عيون السلطان ليعود والبشاشة تعلقو بحياه، استبشر السلطان خيرا دون أن يقوى على الانتظار أمره:

- هات ما عندك!

- صاحب الجلالة والمهابة..

في غفلة تامة يظن أن الواقع أمامه يأتمر بأمره، رفع السلطان صوته

بدون مقدمات، أخرجني من هذا النفق!

- جئت يا مولاي أحمل خبرين، لقد عثرت على دائن مستعد ليقرضك مالا تسدد به ديونك، بفائدة أقل.

- وما الخبر الثاني لا بد أنه أفضل من الأول؟

- يرفض دائنوك أن يمهلك وقتا إضافيا، وأرى يا مولاي أن لا مفر لك من الاستدانة من جديد.

وقف السلطان مصدوما، لا يجد كلمة يعلق بها ولا تفسيراً للأخطار التي أصبحت تهدد كيانه عن قرب، اصطنع الهدوء، وقد علت وجهه صفرة الجادي، يحرك رأسه شمالاً ويمينا دون شعور يكاد يكسر أصابع كلتا يديه.

وهكذا غرق السلطان في بحر ديونه، لم يكن "دأسز" يبخل عليه بشيء سوى بالكشف عن هويته، يتعامل معه بالنسبة للديون السابقة باسم شركة "هانسن" وبالنسبة للتعامل الجديد باسم مجموعة "كلوديت"... يمدّه بكل ما يحتاج. وما أن ينتهي السلطان من حرب يفقد فيها الحرث والنسل حتى يكون "دأسز" قد اصطنع له ظروف حرب جديدة، عن طريق أنصاف الآلهة الذين زرعهم في شرق السلطنة وفي شهاها وفي وسطها. لا يتنه من اجتراح مرارة هزيمة حتى يدخله في حرب أخرى، يمدّه بما يحتاج إليه من مال وسلاح.. عجز السلطان عن التسديد، وتوقفت عن قرضه الجهات الدائنة حسب اعتقاده، دون أن تتوقف عن المطالبة بديونها. والتي لم تكن في الواقع سوى المؤسسات المالية لـ "دأسز"، بل أصبحت تلح عليه وتستعجله بالضغط والتهديد..

في اجتماع عقده السلطان المهزوم على جميع الأصعدة مع مستشاريه، تم اقتراح اللجوء إلى أشقائه في بقية الأحياء الرسمية لطلب المساعدة بل الإغاثة.

صمت السلطان بعد سماع هذا الاقتراح، وعلت وجهه تعابير تدل على لومه لنفسه:

"كيف غاب عني هذا؟ كان علي أن ألتجئ إلى إخواني في الدم والدين منذ البداية، لكن لا بأس، لم يفت الأوان بعد"

أمر السلطان بفض المجلس، وطلب من كاتبه الخاص أن يلحق به، أملى عليه رسالة وأمره أن يرُقِّمَ منها سبع نسخ، وبعث بكل رسالة على حدة على جناح السرعة...

- سيدي، رسول من سلطان الحي الغربي

- أدخله

- ماذا وراءك أيها الرسول؟

انحنى الرسول ثم جثا على إحدى ركبتيه ومدّه بالرسالة.. اعتدل واستقام، بعد ذلك وتراجع خطوات إلى الخلف ينتظر أن يفرغ من قراءتها ملك الملوك كما يلقب نفسه. أزال الغطاء، وبالسبابة أخرج القرطاس الملفوف من الكبسولة، بسط اللفافة ماسكا يمينه أعلى القرطاس ويسراه أسفله، ثم أخذت عيناه تمسح القرطاس فتعيد الكرة وتعيدها، إلى آخر كلمة. لف القرطاس من جديد وأعادته إلى الكبسولة، ومدّه لمن كان يقف إلى يمينه. ثم خرج عن صمته:

- أكرموا الرسول، واسهروا على راحته

لما هم رجال الملك بتنفيذ الأمر استأذن الرسول وقال:

- إذا سمحت جلالتكم لدي أمر بالعودة أدراجي على الفور

ابتسم الملك وأمر أن يرافقه بعض الجنود إلى مشارف المدينة.. استدرك الرجل فجأة أن الجواب يستدعي وقتا، وربما يتطلب استشارة، وبقي نابتا في مكانه لا يستطيع الحراك، دون أن ينبس ببنت شفة. لم يستطع أن يستأذن الملك مرة أخرى، وادعى إرهاقا... في اليوم الموالي انطلق يحمل الرد.

وصلت الردود على الرسائل السبع في نفس اليوم تقريبا. فتح السلطان أول رد تلقاه: "...جلالة السلطان إن لك مكانة في قلوبنا، وإغاثتك واجبة علينا، غير أنك اخترت ظرفا لا يناسبنا فنحن مصممون على شن غارة على الحي المجاور لنا من الناحية الجنوبية الغربية، ردا على الاعتداء السافر الذي لحقنا منه، حينما ادعى أحد أعيانه أن حيهم يأتي في مرتبة قبل حيننا من حيث عدد رؤوس الأنعام. وبناء عليه نأسف على عدم تمكننا من مساعدتك..."

نزل هذا الرد عليه نزول الصاعقة وأسرع بإخراج القرطاس ليقراً الرد الثاني: "...جلالة السلطان لقد قيل منذ القدم "كما تدين تدان". رد بليغ يلخص موقفه الناتج عن الرفض الذي سبق أن بدر عن شيخ حي بني عامر لما استنجد به السلطان. وهو يعلم حاجة السلطان إلى المال جاء في رده: "جد مستاء من الظرف المزري الذي تمرون به، لولا الالتزام الذي يربطني بشيخ حي مالك ويتعلق بابتياع ساحل حي مالك، سأجعل منه منتجعا سياحيا خاصا لأزرتك في محتك، واعلم أنني معك قلبا وقالبا.. اعذرني إنها صفقة

العمر وفرصة لا تعوض.. لا بد أن استضيفك في منتجعي هذا يوما ما نقضي أوقاتا ممتعة".

وهو محاصر من كل صوب، استسلم ينتظر في قصره المصير المكتوب، يقضي آناء الليل وأطراف النهار في جيئة وذهاب، يدعي التفكير، ومن حين لآخر يطلب مستشاره، يسأله عن التقدم الذي حققه الأعداء داخل سلطنته، وكان المستشار لا يدلله على الحقيقة لغرض في نفس "شميع". طلب السلطان عقد اجتماع من جديد، دخل مباشرة في صلب الموضوع:

"الأخبار القادمة من ساحات الحرب لا تنبئ بالخير، ونحن في حاجة إلى السلاح والرجال، أما الرجال فابعثوا برجال العسكر إلى الحضر والمدر ليعدوا كل طفل بلغ العاشرة من العمر للدفاع عن حيه. وجندوا الصناعات ليعدوا لهم الأقواس والنبال والرماح..."

قال قائل من المجتمعين:

- "مولانا السلطان، نحن في وضع لا نحسد عليه، أي نعم، لكن ألا ترون أن الزج بالأطفال سلاحهم القوس والرمح في حرب عنوانها النار ضرب من الانتحار على المستويين القريب والبعيد، سنقضي على أطفال اليوم ورجال الغد قبل أن يكون لهم نسل وبهذا نكون قد جنينا بأيدينا اليوم قبل الغد على مستقبل الحي.

- "لا أرى حلا غير هذا وإن يكن حلا للربع قد يتيح لي أن أربح بعض الوقت.."

انبرى مستشار السلطان:

- مولاي السلطان، لقد وقع حينًا في منعطف خطير جدا، لا يمكن الخروج منه سالمين حسب تقديري، وأتمنى أن أكون مخطئا في تقديري. ولذلك وجب علينا التفكير في حل يخرجنا من الأزمة بأقل الخسائر. أرى شخصا -ولكم واسع النظر- أن إقحام الأطفال بسلاح بدائي لمواجهة أعتى أسلحة النار ليس مجرد انتحار بل هو لا قدر الله أقول نجم مجدكم ..
عم نوع من الضوضاء نتيجة لتحدث كل المجتمعين مثني وثلاث...

- وماذا ترون أنتم؟ هل لديكم اقتراح عملي كفيل أن يخرجنا من هذا الوضع بأقل الخسائر الممكنة؟

قال عميل "دأسز" ومستشار السلطان:

- لماذا لا نبعث رسلنا إلى أعدائنا للتفاوض، قد نربح بعض الوقت إن نحن اتفقنا معهم على هدنة ريثما يتم التفاوض، ويكون علينا إطالة فترة التفاوض ما استطعنا، كأن نبعث رسولا يبلغهم رسالة الدعوة للتفاوض، بالطبع سنحاول أن تكون المرحلة الأولى على مستوى القيادات، ثم بعد ذلك المستشارين وفي المرحلة الأخيرة على مستوى أهرام الحكم.

دخل أحد رسل قائد الجيش في جبهة الحرب، سلم للسلطان رسالة. لم يتوان لحظة في بسطها تحت نظره، سرعان ما ارتسمت بسمة على أساريره. تفاعل الحاضرون وتوسموا خيرا وكلهم لهفة لمعرفة مضمون الخطاب.

لف السلطان الرسالة والعيون معلقة إليه، وأذن صاغية، عم الصمت القاعة الفسيحة، والكل ينتظر أن يكسر صوت السلطان هذا الصمت الممل.

فرح السلطان وبشر محيطه بما نشب بين جيوش الأعداء من قتال كل يبغى أن ينفرد بالاستيلاء على حصنه لصالح أميره أو أمبراطوره..

في هذه الأثناء انبرى، تاجر ومستشار السلطان وعميل "دأسز" يشير على السلطان أن يحاول الاتصال مباشرة بالإمبراطور، يسأله عما يرضيه حتى يتعد عن حيه ويعينه على قهر بقية الطامعين.

لم يستسغ السلطان إشارة عميل "دأسز" فأعرض عنه، لكن المستشار ألح مدعماً إشارته بكون الحي ينسحب من تحت قدميه تدريجياً:

- مولاي السلطان، ألا ترى حجم الخسارة المقبلة على عرش حيك؟ لماذا لا نحاول أن نربح عدوا يكون إلى صفنا ضد بقية الأعداء، وعلينا أن نختار من الأعداء أقواهم حتى نستفيد من قوته، وإذا كنت يا مولاي ترى ذلك مستحيلاً دعني أجرب، قد نجد لدى الإمبراطور ما لم نفكر به بتاتا، وفي آخر المطاف إذا قبل فنحن المستفيدون بالدرجة الأولى وإذا لم يقبل لن نخسر أكثر الخسارة المرتقبة

لم يحتج السلطان وقتاً طويلاً ليأمر مستشاره وعميل "دأسز" بتجهيز وفد يرأسه يرحل إلى الإمبراطور...

عاد الوفد برد على لسان العميل:

- لا يمانع الإمبراطور في رد جميع الأعداء عن حكم مولاي السلطان، ولا يجد مانعا في تسديد جميع ديونكم مولاي السلطان.

انبرى السلطان معبرا عن دهشته

- أحقا ما جئت به؟ لكن ماذا يريد مقابل ذلك؟

يا مولاي ستحافظون على عرشكم ومجدكم ولن تخسروا شبرا من حكم إذا قبلتم باقتراح الإمبراطور.

- وماذا يقترح الإمبراطور أيها المفاوض الحكيم؟

- من حكمة جلالتم نتعلم يا صاحب المهابة. يرغب الإمبراطور، في الإشراف على الطرق التجارية، واستغلال أراضي الحي وثرواتها، وأهلها وسكانها لمدة لا تقل عن خمسين سنة، يبقى عرشكم قائما يا مولاي، ويؤول إلى وريثكم بعد عمر طويل

- أفهم من عرضه هذا أن أرهنه الحي؟

- قد يكون هذا ما يسمى رهنا، أما بالنسبة له هي اتفاقات وعقود بالتراضي بين الطرفين. أما عن التفاصيل فتناقشونها معه شخصيا، وفور التوقيع سيوجه سلاحه ضد أعدائكم يا مولاي.

هم السلطان بالدرجة الأولى هو الحفاظ على عرشه، أما خيارات الأرض السطحية منها والباطنية ففداء للعرش، وأما السكان ففداء لصاحب العرش.

لأجل العرش وصاحبه يتنفس السكان. تهباً الوفد المرافق للسلطان، وفي آخر لحظة ادعى المستشار العميل المرض.

عاد السلطان يحمل نسخا من عقود الاتفاق. لم يعد ذلك ولا ذاك السلطان المهيب الجانب. لم يعد يملك سوى الزفر بين ممرات سجنه، حدائق قصره، تعبير يتعامل به مع محيطه الذي ضاق حتى أضحى أسرا إراديا. لا يملك سوى الزفر الذي أصبح يحرق بتلات حياته يوما بعد يوم. أصبح يمشي على نبضه، المسجى فوق الأشواك يطؤه بأقدام الندم. نبض يضعف يوما بعد يوم، وعقل تضمحل قواه حتى أصبح يدفع أجزاء من ربوع الحي لقاء دراجة هوائية، يقضي وقتا غير يسير من النهار يتعلم كيف يركبها، وفي ذلك ما يشغله قليلا عن الزفر... أما الأهالي الذين من المفروض أن يحميهم، ويحمي ممتلكاتهم، أصبحوا يشتغلون ليل نهار كالعبيد، تحت سياط الراهن. يستحوذ على كل خيرات البلاد... لم تعد للسلطان تجارة تذكر إلا ما كان من بعض الفلاحة التي لا تغطي مصاريف القصر، فقد كل سلطه على البلاد ليفقد بعدها عقله... خلال هذه المدة كان "دأسز" يعد خلفا له. ليس سوى ابن "لويز"، الجارية المهداة للحاكم عبد المومن حاكم الجهة الشرقية: إسماعيل بن عبد المومن بن سعيد، ابن عم السلطان. وهو ما يزال غلاما يافعا يقرر ما يملى عليه ويعمل بالعقود التي تربطه بالشركاء الذين أنقذوا سلفه من الإفلاس السياسي..

في عهده أبدى الناس تدمرا كبيرا أذكته الضرائب والمكوس التي فرضها الراهن على أهل الحي، يعيشون واقعا مهينا، لا يخدم إلا مخططات "دأسز".

أصبحت كل عائلة مرغمة على تأدية جزية سنوية مقابل حق التنقل. وضريبة على كل طير من الدواجن، ما يعادل ثمن بيضتين شهريا وضريبة على الأرناب بالنسبة لكل أرنب، ما يعادل ثمن خرنقين كل ستة أشهر، وضريبة سنوية على كل رأس من الأغنام، مقدارها ما يعادل ثمن حمل، وضريبة سنوية أيضا على كل بقرة من القطيع، مقدارها ما يعادل ثمن عجل. وضريبة على كل ناقة، مقدارها ما يعادل ثمن حوار كل سنتين. أما الفلاحون فيزرعون، ويتعهدون وقبل الحصاد تزور الحقل لجنة، تقدر المحصول المتوقع، يستبقي صاحب الحقل لنفسه خمس الإنتاج ويسلم أربعة أضعافه ضريبة. وأما التجار في الأسواق الشهرية أو نصف الشهرية أو الأسبوعية فعليهم مكوس لا تطاق. سنة بعد أخرى يفتقر الناس وتراكم عليهم الديون وتتضاعف الضرائب ويسجن غير القادرين على الأداء، ويرغمون على التسليم في أراضيهم مقابل ما تراكم عليهم من ضرائب. حتى أصبحوا فيها عبيدا يشتغلون مقابل أجر زهيد يدفعون منه ضريبة شهرية على كل نسمة يعولونها.

هكذا كانت حرب "دأسز" على أحياء بني عبد رسم، لم يُشرع فيها سيف، ولا أطلقت فيها رماح. لم يحمل فيها سلاح، ولم تتواجه فيها جيوش، ولم تضرم خلالها نار، ولم تسفر على إبادة أو أسر. خاض "دأسز" حربا انتصر فيها انتصارا كبيرا خرج منها رابحا على كل المستويات. لم يخسر فيها العدو أرواحا. خاض "دأسز" حربا وهو يؤمن أن الحروب تخاض بالعقل والمال وأثرها على العدو يفوق آثار حرب النار مجتمعة. أحدثت خسائر مادية ونفسية عميقة، جراء التفجير والتجهيل والتهجير، وسلب وسائل العيش

والاستيلاء على الخيرات دون إراقة دماء. رغم ما شهده حيه لم يعترف السلطان بفشل سياسته، رغم أن راية حيه مكنسة، ترفرف عوضها الراية البيضاء معترفة بنتائج العقل الذي ركنه أجداده وسجنوه خشية أن يفسد عليهم نرجسيتهم، وما علموا أن غيرهم سيركبه لاستعباد نسلهم. حرب حققت نتائجها المرجوة، ارتاح "دأسز" لتتائجها. كيف لا وقد أنشأ وطناً له في قلب أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل؟ على إثر هذا الإنجاز أقام "دأسز" حفلاً على شرف الآلهة وأنصاف الآلهة ومعاونيهم وأبى كبير آلهة "دأسز" إلا أن يلقي فيهم كلمة، يحثهم على اليقظة والتضحية والمضي قدماً في سبيل تحقيق مبتغاهم:

"عليكم بالامتثال لتعليمات سلطان حي بني مالك "إسماعيل بن عبد المومن بن سعيد" والالتفاف حوله فهو أول سلطان من بني عبد رسم تربى في وارف ظلال "دأسز" في بلاد ما وراء البحر، السلطان الذي يجب أن تمتثل له جميع قوى أحياء بني عبد رسم، السلطان الذي نصبناه على إثر عزل السلطان السابق بدعوى عدم الأهلية. ولضمان نتائج مشروعنا عليكم بالامتثال لعرابه "حيم بن يونج" وأمثاله في كل أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل... لقد استطعتم بفضل مجهوداتكم المتواصلة، وعدم خروجكم عن مسار الهدف المرسوم وضع مسودة لخريطة امبراطورية المستقبل. فهنيئاً لكم بهذا الإنجاز العظيم، وإننا لماضون على الدرب حتى نغير خريطة العالم كلها ولقد تقدمنا بفضلكم في ذلك تقدماً نلمسه نحن ولا يستطيعون أن يلمسوه. لا يفوتني هنا أن أنوه بذكاء "حيم بن يونج" الذي استطاع على

غرار والده، منذ أن أسكناهم الكهف ووليناه على هذه البقعة من العالم أن يحقق نتائج غير مسبوقه وله ولوالده قبله الفضل في تولي إسماعيل بن عبد المؤمن عرش سلطنة بني مالك. فلقد أوتي من الحكمة ما أهله لإحراق ماء الواحة، ورفع بهخارا إلى حيث لن يُرى إلا بأمر منا، حتى رحلت ضياع المدينة وبساتينها مشردة تهتدي بطيورها التي ألقت الهجرة، تشردت كما عشنا طيلة قرون. حملت معها أجواق النحل، ورقصات الفراش وديدان الأرض، يغريها أريج الزهور وعبق الورد ورقة النسيم وعذوبة الندى كما نوفره لها. ووجد فلاحوهم أنفسهم تحت ثقل جفاف أفرغت عجالاته من الهواء، لا السلطان قبل إسماعيل عرف كيف يعولهم، حتى يضمّنوا التفاهم حوله، ولا حكام ربوعهم لهم من السلطان ما يمكنهم من إيجاد الحلول فيكسبوا بذلك ولاءهم. الجميع فقير النظر، لا يستطيع أن يطل خارج عباءته، تاركا عن جهل وعجز أزرار التحكم بيد "آل يونج" يتحكمون في مصائر الأحياء. لما تراكمت عليهم الضرائب والديون، أمرنا أن يلوح في الأفق فارسا منقذا يكرم المهين، خلص الفلاحين من مآزقهم مقابل الأرض، أنشأ عليها بأمر منا مركبات سياحية، بل مدنا سياحية شغل اليد العاملة من السكان، ومن مالكي الأرض أنفسهم خصهم بأجور لم يجنوا مثلها من قبل. وراح ما حول المنشآت السياحية من أراضي للمستثمرين بالسعر الذي يحدده، وشريطة أن يزرعوها اسمتنا ينبت أعمدة حديدية، تثمر عمارات بطوابق تعانق السماء، أعطاهما أسماء مستوردة لها دلالاتها، أجرى بداخلها ممارسات مستوردة

غريبة أسماها السياحة والتبادل الثقافي، والانفتاح على العالم، لكون المحليين يستبدلون بهويتهم ممارسات مادية صرفة.

لقد استطعنا بفضل جهلهم ونباهتنا وتحت نظام حكمهم الذي لا هم له غير إرضاء السلطان ونيل رضاه مهما كان الثمن ولو كلفهم ذلك بيع أرضه دون علم منه - أن نستولي على أموالهم، وأراضيهم وبهم، وبأموالهم سيقضون على أنفسهم. سنقضي على كل من يسبح ضد تيارنا، أو تسول له نفسه الوقوف ضد إرادتنا، من داخله، من معتقداته من تاريخه... "ليس من المتعة ولا من الكياسة أن تقتل عدوك بيدك، فعندما يقتل عدوك نفسه بيد أخيه تتحقق لنا المتعة الكبرى" ويخلو لنا الجو حتى نقرر كما يخلو لنا. ما الفائدة من قوم يمتنون السياحة على هودج الجهل، يتقنون طهي أحشاء العقل على نار، وقودها قرطاس الكتب، يشنقون الفلسفة في أبواب المساجد والزوايا، يُعدمون العلوم تحت ذريعة صيانة الأصول، يرمون بالفنون إلى الجحيم. وبذلك يقدمون لنا أوطانهم شواء طيباً"

وبعد هذا الضعف الذي قيدنا به الأحياء الرسمية والديار الطللية، أصبحت تسعى جاهدة كي تمنحنا أراضيها. بعد هذا الإنجاز المتمثل في استعادة أرضنا، بقي أمامنا تحد أكبر يتمثل في توجيه ضربة واحدة ليست قاضية لكنها مؤلمة كقيلة بإيلام كل ديار بني طلل وأحياء بني عبد رسم، تخلف لديهم عاهات دائمة. تجعلهم ينشغلون انشغالا تاما بالأمر. ولن يجدوا بدا من الالتجاء إلينا لإخراجهم مما ألم بهم، متوسلين مغلوبين على أمرهم... بعد دراسات مستفيضة طالت أمدا، ارتكزت على مستوى علاقات

الأحياء والديار ببعضها من ناحية، ومن ثانية وعلى علاقات الأحياء والديار بخالقها وانعكاسها على المحيط العالمي.

ارتأينا أن نحرق أكبر سوق روحية لهم. وهي السوق التي لا يسمح بممارسة التسوق فيها سوى للطليلين والرسامين، ولا يحق لغيرهم أن يدنس قدسيته. وانتظار ردة الفعل التي لن تخلو من اللجوء إلى خبراتنا وإمكاناتنا ومساعداتنا... على أنقاض السوق القديمة، سنحملهم على بناء أعظم سوق على الإطلاق، سوق تجمع مذاهبهم، وتلتقي فيها طوائفهم بمختلف فرقها وجماعاتها وفضلا عن ذلك سنعمل على إنشاء مرافق لغير الأحائيين والطليلين ممن لا يحل لهم ولوج السوق. وهكذا لن نعرف حياتهم استقرارا. نتيجة لما يجرونه خلفهم من فساد وما ارتكبه ويرتكبونه من جرائم في حق أنفسهم يأذون بها غيرهم. فهم يتقنون رفع السلاح في وجه أنفسهم ولا يجروون على حملة في وجه غيرهم. تحت سقف هذه المنشأة سنجمعهم لنقطعهم إلى أشلاء؛ باسم الحرية وباسم الاختلاف سنفرق كلمتهم، ونجعلها كلمات متناقضات، سنجمعهم تحت هذه القبة لتتفرج عليهم وهم يقتتلون. ونكون لهم على ذلك خير عون. إنهم إلى إنشاء مثل المنشآت يتسابقون ولو كانت بهم خاصة، وسنوفر لهم كل المواد المطلوبة ونحن في الظل، عملا باعتقادهم أن الصدقات في سبيل الله يكون أجرها كبيرا مادام صاحبها لم يكشف عن اسمه، وسنرسل عملاءنا كمتطوعين في مجالات الهندسة والإنشاء. فبقدر ما نسخو عليهم تكون قدرتنا على سحب البساط من تحتهم.

أنبه كل من له صلة بتنفيذ المشروع، أن يكون جاهزا مسرعا في التنفيذ. ولقد توصل منا "صمغ" خادم "دأسز" المطيع، أكبر المهندسين وأقربهم من السلطات الرسمية والطللية ببرنامج العمل وطاقم العمل والغلاف الزمني لإنشاء المشروع . وبالموازاة نحن بصدد إعداد أئمة منا لهم،

ودعاة منا لهم بمختلف طوافهم ، وأمراء منا لهم يشكلون طينة جهلهم، وعجينة هشاشة أوضاعهم قواعد صلبة لنشر الفتن، وإذكاء الصراعات.. أليس الهدف إشاعة التفرقة بينهم، وهذا يتطلب الاجتهاد في إعداد أمراء وأئمة وفقا لمذاهبهم؟

وما دام المشروع ذا حساسية عالية بالنسبة لهم وجب علينا توخي الحذر. سنحاول البقاء في الظل ما أمكن نوههم أنهم البناء، ولعل أحسن مبادرة هي فتح باب الاكتتاب، ليس لأننا نفتقر إلى المال، فأموالهم لدينا تفوق ما لديهم منها، بل لإشعارهم بفعاليتهم لأنهم يتوهمون من حيث لا يدرون أنهم أفضل من كل الخلق، وأنهم هم وحدهم أهل الجنة، فهم يعتقدون أن الله يحتاج منهم من يدافع عن دينه ويحتاج منهم من يبني له بيوتا. ولذلك تراهم يسرقون من بعضهم البعض، وينكرون على إلههم حقه في الزكاة، بل يسرقون من الأهالي عرقهم ليصوغوه نعيما لهم، يفتحون لوائح الاكتتاب في مثل هذه المناسبات، لإنشاء الجوامع مصنفة، يجهزونها بالتحف النفيسة، وحفاظا على بذخها، لا يقيمون فيها سوى صلاة الجمعة والعيد، ولا يأبهون لإنسان حيهم مهما بلغ به المرض فالمستشفيات جرداء، والمرضى مسجون على البلاط، ومحظوظ من وجد قطعة من الورق المقوى، وتلد الحبلى ويموت من حان أجله. في

كل شارع مساجد فارغة والأطفال يمرحون في الجهل داخل مدارس اعتمد في موضعها استراتيجية إبعاد المعرفة عن الناس. تضيق القاعة فيها عن جماهير الأطفال المكسدين تحت سقف تشي بأسراره أمطار الشتاء ورياح الخريف. يطالُ التلميذُ كلُّ ما فيها، أوساخ وأمراض وجهل، وأمية، شيء واحد لا يطال رأسه ويتبخر قبل الوصول هو المعرفة. لا تملك المدرسة من المقومات غير اسم تحمله وغالبا ما يكون لأحد الأعلام الذين اتهمه الماضي بالمروق عنه وجعل له الموت مصيرا. حادت عنه وظيفتها بل صُرفت عنها إلى تكريس الجهل . فالحياة عندهم تسير على عكس اتجاه دوران الأرض، لهم شمسهم وللعالم شمس، لهم زمانهم والعالم زمانه. قاطرتهم تنساب على سكة تتجه عكس المنطق وضد العقل، يسارعون إلى التنافس في بناء المساجد المصنفة كما يسارعون إلى هدم الأكواخ على رؤوس من يفتقرون لسقف يحتمون تحته. يبنون لله مالِك السموات والأرض بيوتا فخمة مصنفة لا يشغلها عباده سوى ساعتين ونصف على أكبر تقدير في اليوم. ليبقى بقية الوقت بدون وظيفة وبدون جدوى. ويحرمون من هم في حاجة لكوخ اليوم كله والعمر كله. هكذا يتقرب الرسميون الطلليون من إلههم. ودورنا نحن أن نستفيد من واقعهم هذا، لتحقيق أهدافنا...

باسم المنظمة "دأسز" أحيينا على تضحياتنا، وأهئنا على الإنجاز الذي كان موضوع احتفالنا هذا أنتم ضيوف وبرنامج الحفل مستمر كما تعلمون لثلاثة أيام فاستمتعوا بأوقاتكم ومارسوا حريتكم بكل حرية.

الفصل السابع

لم تستسغ والدتي أمر حرمانها من فرصة زيارة والدي في السجن، ولا ترى لذلك سببا، وظل يورقها السؤال: كيف يحدث ما حدث معه وهو أحد أشهر رجالات الحي؟ وهو في نظرها -لا كما هو في الواقع- الرجل المستقيم، من أكبر رجال الأعمال في الحي والأحياء المجاورة، يسدي للبلاد الخدمات العظام. لم تصدق أنه نقل إلى جهة غير معلومة، وغير مقتنعة بأن إدارة السجن أمرت بنقله خشية على حياته، ما داموا رفضوا أن يدلوها على الجهة التي نقلوه إليها. رغم ما أحدثه ما حوته صحيفته في نفسي من استياء، حملتني رغبة عارمة في التأكد مما يحدث... بحثت عنه في كل ركن وفي كل زاوية من السجن، تفحصت وجوه السجناء واحدا واحدا. توجهت صوب الجناح الخاص بالسجناء السياح داخل المؤسسة السجنية، أو بعبارة أصح في كنف الجوارى الحسان، وفي حديقة المسيح، وما طاب من خيرات الجنان دون جدوى حتى كدت أصدق أنهم نقلوه فعلا. رفرت، وُحمت إلى أن

لمحت شبعا يتحرك داخل مكتب المدير، "لا بد أن المدير ما يزال ساهرا" دلفت إليه، سلطت على الرجل أضواء الكاشفة، إنه هو.. والدي. ما سبب تواجده داخل المكتب في غياب المدي؟ وما الذي يفعله؟ ضبطت أضواء المكتب أشعتها وتابعت ما تكشف لي عنه داخل المكتب. ما هذا؟ ليس مكتب مدير المؤسسة، إنه معمل مهندس بكامل تجهيزاته؛ ووالدي منهمك في العمل. لا عجب بعد ما عرفته مؤخرا عن حياة والدي. قد يتحول المكان في لمح البصر إلى مقر حزب سياسي إلى مسرح أو إلى قاعة سينما... تبادر إلى ذهني سؤال سخيف: لماذا لم يجهز له المعمل داخل القصر عوض مكتب مدير السجن؟ حاولت أن أجد جوابا فلم أتوصل... عدت إلى نفسي أتساءل: لم يحظى والدي بكل الاهتمام حتى ينقل مكتبه إلى حيث ينبغي أن يقضي عقوبة نتيجة لعمل إجرامي ارتكبه؟ لم أجد سوى جواب يبدو منطقيا: لا بد من استفادة الحي من إمكانيات السجناء عوض الإبقاء عليهم خاملين يستهلكون ولا ينتجون. رغم جهلي بالخطوط الهندسية أخذت أحاول معرفة ما هو بصدد هندسته، أمسح وأذرع وأشبر وأقدر، فإذا أغلب الخطوط مستديرة، أقواس وقب...

فجأة دون إشعار سابق، أو استئذان بالدخول، اقتحم عليه أحدهم المكتب.. سلطت عليه كاشفي. ما هذا الشبه؟ تأكدت من خلال انحناء والدي للتحية أنه الشخص الذي يعتبره قادة أحياء بني عبد رسم وحكام ديار بني طلل رمز وحدتهم. رأيت وجه والدي قد تهلل للحظة ربما هو أيضا تعرف عليه واستبشر خيرا. غير أن صوته بعث في نفس والدي الرعب، لقد

تقرّم والدي حتى صار أنزر من لا شيء، ضَعْفُ ضَعْفُ العبد أمام مالك رقه، أمام جبروته كانت روح والدي ترتعد، يتهيأ لي كضعف ذلك الطائر الذي كنت أمسكه بيدي وأحس بنفض خافقه يملأ كفي، فأعيده إلى قفصه إشفافاً عليه. هل يحس هذا المتجبر بهذا الإحساس؟ كلا لو كان كذلك لبدا واضحا في نبرة خطابه. ما أصعب أن يرى الابن أباه على هذه الحال، أتخيل حال والدي وهو يحس بوجودي وهو في هذا الموقف... حدثه بلغة لم أفهم منها إلا قدر ما أوحى لي به النبر. ليس لأنها صينية أو سومارية، بل لغة طليلية غريبة الألفاظ والعبارات، علمت يومها أن مصير أبي محسوم. وعلمت أن الاشتغال في هذا المكتب بالضبط وراءه أسرار. لاحظت الزائر يضع أمام والدي أقراصا مدججة، سلطت عليها الكاشف، قرأت عنوان القرص العلوي "من تنفيذ صكوم" كتب فوق صورة وجه والدي، وإلى جانب الأقراص، بعثر صوراً فوتوغرافية، منها صور السوق الملتهبة وصور لوالدي في حركته ونشاطه، لفت انتباهي تلك التي امتدت يده تمسك من أحدهم حقيبة صغيرة، وفي أخرى يستلم حقيبة من سيدة شقراء وفي ثالثة كأن عصابة تسطو على خزانة بنك... إنه ألبوم فوتوغرافي يؤرخ لكل لحظة من حياة والدي الإجرامية، ألقى نظرة خاطفة وأشاح البصر يستأنف ما كان منهمكا فيه وهو مدرك حق الإدراك أنه اللحظة تحت نظر الكاميرات من مختلف الزوايا وأصبح يعلم علم اليقين أن القتل مدرّكه والتصفية آتية لا ريب، فتاريخ صلاحيته أشرف على الانتهاء. أو هكذا يتهيأ لي.

- أين بلغت في تصميم المآذن؟

- هي كم مئذنة، يا ابن جلدتي أليست واحدة؟ أقصد شكلا واحدا، على غرار بقية المساجد، وأنت أعلم بذلك مني.

صمت والدي، وصدره يضيق عما به من غبن يمارسه عليه أخوه في الطللية والرسمية والخيانة. لم يبد استغرابا، فانطلاقا مما وقع فيه أو بعبارة أوضح، أوقع فيه، تأكد أن الزعيم هو الآخر صاحب ملف طافح بخيانة حيه وأحياء بني جلدته. أما أنا فتمنيت لو كانت لي إمكانيات التصوير، والبت والإرسال لفضح هذه الممارسات. لأريت المغلوبين على أمرهم من رعاياهم الوجه الحقيقي للزعامات الطللية. لقد باع من يعتقدونه زعيما أبناء حيه، وأبناء طلليته قطيعا من أنعام، يدر حلييها مستغلوه الذين يدعوهم حلفاءه، وما هم بحلفاء لكنهم يستغلون غباءه الذي تغذيه سطوة الماضي. ألا يدري أنه الآن مع والدي تحت عدسة الكاميرا نفسها؟ بلى. ويدري أن والدي خائن، ويدري أن كلاهما تورط حتى لم يعد في قدرته التقهقر والتراجع.

استأنف الزعيم الخائن:

- أ تجهل أن لكل حي بل لكل بيت داخل الحي مسجده، يتميز عن مساجد غيره من الأحياء بشكله؟

استطاع والدي أن يستمد من ضعف الزعيم الإداري بعض القوة على الكلام:
- لا على العكس، بل ما ألاحظه أن في هذا الجمع بين المآذن تفرقة لهذه الأحياء، لماذا لا نجعل لهذا المسجد مئذنة واحدة أقصد بشكل واحد؟ وأنا أعلم أنك أدري مني بهذا؟

- في هذه الحالة سيحس أبناء الأحزاب الأخرى أن المسجد ليس مسجدهم ولن يتجرؤوا على الاقتراب منه.

- - كان هذا حال لسانه، أما حال قلبه وجوارحه ومنطقه فأتمنى أن يكون على الأقل شأنه كشأني يأتي الأمر على مضض.

فجأة تغيرت نبرته:

- أنتم قوم أجهل من غيركم بدينكم، (وكانه ليس منا، أياكون على غير ملتنا، وإن كنا جميعنا لا نأبه لها؟؟؟؟؟) فما علي إلا أن أوضح لك ما الذي عليك أن تفعله، وفوق هذا لا بد من برج للناقوس ولا بد من رمز للدير نحن نسعى إلى بناء معلمة تجسد التسامح، تجسد الاختلاف وتوحد بني الإنسان، وتسعى إلى تحقيق الائتلاف، ويبقى الإنسان حراً أن يلج هذا المسجد أو ذاك أو هذا المعبد أو تلك الكنيسة، أو يحج إلى أية سوق يشاء. إذن عليك أن تشغل على كل الأنواع والأشكال وفور انتهائك من الأسواق، والمساجد والكنائس والمعابد تشرع في الاشتغال على المنشآت السياحية المحيطة، فعليك أن تهيم نموذجاً من كل سلسلة من شبكة فنادق "دأسز" العالمية التي ستحيط بالسوق الذي سيكون مفخرة لكل الطلليين والرسميين بصفته أعظم ملتقى للأديان على الإطلاق، منشأة خارج كل التصنيفات وبصفته حاملاً لكل رموز الأحياء الكتابية وغير الكتابية.

- لكن كيف الجمع بين مساجد مختلفة وكنائس ومعابد وأديرة في نفس البناية؟

- أليس الله واحداً؟

- بلى يا سيدي؟

- ندعو إلى الحرية والاختلاف لا فرق بين معبد وثني وآخر كتابي بل كلها معابد توحيدية كتابية كانت أم وثنية، أين المشكل أن تجتمع المعابد في صرح واحد؟ ويبقى الاختيار بل الحرية في الاختيار للناس من شاء أن يلج مسجداً فعل، ومن شاء كنيسة دخل ومن شاء دييراً له ذلك؟ وبعد ألا ترى أنك تتدخل في ما لا يعنك؟ أم تريد أن أبعث ببعض الصور أم أبعث ملفاً إلى جهات العدل في شأن تزوير هويتك. أو أضع صور اغتصابك لأول سيدة في منظمة "دأسز" بين يديها.



بسمَل الناس في هذا الحي، القلب النابض لـ "الرسمية"، وهللوا وكبروا للمشروع غير المسبوق في تاريخ الحي. أكبر منشأة عقدية على هذه البسيطة كلها، يستقبل كل الموحدين، وغير الموحدين، كل الطوائف على اختلاف مذاهبها. قبة سياحية لا تضاهى سيوفر المركب العقدي/ السياحي مناصب شغل لكل الناس. وسيدر على البلاد أرقاما فلكية من العملة الصعبة. ما إن انتهت الأشغال واستوى المشروع واقفاً حتى أخذ الزوار يتوافدون، والسياح يتكاثرون، فأضحى الربع قبة للعبادات وللسياحة، لتعرف البلاد رواجاً اقتصادياً كبيراً...

لكن العبادة في هذه المعلمة أضحت محاطة بالعديد من المشاكل.. مجرد النداء للصلاة أحدث اختلافا في صفوف الناس؛ في ما يتعلق بالأذان كل طائفة تدافع على طريقة أذانها، وتعتبر نداء الغير باطلا ومنكرا، ولما كانت عقيدتها تدعوها إلى النهي عن المنكر، فقد وجب محاربة أذان الغير باعتباره منكرا، ولما كان كل مذهب يعتبر نداء للصلاة هو الجدير بالتفعيل وجب عليه أن يصارع من أجل اعتماده، ولما كان التعصب يحكم الموقف، تدخل الجماعات في التصفيات الجسدية وفي الاغتيالات وعمليات التفجير.

توصلت اللجنة المنتقاة للإشراف على تسيير هذه المعلمة العقدية/ السياحية الحديثة إلى اتفاق يقضي أن تقسم أيام الأسبوع على الطوائف بالتساوي لكل طائفة الحق في أن تعتمد نداءها، ويقوم الصلاة أحد أئمتها. لكن حدث أن يبقى المسجد فارغا إلا ممن كانوا من طائفة مؤذن اليوم وإمامه، أو من يتعاطفون معهم. فلا تؤم الطائفة المسجد إلا إذا سمعت مؤذنها. ولما كانت الصلاة على المؤمنين كتابا موقوتا. شاعت المناداة بفكرة اقتسام المسجد إلى زوايا حتى يأتي الجميع صلاته في أوقاتها. ولتلافي الاختلاط والاحتكاك تبني داخل الجامع حواجز بين الطوائف. لما حال التعصب دون التوصل إلى حل. في ظل كراهية الطوائف لبعضها استحال التواصل لم تجد بدا من الرجوع إلى جماعة من الملاحدين تطلب منها القيام بدور الوساطة وتحاول التدخل لإصلاح ذات البين. في سعيها انطلقت الوساطة من أن الدين واحد، والله واحد بالنسبة للمؤمنين، فمن المفروض أن يكون المؤمنون على

رأي واحد، لكن لما سمعت التبريرات التي يبني عليها المختلفون انقساماتهم، استغربت ومع ذلك لم تيأس. فيما يخص الاختلاف حول نوع العمامة التي ينبغي أن يعتمرها الإمام، اقترحت أن يصلي الإمام عاري الرأس، فيكون ذلك أنسب حل للكل، فعارض الكل واعتبروا الأمر بدعة وضلالا. في الاختلاف حول اللحية في شكلها ولون تخصيبها، في أبعادها ومدى كثافتها، اقترحت الوساطة لكل طائفة حجما خاصا ولونا خاصا. استغربت اللجنة لما وجدتهم يختلفون حول نوع الآلة التي تستعمل في توضيب اللحية ونوع المشط في تشذيبها. هنا انتبهت الوساطة أن نصيب هؤلاء من العقل هو نصيب الصقيع نفسه من الحرارة. وأدركت أن فكرهم قاصر وعملت بمأثور كلامهم " الذئب يستهدف الشاة القاصية" الذي يجهلون محتواه، وما داموا كذلك فهم بالضرورة يجهلون محتويات تعاليمهم. هؤلاء إذن مضغة سائغة لكل من أراد أن يلتهمهم...

سادت الفوضى بين الناس، وكثرت الاحتجاجات في خضم الصلاة، والخصومات أضحت بعدد أوقات الصلاة يوميا. وطرح مشكل الإمامة بالنسبة للجمع، وطرح مشكل الإمامة بالنسبة للعديد... وكلما صعد إمام المنبر شرع في تمجيد مذهبه والثناء على أئمة، ومنهم من ينحى باللوم على مذهب آخر وقد يسفه أتباعه، فكانت الفوضى تنتشر لتصل إلى أبعد من المسجد إلى الأحياء. أخذت الطوائف تدخل في نزاعات مع بعضها، بل في حروب، تقتل بعضها وتحرق جنبات المسجد دون أن تمس بمعبد أو تتلف جزءا من مركب سياحي. عظمت الفتنة واشتدت فإذا بالأجسام الغريبة

تسلسل من بين التصدعات التي تحدثها الخلافات لا يكلفها الأمر سوى استنبات اللحية وإعطائها الشكل الذي ترضاه الطائفة التي تعتمد عليها. وفي غياب العقل وحضور السذاجة، غزت هذه الأجسام الطوائف دون مجهود يزيد عن اللحية وتغيير المظهر. ولبلوغ أهدافها جندت من أبناء الأحياء نفسها ذلك الشباب الهش الذي مورس عليه التهميش والتفكير والحرمان وأغرق في بحور الهوان. فكانوا ضحية لأول رغيغ سد جوعهم وأول سقف وقاهم زمهرير الحياة، فأمنوا بمن رد لهم اعتبارهم كحيوان، وأزال كل ما نبت في أذهانهم بطريقة برية، ليزرع ما يخدم مصالحه من خلاهم، ويعمق جذور زرعه حتى لا تقتلعها أول عاصفة. أنبت وجوههم وسط حقل من الشوك الكثيف، بعينين لم تجدا مجالا كافيا تستويان فيه، يحداهما أنف عظم حتى غزا أرض الخدين، عظمة تنبئ بعظمة شرهم، يدعون القضاء على الفتنة، يتخذون من المعابد مخابأ لهم، منها يستمدون كل قواهم، تمدهم بالتعاليم وبقدر التنفيذ، يكون الجزء في الدنيا؛ مال وفير وحوار عين مما يشتهون، وقصر في جنة النعيم مضمون باثنتين وسبعين من الحور. أليس المال زينة الدنيا واللجنة حسن المأوى؟

في هذا الجامع، في الصف الأخير، عند انتهاء صلاة العصر، مباشرة بعد التسليم جريا على العادة مد "الولي" لمن على يمينه يده يهته على إتيان هذا الفرض ويدعو الله لنفسه وله أن يتقبل، ثم مدها ملتفتا إلى من على يساره فإذا

به يفاجئ ب"جوهر"، تحولت التحية والتهنئة والدعاء إلى عناق حار داخل قاعة الصلاة لفت انتباه الإمام نفسه.. كعادته يبادر الولي بالكلام.. دعا جوهر إلى فنجان قهوة أو شاي، يبغى اجتذاب أطراف الحديث، لما انتهى من السؤال عن الأحوال، وعن الظروف، عوض أن تثيره المشاكل التي يتخبط فيها الناس، جراء الخلافات العديدة بين الأحياء والديار لتأخذ حجماً أوسع انتقلت عدواه إلى السياسة وسوء الجوار وبوار الاقتصاد وخيبة المسار، حمله الماضي إلى ما سبق أن دار بينهما يوماً من نقاش، وكأنه جاء بأفكار جديدة خصيصاً لمواجهة جوهر، فبادر سائلاً :

- ألم تهبى بعد خطة لمشروع إصلاح شامل لإنقاذ العالم من انزلاقاته المؤدية إلى الهاوية؟ فالقطاعات الدينية والاجتماعية والاقتصادية تعيش ظروفًا مزريّة.

لم يكن جوهر ينتظر أن يثير معه هذا النوع من الحديث بعد بضع دقائق من إعادة التعارف، ورد عليه بإيجاز:

- أرى أنك ما تزال تشن حملتك على أهل الدين القويم والاعتقاد السليم.

لا أدري ما كان وقع العبارة على نفسه، كل ما لاحظته هو صمته طويلاً قبل أن يتلع ريقه ويشطف شفثيه إحداها بالأخرى.

- عذراً ما هذا الافتراء، أراك أسأت الفهم فأنا أتحدث عن يوجهون اقتصاد الأحياء ومن يدعون إصلاح الحياة الاجتماعية.

- الأجدد بنا أن نلتفت إلى الحقل العقائدي لنخلص المجتمع ممن ينصبون أنفسهم مصلحين، وهم فاسدون. فالحقل الديني في حاجة إلى إزالة الأعشاب الطفيلية التي تقتات على حساب أولي العلم وأهل الدين، فلأهل الدين وحدهم الأهلية والكفاءة، عيهم هو الخوف من قهر السلطة التي تستند على الجهل والمال.

- لا بد أنك تنظر إلينا - وحاشا أن نكون كذلك - أجساما نخرة، وهياكل خربة، أوقفنا مركبنا، ونسيناه تائه بين طيات الماضي.

قال مستخفا:

- ألم أقل لك عندك قدرة على الولوج إلى دواخل ذهني، لن يعوزك الخيال يا ولينا، لك أن تنظر كما يحلو لك، لن أستغرب إذا قلت لي فجأة أنه يوحى إليك.. وأن أمر قراءة أفكاره دون علو كعبك في علم الغيب، أيها الشريك. هذه الكائنات من أمثالك لا هم لها سوى اعتراض سبل التغيير، تضع العصي في عجلات التحرر والتحرير، كائنات لا يمكنها الارتقاء إلى مستوى التفعيل، تتعثر فيها الحضارة، تعرقل مسار التقدم ما استطاعت إلى ذلك سبيلا. سلاحها الضعف والهوان يرتد عليها أقوى من كل سلاح؛ تعتمد فكرا اتكاليا، فالعلم عندها ليس بحثا وتنقيا، قصد النفوذ إلى أقطار السماوات، ليس سلطانا به يرتقي الإنسان، بل منحة سماوية، لا يصيب منها نصيبا سوى المختارين، الذين يتفانون في الرضوخ للكسل، ولعل أحذية الحاكم. تؤمن إيماننا لا يزحزح أن الإنسان خلق خمولا، لا رسالة له على

الأرض غير الوقوف حجر عشرة في طريق العقل، وصدده عن الارتقاء. كائنا تدعي حماية الطريق مستقيماً، في حين أن الطريق في حاجة إلى صيانة لا إلى حماية، ومن بلادتها أن كلما توصلت ذات الآخر إلى اكتشاف عقلي أو اختراع عقلي ادعت سبقها لهذا الاكتشاف أو الاختراع، دون أن توليه اهتماماً. أو توجه لنفسها السؤال: "لماذا لم أتدبر محتوى النص حتى أقف على الاكتشاف أو الاختراع"؟

هل يمكنك يا شيخا بلا وقار أن تحيب أنت على هذا السؤال؟ أبدا لن تتمكن من ذلك، أتدري لماذا؟ لأن ذلك يتم عن طريق العقل، وأنتم مع كامل الأسف اتخذتم منه عدواً، سلطتم عليه الماضي يقود جيش الظلام، فأسره في مغارة عند جذع الزمان. أجل قد يكون النص سبق العقل إلى أمور كثيرة، يكفي أن تتأمل دقة نظام الكون لتدرك أن كل ما توصل إليه العقل البشري لا يرقى إلى كسر بسيط من آيات الدقة والإتقان الذي يسير الكون وفقها. لكن هل، بذلت الماضوية الطللية مجهوداً عقلياً وتدبرت وتوصلت هي لهذا الاكتشاف واستفادت منه وأفادت؟ أم أنها تنتظر أن ينفذ الغير بسلطان العقل إلى أقطار السماء. لقد أبانت عن قصورها لا تملك من الحول إلا قولاً ضعيفاً، "لقد ورد ذكر ذلك في نصوصنا" نعم لقد ورد، ولكن أيتها الماضوية القاصر عن الإدراك، النقل يدعو إلى التدبر، إلى الاجتهاد، والنص ليس وقفاً على إنسان دون آخر. كيف للسلطة في أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل، وهي تحارب العقل أن ترعى العلم. كيف لها أن تكون في مستوى

الدين وهي تحرّم العلوم؟ يكفيها إيماناً أنها تتحكم في المصائر، فخدمة الفقير للغني وتنعم الغني بعرق الفقير، من خلال تحويله لؤلؤاً يلقي به بين أفخاذ الشقراوات وبين فجاج النهود المنتصبة ربوات، ويحوّله إلى جزر تضاهي الرياض والجنات وسبائك ذهبية تكدست تتحكم في سير البورصات، وتصنع منها المركبات هو قصارى رسالتها في الحياة. يا ولينا ترعون ماضوية تقسم الأرزاق ولا يصيب منها إلا النصابون، والمفسدون والنافذون إليها والقادرون على الارتقاء إلى معارجها. يقصون أجنحة المستضعفين وينسبون فعلهم لغيرهم ليتخذوهم مطية بعد أن ترصف أسماؤهم الواحد فوق الثاني كأدراج السلم للارتقاء. أما المستضعفون فهم من طردوا من السماء إلى الأرض المنفى إن شاءت تكرمت عليهم بنزر من كنوزها، وإن أبت أغرقتهم في جهلهم وفقيرهم وضلالهم وتوعدتهم بالبراكين والزلازل وسوء المصير. هكذا، بأساليبها المفصوحة، تفتح بابها على مصراعيه للغباء فيدخل عليها متأبطاً أنياب المتربصين بخيرات أحيائها. تزرع الفتنة بين الأحياء وداخل كل حي، لتحصد السيادة على آبارها ونخيلها، وفي خضم انشغالها يكون الغباء قد قوض لها رحي تطحن أنظمتها وتأتي على كل أخضر ويابس فيها.

- إني أجذك تدافع على السؤال، لتقضي دهوراً تائها في البحث عن الجواب، وتشيع بين الناس أن الحياة شك تعتمد على "هل وكيف ولماذا"، في حين أن الجواب شاخص ولا تستطيع أن تراه منتصباً أمامك على رصيف تحصيل الحاصل.. وتشيع بينهم أننا نقف ضد التطور، وأننا نقدر التقدم بعدد

الأنفار لا بسداد الأفكار، وبالأنفار المدججين بالسيوف نحافظ على الحقائق. كما تشيع فيهم أن أعمال العقل عندنا رجس من عمل الشيطان، نرى فيه هدمًا لمصالحنا، وأن كل من يعتقد غير ذلك ليس منا، ويُجَلُّ به غضب الأقوياء منا والأوصياء على المحافظة على ثبات الأرض والسهر على الإبقاء على حركة الشمس في علاها، ودوران الكواكب والمجرات وفق مصالحهم.

- العقل يا ولينا، هو من أنتج الحضارة في مختلف مظاهرها، أنتج حضارات الإنسانية جمعاء، ومنها التي تعاقبت على أحيائكم بل على الأحياء التي وقعت تحت سلطة الشيوخ الطلليين الرسميين، وظلت على مر العصور قبلهم وبعدهم محافظة على حالها، محافظة على تاريخها إلى أن جاء المهووسون بالسلطة والغنى منكم، فألبسوا العقل زي الجحيم وبه استبدلوا الكسل والخمول، واجتهدوا فيها وكان من نتائج اجتهداهم، أن أنطقوا التراث بحكم صادر عنهم والتراث منه كالذئب من دم يوسف. يقضي بتحريم العديد من المظاهر المادية للحضارة لا شيء سوى لإضفاء المشروعية على نهمهم وسرقتهم واغتنائهم من كنوز الإنسانية. فراحوا يهدمون ما كان منها من رخام أو صخر، ويهربون عبر السوق السوداء ما كان منها من ذهب وفضة وحجر كريم. ألا ترى معي أن مثل هذه الممارسات تدل على ضعف الأولياء، وقلة بنات ذهنبهم يخافون على ذاتهم من الجهاد لمجرد أن له شكلا معينًا وهو في الواقع لا حول ولا قوة له سوى ما يزرع به من جمال يعكس براعة يد صانعه. ومتى خاف المرء من شيء هو صانعه؟ العاقل لا يعرف الخوف ولا

يلجأ إلى العنف لأن سلاحه العقل، فالتراث الحضاري لا يعرف العنف ولا سلاح له للدفاع عن كيانه سوى ما يحمله في ذاته من حقيقة تاريخية وقيمة جمالية. في محاربة الفن محاربة الذوق الجميل. فكيف يتذوق الجمال من يجهد على تحفة فنية بذل فيها مبدعها طاقاته، أو رسم جميل، نطقت به الألوان، أو لغة زانها البيان ورصعها البديع؟ إن من ينكرون قوة الفعل، ورهافة الحس ومن على شاكلتهم يرون غزو الفضاء الذي كلف الإنسان العقل والمال لتدليل منطق الطبيعة، والإحاطة بحركات أجزائها للوقوف على نظامها وفك طلاسم حسابها شركا. وفي المقابل يرون أولياءهم على صفحة القمر، يقتعدون عروشهم، ولا ينتبهون أنهم هم الأجدر بالمحاربة. لا يمكنك أن تنكر التكذيب والاتهامات التي رميت بها الجهات التي أنزلت روادها على سطح القمر، وأنتم من قال برؤية أولياء نعمكم على سطح القمر؟

- كان ذلك في بداية الأمر وجاء في ظروف خاصة.

- أتدري لماذا كان رد فعلكم كذلك؟ لأنكم غيبتم العقل، ورقابته وأخذتم تصدرون الأحكام اعتباطا. والمؤسف لا يقف عند نكران سلطة العقل وحده، بل أنكم ترون بعيونكم المجردة قصور الأولياء حبل بالتحف الفنية، لوحات فنية تقتنى بمبالغ إن رفعت في وجه الفقر قيمتها المالية لولى الأدبار، ولو رفعت قيمتها الفنية في وجه جهلهم لكشفت عن احتقارهم للجمال إلى درجة الإهانة، يدعون تقديس الجمال لكنهم لا يقدرسون في الحقيقة سوى الجسد، ويتراأسون مجالس الطرب والغناء، يستقدمون أبطالها

من جهات تتناقض طقوسها مع طقوسهم، كما يقبلون على اقتناء التحف البشرية سواء من جنس الذكور أو جنس الإناث. واستبدالها بغيرها كلما تغير المزاج. هذه همة الأولياء.

- تتهمنا بإلغاء العقل، ونحن نعلم أن للسماء أبوابا لا يمكن الصعود إلا منها

- أجل، لكن من أي نوع كانت معرفتكم بهذه الأبواب؟ أبقيتم عليها مجرد فرضية لم تبدلوا جهدا لمعرفة الطريق إليها والوقوف على أوقات انفتاحها وانغلاقها. حتى إذا ما نفذ منها غيركم، قلتم تلك أبوابنا. ما دامت كما ترعمون لماذا لم تسجلوها في الشهر العقاري وتضعون عليها حراسا وتطالبون كل من مر بها بتعويض لأنكم لا تستطيعون الارتقاء والوقوف عليها لمنع أهل العلم من المرور عبرها. بل لا تقدمون على خطوة من تلقاء ذاتكم، لا تحرككم غير القوى الخارجية، لم تكونوا يوما صوتا حرا بل ظللتم عبر الدهور أصداء. الوقت عندكم يمشي وفق وقع الساعة الرملية، دون أن تأبهوا السرعة الحياة من حولكم. لا عهد لكم بالدقة، ولا بما يحدث من تغيرات في أصغر كسور الثواني. تزجج نسيمات العلوم الدقيقة خلاياكم الراسخة في البدائية، إذا هبت عليكم، لاحقتموها بمبيد التشويه والتحريف، تجندون كل طاقة وسلاح، من حجارة منحوتة ورماح ونبال قبل أن تجهزوا عليها بالسيوف الصدئة. أليس هذا ما يزرع به نشاطكم العقلي أيها الولي؟ وهذا ما ساعد الكيان الرسمي على الانشطار والتشطي، فارتمت أشلاؤه عشوائيا، في

مطرح نفايات الحضارة وصارت إلى محرقة الماضي حتى باتت رمادا عافت
الريح أن تذرّوه، رافة بروح عنقاء قد تنتفض يوما معوقة.

جُمعت أحياءكم الرسمية في قمقم بلوري، يغري عشاق الفرجة، يتجول
السياح بين أروقة المعرض مستهزئين وأنتم صاغرون لكن لا تعلمون.
بخطى مضطربة تحكمها قوة الماضي وسلطة آل سام، تتعرّ أحياءكم بين
صفا التراث ومروءة التحديث، لا تقوى على قطع شوط واحد. كلما تعثرت
تجد نفسها عند نقطة الانطلاق، تعيد النظر وتعيده حتى ضعف البصر، ولم
يعد في مقدورها أن ترى شيئا، ودار لقمان تتأكل، تقف لاهثة في منتصف
الطريق، بين الرجاء واليأس، دون أن تنقاد لها الأشواط خلال الدهر كله.
لا تكاد تقطع خطوة من الماضي حتى تقف دون الحاضر يرعبها الآتي، فتعود
القهقري إلى أعماق الماضي حد الغرق فيه، والغير من حولها بخطو عريض
ثابت يمضي نحو الأمام. لا تلتفت للمسافة التي يزيد اتساعها بحكم
السرعتين؛ سرعة تقهقر الذات وسرعة تقدم الآخر. تبقى وحيدة يحيط بها
الظلام، لا تسمع إلا وحشة ينبعث منها عواء وزئير ولا ترى إلا صحراء
من أنياب. فتتوقف لتعيد النظر من جديد عن طريق لفّ الباطل في ورق
الدين المصقول، وتعلب التراث في الجهل تبتغي البعث والنهضة، وتجاوز
الركب الحضاري، والمسك بزمام التاريخ، مصدقة لما بين يديها من أساطير
الأخيرين، وما علمت أنها تعمه في ضلال. حتى أضحت أعضاء هذا الكيان
لا تساوي قيمتها في أسواق العالم قيمة العدم، غدت عبء ثقيلا لا تطيق
الأرض أن تحمله على سطحها إلا لكونها أما له، ذات قلب رؤوم.

أتدري أيها الولي ما الذي يوجد خلف التمزق وانشطار الذات التي لا تفتنون تدعون وحدتها؟ لقد أصبحت كما كانت دائماً أعضاء متفرقة. لا تذكر بعضها إلا إذا أظلم ليلها وجدَّ جدُّ أحيائها. أو على إثر ارتجاج عرش حي من أحيائهم لتسارع نخب هذه السلطة أو تلك إلى المناذاة بصلة الرحم، داعية إلى رص بنيانها، تذكّر بفوائدها، وبأجر العاملين عليها، والساعين لتحقيقها، تدّعي العمل على توحيد الجسم في إخاء عضوي، تدعو إلى سلاح الحوار بين الأعضاء والتكتل على غرار أعضاء الأجسام المجاورة، وهي تترك أن أعضاء هذا الجسم غريبة عن بعضها أو ليست نتاج بيئة واحدة، أعضاء من بيئة بعيدة أدغمتها في جسمها تعتقد أنها أوهمت التاريخ واحتالت عليه، وما كان التاريخ بليداً ولا غافلاً.. لا علم لها بما حصل في العالم من تقدم علمي كفيلاً أن يعرف أبسط الجزئيات المكونة للجسم، ونسبها ومكوناتها وتاريخ سرقتها، لا يمكن أن يحصل بينها انسجام، تتنافر ولا تتقارب ليعيش هذا الجسم المتنافر الأعضاء في الشقاء والعذاب.. من العبث التفكير في جمع أجزاء لا تلتحم، لن يتأتى وجود وحدة فعلية من هذه الأجزاء، قد يحدث، لكن على أساس نفعي إلى حين تتضارب المصالح ليحل حوار السلاح محل سلاح الحوار. ويشقّ كل عضو طريقه وسط الجحيم في هجير الضعف تتقاذفه الحمم.

- ليس الأمر بهذه الخطورة، أراك تضخم الوضع وتشحنه بالهول. نمر بفترات عصبية ككل سكان الأرض، لكن لا نشكو من نقص في شيء، ونحن ماضون على خطانا لتحقيق الأفضل.

- الغريب أن المشرفين على أمركم لا يقدرّون حجم الخطورة، لأنهم لا يرون ما يدور حولكم بعين العقل، فالسواد لا يدرك إلا بتواجد البياض والأشياء لا تتضح إلا بنقائضها. وهم ماضون في السواد وما انتبهوا يوماً لتواجد البياض. فهم يروون ما يريدون رؤيته فقط، وما يدفعهم لذلك هو المال والسلطة والجاه. لا بد من الوعي بعمق الخطورة. الوعي الذي يستهين بالتضحيات مهما كانت جسيمة في سبيل تحقيقه. والأمر يستدعي تنازلات خطيرة لا أحد يستطيع أن يقهر النفس ويخلصها من سوءها خدمة لجماعة، فشان الحكام شأن أطفال صغار إذا سقطت من يد أحدهم لعبة التقطها الثاني وصارت ملكاً له وراح المالك الأصلي يستنجد بقوة خارجة عن ذاته يضطر معها الثاني إلى العمل بالمثل فتذهب اللعبة منهما معا وقد تقاسمتها القوتان الخارجيتان اللتان استنجدا بهما. أما إذا سقطت من يد طفل أشقر النسب التقطها ومسحها بلسانه وأعادها إليه متزلفاً تحت عين تنظر شزراً.

- ادعائك استحالة التكتل بالنسبة لأحياء بني عبد رسم وديار بني طلل باطل تدحضه جميع الشواهد، هناك من الأحياء -وأنت تعرف هذا أكثر من غيرك- حققت وحدة رغم افتقارها لما تمتاز به أحيائنا.

- إذا كانت جهات أخرى استطاعت التكتل فلأن كل عضو منها جسم مستقل كامل، وليس عضواً لجسم آخر غيره يعتبر نفسه وصياً عليه، كما هو الشأن عند الكيان الرسمي الطليل.. أعضاء جسمه ليست أصلية. وقد

سجل التاريخ فشل محاولاتها خاصة بعد الغرق في متاهات الحداثة، وأساطير الآخرين.

- صفق الولي وهو يقول: برافو..برافو.

- ثناؤك هذا يزكي ملاحظتي السابقة، لستُ خارقا ولا ساحرا. كل ما في الأمر أنك وعلى خلاف ذوي الألباب تقتات من طبق واحد على مر الزمان، وأنا أطعم من أطباق مختلفة حتى أعطي ذاتي ما يلزمها من عناصر غذائية لكي تحافظ على سلامتها وأتخذ لها أصدقاء أستفيد من رفقتهم.

انتقل الولي إلى الحديث في موضوع أصبح في حكم تحصيل الحاصل..

- ألم يحن الوقت بعد لتعتذر للشاين فلقد فوتّ عليهم فرصة الزواج. وفي ظل المدونة الجديدة قد لا تعود لهما فرصة.

- من ناحيتي لن أسمح بمثل ذلك النوع من الزواج أيها الولي.

- لا يهم يا "جوهر"، فإذا كنت تعتقد أنك كنت الحائل دون هذا الزواج فأنت مخطئ وكافر، لست أنا ولا أنت ولا العدلان من يزوجهما. إذا قدر لهما الزواج فقد زُوجا في السماء قبل أن يتزوجا في الأرض، فهما زوجان مباركان إن شاء الله. أما دورنا نحن فليس سوى توثيق وإشهار. أما إذا لم يكن مقدرا لهما فلن نستطيع قوة جمعهما.

- أنت تعترف ضمنيا من خلال تناقضك هذا أن لا دور لك، لكن مع كامل الأسف، لم تقف عند ذلك الحد بل أنك تتهمني بالكفر وأنا أصلي إلى جانبك. أينطبق علي في هذه الحال قول من قال: "من عاشر قومكم أربعين ثانية نفر منهم"؟.. وأنت تقفو بما ليس لك به علم شأن الكثيرين من أمثالك، دون دليل عقلي ولا حتى نصي، ساحك الله. لا عليك يا شيخنا.. تتهمون بالمروق كل من لم تلن لكم أعطافه. تتخذون من العقيدة قوة تحرسكم، وهي منكم براء، تجعلون منها محاميا يدافع على غيكم، وتتخذون منها مسلكا آمنا تمررون عبره انحرافاتكم لتحقيق أغراضكم الدنيئة. وأنتم أجهل خلق الله بأبسط تعاليمه.

- أصغ إلي جيدا أقص عليك الواقع الأوباشي، في أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل؛ لا يعرفون للعيد معنى ولا احتراما، فيه يفسقون ويرفثون، ينشرون الفوضى مدعين النظام، يلقون أنفسهم أوساخا وأزبالا ونفايات في الأماكن العامة وهم ينظرون في موضوع الطهارة. لا يجب أحد منهم لأخيه ما يجب لنفسه. والأدهى من ذلك كله يهدمون ما ينفعهم ويبنون ما يضر بهم. تجدهم يرفعون الأبراج والمنشآت، ويخطون الشوارع أرضا وجوا حتى لينبهر السائح لإنجازاتهم ويتوهم التقدم الحاصل عندهم. وهم في المقابل يهدمون العقل، ولا يريدون لأبنائهم أن يتعلموا "صيد سمكتهم".

"كان اليوم جمعة، يوم عيد، يوم فرحة، يوم احتفال، يوم العبادة بامتياز... كان لهيب الشمس من الأعلى يرسل جحيمة على الأرض، عقابا لها على

احتضانها طريدي السماء من أمثالكم، جزاء بما صنعت أيديهم من خيانة،
متمثلة في إخلال رؤوس القوم بمهامهم، وسوء تأديتهم للرسالة المنوطة
بهم، فهم لا يؤتمنون، ولا يحفظون عهداً.. الأشعة سوط من السماء يصيب
كل الخلائق الأرضية.. أضحى الحر في هذا الزوال جسماً صلباً يملأ الأجواء،
حتى يخاله المرء يداً من لظى تمتد نحوه لتخنق أنفاسه.. انطلق صوت الأذان
من مكبرات الصوت في كل جهة، في أوقات متفاوتة نسبياً، في نوع من عدم
الانسجام، اختلطت بداياتٍ بنهاياتٍ وكأنه سباق محموم، الفوز فيه لمن كان
أكثر تشويشاً على الآخر...

بعد جلسة عمل صباحية، حبلى بالجد خرج (آدم) رفقة "نضال"، وكان
"نضال" ضيفه لهذا اليوم. رغم كبر سنه ما يزال محافظاً على لياقته، وصفاء
ذهنه، لا يخفى على كل من سمع كلماته ومدخلاته ميوله العقائدي، وانتمائه
اليساري... أشار عليه أن يتجها إلى البيت بعد صلاة الجمعة، للغذاء وأخذ
قسط من الراحة قبل مواصلة الاجتماع للفترة المسائية، فلم يفاجئه بقوله: "أما
الصلاة فتقبل الله صلاتكم، وأما الذهاب إلى البيت فأنا في انتظارك في هذا
المقهى حتى تفرغ من الصلاة". استأذن "آدم" ودخل ليشترك في الاحتفال،
أما "نضال" فبقي بالخارج يستمتع بفقرات الاحتفال.

جلس منتظراً بمقهى قريب من المسجد، يواجه ملتقى شارعين شلَّ
حركتهما عربات "كارو" يجرها حمير، وأخرى ذاتية الطاقة "triporteur" محملة
بالفواكه والخضر، تجثم على أنفاس حركة المرور وقد ربضت وسط الطريق في

ازدحام شديد، لا يترك مجالا لسيارة أو دراجة، أو راجل. امتد مشهدهما على شكل صليب على امتداد واجهتي المسجد. تعلو أصوات منبهات السيارات التي وقفت طابورا سد جميع المنافذ دون أن يهتم لها حمار، أو صاحبه الذي يلوذ بظل ما زال الحائط يينخل به، ربما كان هو نفسه في حاجة إليه أكثر من غيره. أول ما أثار اشمئزاز "نضال" هو إغلاق الطرقات دون وجه حق أو قانون؛ لم ير علامة تشير إلى تغيير الاتجاه أو تدل على أن المكان مشغول. وأول ما تساءل عنه قبل سبب غياب السلطات المشرفة على النظام هو ما سبب غياب مقومات الإنسان عند هذا النوع من الناس. يجدهم فاقدين لأبسط حس حضاري، أهو القهر الذي جعلهم يكفرون بكل القيم، فلا هم يصلون ولا هم يفسحون الطريق للمارة؟ أم هو رد فعل ضد النخب والحداء الذين كرسوه حتى زاد عن حده؟ ومن هم الزبناء الذين سيراتادون هذه السوق؟ أليسوا من نفس الطينة؟ أيصعب على سلطة الأمن أن تضع علامات تشوير، تجبر العربات على تغيير الاتجاه خلال هذه الفترة... ظل الوضع هادئا نسبيا، من حين لآخر يعلو نهيق حمار مفتتحة الحفل ليعلو النهيق من كل جانب والإمام يخطب بالداخل ولا أحد يهتم للغوها أو لبطلان نهيقها. أُنْتُنْ درجات الحرية، هي الفوضى التي يسمح بها النظام عندما يحشى منتوج عفونته !!!

قبل أن يخرج أول مصل علا الصخب، صخب يحدثه الباعة وهم يرددون وصلات إشهارية فظة تصل أحيانا إلى حدود الوقاحة. سمع "نضال" أصواتا مختلطة تعلو في نفس الوقت ورأى كل الملتصقين بالجدار يهبون جريا ينتشرون

حول العربات المحملة بأنواع الخضر والفواكه وأصواتهم تعلو أكثر فأكثر. كما لاحظ بعض المصلين يخرجون مسرعين من باب المسجد الواسع، سرعان يسطون في وجه الناس إزارا أبيض كتبت عليه بالخط العريض: "شاركوا في بناء مدرسة"، وغير بعيد مجموعة أخرى تنشر إزارا وتحمل توسلا: "شاركوا في ترميم قسم"، وهناك ثلاث نساء بوزرات بيضاء ينشرن هن أيضا إزارهن ويحملن لافتتهن كتب عليها "ساهموا في إنقاذ حياتكم وحياة أبنائكم". يطاء الناس هذه الخرق دون أن يلقوا بورقة أو قطعة نقدية، وكأنهم سمعوا للتو فتوى في تحريم التعاون على بناء المدارس والمستشفيات، في حين أوراق نقدية زرقاء وخضراء اللون تساقط فوق إزار يقف عليه فريق يردد "ساهموا في بناء بيت الله".

سوق اختلفت أنشطتها تجمع الباعة والزبناء/ المصلين بتاركي الصلاة وباللصوص والنشالين. يرتزق هذا من ذاك، الكل في تعايش رغم الاختلاف العدائي ...

دلف "آدم" نحو ضيفه، شرعا يتحدثان في نفس الوقت. ابتسم أحدهما للآخر، وقال الضيف:

- يبدو من خلال أصوات الأذان التي سمعتها أن المآذن كثيرة جدا في هذه الجهة من الحي.

- أعتقد أنها تحتل المرتبة الأولى على مستوى الحي كله من حيث العدد، ويرجع الفضل في إنشائها وتجهيزها للمحسنين.. يكفي أن ترفع لافتة تعلن

عن النية في بناء مسجد حتى تنال المساعدات من كل حذب و صوب .
يوهمون أنفسهم والناس أنهم مؤمنين ورعين ولكنهم في الأصل مجرمون
منحرفون يبتغون من وراء هباتهم أشياء في نفوسهم ..

- رأيت لافتة مرفوعة من طرف شخصين يلبسان وزرة بيضاء عند باب
المسجد ولم أتبين ما كتب عليها .

- أولئك الناس ينتمون لقطاع الصحة والاستشفاء، وهناك وزرات آخر
تتتمي لقطاع التربية والتعليم، والقطاعان معا يعانيان من العوز. تدفعهم
الحاجة للالتجاء لمن يتوسمون فيه خيرا، قد يجود عليهم بثمان ضماد، أو
علبة طبشورة. ولذلك لا يجدون أفضل من بيوت الله المصنفة، عدد نجحات
التصنيف عندها يفوق الخمسة، أملين من الشريحة التي تؤمها الإشفاق على
مريضنا وعلى تلميذنا ليس على طفلنا ككل. يقفون متسولين عند باب المسجد
الذي يعيش على البذخ، قد يجود عليهم من فائض عائداته، حتى يتمكنوا من
ترميم قاعة من قاعات الدرس التي فرت عنها الحروف خوفا من العراء،
وأبجديات الحساب تجنبا للتجمد. لم يعد سقفها يحول دون تسرب المطر،
ولا شبابيك نوافذها تستطيع منع الرياح وزمهرير البرد من لسع أجسام
الأطفال.. وحتى يتمكنوا أيضا من توفير بعض الأدوية للمرضى الذين
يعانون من كل أنواع الأمراض.

- غريب أمر الناس في هذه الأحياء، لهم من المؤسسات الدينية المصنفة
ما يفوق حاجتهم، ولا يتوقف المتنافسون في كل حارة على إنشاء بنايات

تفوق غيرها بذخا، في النقش والزخرفة والعقار. يأتون فيها سجودا باذخا فوق سجاد مستورد، لا تؤدى فاتورته بالعملة السهلة، ويركعون تحت أنوار ثريات ذهبية فُصلت لتتناسب مع النقوش المموهة بالذهب تؤدى فاتوراتها بالعملة الصعبة فقط. لم يعودوا يبنون بيوت الله تأوي أبناء السبيل، ويتحلق فيها طلاب العلم والمعرفة، وتجمع فيها الزكاة والصدقات ليستفيد منها ذوو الحاجة. بل أصبحوا يبنون قصورا لله بعشرات القباب، وثريات ذهبية، وخطوط بهاء الذهب.. يسمونها بيوت الله، تضرب عليها حراسة، شبيهة بالحراسة التي تحظى بها قصور الملوك.. تغلق أبوابها في وجه المحرومين وتمنع فيها الحلقات، لقتل الاختلاف وإشاعة الفكر المستبد. وتغيب فيها الأدوار الاجتماعية. لا تفتح أبوابها سوى خمس مرات لمدة قصيرة. يدرك المساهمون في بناء الجوامع المصنفة وتجهيزها، وجمعية المؤسسات التربوية والمؤسسات الاستشفائية المزرية تمام الإدراك، ورغم ذلك يتبرعون لصالح الأولى ويدخلون على الأخيرتين. يستنكرون ما تعاني منه المؤسسات الاجتماعية أي نعم. لكنهم يقفون متفرجين عليها وهما تغلقان أبوابها في وجه كل من التحصيل والاستشفاء. وإذا سئل المسؤول في الحي أو في الدار عن سبب النقص الحاصل في تمويل القطاعات الحيوية، أجاب دون أن ينبس أنها تستهلك ولا تنتج وتهدد الأمن والاستقرار. ولذلك تعمدنا تجويع الناس، وإعلاهم وتجهيلهم يعتقد أنه يستبدل الناس، وهم أعرف منه أن لا إنتاج يضاهي إنتاج المدرسة، وأي إنتاج يرقى إلى مستوى صقل الأدمغة؟ إلا أن يد القهر تكتم أفواههم، وتشل حركتهم. وإذا سألته عن

المساجد قال إنها تساعد على إرساء قواعد السلم والاستقرار ولم يتحدث عن استهلاكها وإنتاجها وتكريسها. ولذلك وجب ما وجب. واتخذ القرار الأنسب. يجيب بذلك وهو متأكد أن القهر حرم التعليم من أن يكون له منادون ومكبرات للصوت ينادون ويبلغ صوتهم إلى أبعد الأمد: "حي على التعلم، حي على الانعتاق، العلم خير من الجهل" ولن يكون له إمام يخطب في الصبيان يحثهم على التحصيل ويعدّهم أن جزاء المتعلمين حياة كريمة ويتوعد المتقاعسين بالخزي والعار في المستقبل. ومتأكد أيضا أن القهر يحظر على قطاع الصحة المزري المنادة: "الصحة كنز لا يفنى! اكتسبوا صفاء ذهنكم بالاعتناء بصحتكم! العقل السليم في الجسم السليم! اعلموا أن الجسم العليل يظأ العقل السليم يمشي فوقه يذله ويدفعه للوقوف بأبواب القصور يردد عبارات الاستجداء: لله يا أصحاب، أعيدوا على العقل سلامته، ساعدوه على ترميم ما تبقى منه. لله يا مؤمنين، تنازلوا عن مصباح واحد من ثريات القصور لصالح حجرة درس، عن مصباح ينير الفضاء لأكثر من قسمين. لله يا محسنين، ابنوا مدارس متواضعة! أنيروا قاعاتها بمصابيح باهتة تكفي لإنارة عقول الناشئة! لله يا محسنين، قفوا في وجه المرض الذي ينتظر الصبيان والشباب والشيب على طول النفق باسطا أنيابه! قفوا في وجه الهدر والاحتفاظ! قفوا في وجه الحرمان الذي يدوس بمنسمة كرامة الإنسان! فلا يعيرهم أحد أدنى اهتمام. يبدو أن الكل في هذه الأحياء رؤساء ومروّسين أئمة ومصليين يعملون على تكريس الجهل؟

- إذا افترضنا أن المسؤولين هم وحدهم من يعملون على ذلك، فأين هم المتضررون من الجهل والمرض؟ لماذا لا يناضلون من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل؟ هل معنى ذلك أن القهر غدّي فيهم الذل والهوان حتى نشأت بينهم روح الألفة وتعايشا مع بعضهم ما دام المتضررون من الجهل هم الذين يبارسونه؟

لقد أمر الدين بالصلاة، وفي ذلك ربط علاقة بالله، وفي نفس الوقت أمر بطلب العلم لأن العبادة لا تكون إلا بالعلم. لكن ما هو عصي على فهمي هو ما الذي جعل المسجد يهتم لبناء المساجد مع وفرتها، ولا يأبه لتربية النشء وضمان سلامة صحته. والغريب الذي تجود له العين، ويتمزق له القلب هو أن ترى كما رأيت اليوم بأمر عيني العلم يتسول بباب المسجد بل يستجدي الجهل الذي يشيح عنه كنكرة تافهة، ويمضي ليساهم في بناء المسجد، والدين نفسه يرفع عبادة العالم والعارف درجات، العلم سابق العبادة. ووجوب طلب العلم يسبق ووجوب العبادة؛ أو على الأقل يمشيان جنبا إلى جنب. غير أن المثير للدهشة أن كل المنابر تسخر أبواقها، وتجبر المجلدات في وجوب أداء فريضة الصلاة، وما ينتظر المواظب عليها من ثواب وفي ما ينتظر التارك لها والمتقاعس عنها من عقاب. وقل واستحال أن تجد من بين هذه المنابر من يورد ولو في ثنايا حديثه أهمية العلم وأثره على المجتمعات والأمم، ولا من يحذر من مغبة التقاعس عن طلب العلم، ولا من يتحدث متوعدا العازفين عن التعلم ومعتزليه. ولا من يشجع المقبلين عليه بتوفير مناصب للشغل

للعمل والزواج بالחסان. والسؤال الذي يطرح نفسه هو ببساطة: لماذا هذا التفريط في قيمة العلم؟ إنه سؤال يستوقف كل عقل سليم ويدعوه إلى الاستغراب. لكن مع معرفة السبب يبطل الاستغراب. فعدم الاهتمام بهذا الفرض، وعدم إعطائه ما يستحق من العناية وعدم المعاقبة على الإخلال به، يخدم مصالح الأولياء، الذين استعبدتهم الماضي، ورسخ في اعتقادهم أن العلم غيب والحديث عن العلم ضرب من الشرك. غيبوه مخافة الكشف عما يختفون خلفه من قيم جوفاء وما يأتونه من فسق وخروقات. كان من المفروض تجنيد الطاقات المعنوية والمادية وسن قوانين تعتمد الجزاء والوعد والوعيد حتى يحرص الرفيع والوضيع على هذا الفرض وعلى دور المدرسة في التنمية. ليس في الوجود أنكر من كائنات تذل العقل وتزدرى العلم. إن الأمم التي تقدر قيمة العلم وأثره في الدنيا والآخرة جعلته عماد دينها ودينها. ومن هذا المنطلق تكون الوظيفة الرئيسية للمسجد تعليمية.

- أصبح الأمر يختلف بين ما كانت عليه الجوامع التي كانت تحتضن العلماء، وتأوي وطلاب العلم وأبناء السبيل. وما أصبحت اليوم عليه اليوم إذ أصبحت مكانا للسجود فقط، كما يدل على ذلك اسم المكان "مسجد" ففي هذا العصر، أصبح هذا المكان يؤتمر يأمر السياسة، تتحكم فيه النخب، ومادام العلم يزعج هذه النخب السياسية طردوا العلم من المكان بل شردوه، بل وزعوا أشلاءه بين مؤسسات كثيرة، ولا واحدة منها تستطيع أن ترعاه، وتعهده، من ثمة فصلت المدرسة عن الجامع واستقلت عنه بل أصبحت

مدارس عدة لكل واحدة تخصصها، كلها لا علاقة لها بالدرس والتدريس بل كل همها موجه نحو تشويه العلم، أصبحت تؤدي وظيفة السجود فقط ومن ثمة أوصدت أبوابها في وجه أي نشاط آخر. ولم تعد حاجة إبقائها مفتوحة. وأصبحت اللجان المشرفة تتدعي أن المساجد تتعرض للسرقة، وأن اللصوص لا يذرون زراي ولا ثريات ولا مروحيات ولا أجهزة تكييف الشيء الذي يجبرهم على إغلاقها...

- معذرة أيها الرجل الطيب، هذا الادعاء حجة لكن مع كامل الأسف على وضد وليس مع... ما دام الجهل هو السيد والفقير هو السائد وفي نفس الوقت ينعم المسجد بمظاهر البذخ فمن المؤكد أن يتعاون الجهل والفقير في السطو على البذخ.. وهذا قد يجرنا للحديث على الحاجة والفقير، على الفوارق، على الانتقام من المجتمع...

- يا صديقي حينما نقول بيوت الله، فنحن نتحدث عن بيوت الحق، وما الحق سوى الرحمة والمحبة والتراص والتلاحم، وحب الغير، وحسن المعاملة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبادة الخالق، والاختلاف والتسامح... كون هذه البيوت تسمح لنفسها أن تنعم بالرفاهية، وبجوارها أختها المدرسة تعيش على البؤس أمر لا يمت إلى الحق بصلة ويرفضه الدين نفسه؛ فالمؤسسة الأولى ليست مؤمنة لأنها لم تحب لأختها ما أحبت لنفسها. إن المدرسة أخت للمسجد فكلاهما ابن للجامع رحمه الله. فكيف لا يجب لأخته شيئاً مما يجب لنفسه؟ لو أنفقنا على المدرسة ما ينفق على المسجد ولو

تطوع الناس لخدمة المدرسة كما يتطوعون لخدمة المسجد ولو لقي المعلم من طرف الناس في المجتمع ما يلقيه الإمام من احترام لنشأت الأجيال تشئة حسنة تختفي عندها دوافع الانتقام والإجرام. وإذا كانت المساجد تتعرض للسرقة أفليست السرقة نتيجة لسوء تدبير الزكاة؟ أقصد كيف للمرء أن يسرق وهو متعلم كفاية وضافدع بطنه صامته؟ أو ليس حرمان الناس من الخدمات التي يقدمها المسجد لمجرد السرقات هو تقصير...؟ أو ليست هناك طرق لمحاربة السرقات والتخريب مع إبقاء المسجد مفتوحا في وجه كل من يلجا إليه؟ ألم يكن الوقت بعد أن ندعو بالعقل إلى التي هي أحسن أن نرتدي غضب الرفض الذي يأتي على أخضر ويابس الفساد؟ لماذا لا نحاول تحليل الظاهرة والوقوف على الأسباب واستئصالها من جذورها؟ لماذا يتسارع الناس إلى بناء المساجد الزائدة عن الحاجة وأولو الأمر يدعون قلة ذات اليد لتقديم الخدمات ولا يوجهون ويرشدون وهم يعلمون أن الناس في حاجة إلى مؤسسات للعمل والتربية والاستشفاء؟ لو سخرت هذه الأموال في مشروع اقتصادي لشغل عشرات العاطلين وللبى طلبات مئات الأفراد أو في مشاريع تربوية أو مؤسسات استشفائية، ولخفت موازين السرقات؟ هل لأننا نعتقد أن بفعلنا ذلك وحده يمكننا أن نحجز لنا مكانا في الجنة؟ وإذا كان ذاك اعتقادنا أليس نتيجة لجهلنا بأمور الدين والدنيا معا؟ أو لأننا نتباهى على بعضنا؟ أو لأننا نلمع صورتنا في المجتمع حتى نصبح محط ثقة عند الناس وأهل جاه بينهم، لتمرير مصالحنا، وترويج تجارتنا، ألسنا في حاجة إلى مؤسسات أخرى، ترعى المواطنين وتوفر لهم كريم العيش؟ أم أن المساجد

مدرة للدخل ومنعدمة النفقات في حين أن المؤسسات التربوية والمؤسسات الاستشفائية تتطلب نفقات كثيرة ودائمة؟ حسابات مغلوطة جملة وتفصيلا كما يراها البعض ومقصودة كما يراها البعض الآخر، لأن المسؤول الذي يسعى إلى تكريس ما هو سائد في المجتمع يبلغ هدفه من هذا التوجه. غير أن ما توهمه ربها وتوفيرا عن طريق عدم الإنفاق على المؤسسات التربوية والاجتماعية والاقتصادية، هو في الحقيقة خسارة مضاعفة للحي من جهة يخسر الطاقات البشرية التي تحولت للإجرام ومن أخرى يخسر من خلال الإنفاق على المؤسسات الإصلاحية وإعادة التأهيل.

زاد عدد هذه المنشآت العقديّة عن حاجة الناس إلى حد التخمة، وقد صبت فيها ميزانيات كبيرة، بالمقارنة مع أدائها، فأداؤها لم يعد يرقى إلى ما يحتاجه المجتمع منها، فالمنطق يستدعي أن يقلل الإجرام، ما دامت الحكمة هي النهي عن الفحشاء والمنكر، ونشر الفضيلة، لكن حسب ملاحظتي اليوم في محيط المسجد حيث من المفروض أن يسيطر أثر الصلاة، ويفوح ريحها الطيب، منعكسا من سلوك الناس، يخفض قويمهم جناح الرحمة لضعيفهم، ويأخذ القادر منهم بيد العاجز. رأيت -مع كامل الأسف- دخان العنف يخنق أنفاس الناس، وسوء المعاملة تعترض طريقهم، والجريمة تحوم فوقهم، يعمل الناس على تكريس هذا الوضع، فالواقع يشي أن معدل الجريمة في ارتفاع والفحش والمنكر في ازدياد، في ظل هذا الواقع، هل يعني هذا أن البلاد ستكتسحها وتحكمها الجريمة؟ وهذا مع الأسف واقع تفرزه

توجهات المشرفين على القطاع. القيم لا تحفظها البنيات وما بداخلها من زخرف وبذخ ولا عدد هذه البنيات.. القوة اليوم لا تقيّم بالأعداد كما كان في الماضي، بل بالمعدات المتطورة، ومن لم يساير التطور يغدو سلاحه ضعيفا أمام ما جد في الميدان. فماذا أعددنا لهذا الإنسان من معدات، أتكفي دموع الإمام وهو يبكي واقع أمة حادت عن الطريق القويم لتحريك الهمم، ومتى كان البكاء قوة محمسة؟ أو ليس البكاء سلاح الضعفاء والخوالف؟ ومتى كان التوقع في الماضي ورفض الانخراط في الحاضر يضمن البقاء؟ بأي سلاح تواجه الأنا تحديات الحاضر؟

ينبغي التفكير في وسائل تساعد على حفظ الكرامة، من تربية قيّمة ومن عيش وسكن لائق ودخل محترم وتكوين علمي.. قد يسود المجتمع حسن التعامل واحترام الغير والحرص على القيم الفاضلة. أو بمعنى آخر، إن علينا التفكير في أساليب التربية والتوجيه وترسيخ القيم، أمام اجتياح مختلف الأساطير الحديثة وسرعة انتشارها بواسطة تكنولوجيا الإعلام والتواصل، فستان بين خطاب الماضي الذي يعتمد على الترغيب في الجنة والترهيب من الجحيم ويدعو إلى العزوف عن الدنيا، وخطاب الأساطير الحديثة الذي يقدم على طبق من سرعة الضوء ثمار التكنولوجيا.

وبعد، أعتقدني قد عجزت عن إيجاد تفسير مقنع لما يحدث بباب المسجد؟ أرى أن المصلين -ومعذرة على ملاحظتي هذه- لا يستفيدون من هذه الدروس. إذ بمجرد تخطيهم عتبة المسجد يولون ظهورهم لله.. عجبا لقد

رأيت رجلا قرب باب المسجد، يزيل حبة طماطم فاسدة من الطريق ولكنه يوافق على بقاء العربات بما حملت وسط الطريق، يميّط أذى صغيرا ولا يستطيع أن يقول إن هذا منكر لأذى أكبر منه. بل أكثر من ذلك فهو يتبضع من الأذى الجاثم على صدر الطريق، يعني يشجع على إبقاء الأذى في الطريق. أهذا جهل أم ضعف أم نفاق؟؟

- تجد أن لكل فهمه الخاص لإمالة الأذى...

- حجة أخرى على انتشار الفوضى في المفاهيم

تذكر آدم أنه رأى الإمام نفسه يشتري تفاحا من إحدى هذه العربات ابتسم وضرب صفحا...

- أليست مهمة الإمام تعليم القيم؟ ألا يرى ما يجري بباب المسجد؟ ألا يحث الناس على عدم التبضع ممن يؤسسون للفوضى؟ هل يعني أن الإمام لا يحسن الشرح أم أن المصلي لا يستفيد من الدروس؟ أم أن الخطاب خطابات متناقضة؟ أم أن هذه الظاهرة لا تصلح درسا؟ أم أن الأمر يزعج أحدا؟

وهناك أمر آخر وأنتم بداخل المسجد، لقد اشتد شجار بين شخصين تحول إلى عراك ثم إلى قتال، رأيت سيوفا تسل من تحت فراش العربة ويجهز شخصان أحدهما على الآخر وركض أحدهما خلف الثاني وتبعهما جمهور غفير. وكان أضحية العيد ولت هاربة من سكين صاحبه

- ماذا عساني أقول غير أننا نحتاج إلى موت لكي نبعث من جديد قد نكون على غير ما نحن عليه.

- ألا تلاحظ معي أن من ينعمون بجهالتهم يسببون الشقاء للعاقلين. إننا ننعّم بسبات عميق حتى إذا ما رجت كياننا صدمة قمنا بردة فعل آنية نبحث في ماضينا عن طريقة نتجاوز بها الصدمة دون أي جدوى، وسرعان ما نتكيف مع الصدمة ونعود للنوم، وإذا ما حلت بنا نكبة غيرها، هبنا نستعرض بطولات ماضينا حتى إذا ما تكيفنا مع واقع نكبتنا وأصبحت جزءاً منا عدنا للنوم من جديد، و تحل بنا نكسة وهكذا دواليك تتعدد المصائب وتتعدد معها إعادات النظر والعالم يمشي نحو الأمام ونحن نخطو إلى الخلف، وكأننا خلقنا عنصراً سلبياً رسالته هو حفظ التوازن الطبيعي.

- أرى أن الأمر يستدعي تفعيل نتائج الدراسة. فالحياة كل لا يتجزأ، لا رقي إلا بنظرة شمولية، لا تجزيئية، لا من قبيل استذئاب المدرب كلما حصدنا الهزائم تلو الهزائم، بل لا بد من النظر إلى المنظومة بجميع مكوناتها. فالإمام وحده لن تؤدي مجهوداته مهما كانت إلى نتيجة، وتغيير الإمام بغيره لا جدوى منه، وتوفير المعلم بدون حياة كريمة وتوفير حجرة، وموجه تربوي غير كاف لإنجاح العملية التربوية وكذلك الشأن بالنسبة لبناء كيان الذات المستقلة فهي ترتبط بجهات مسؤولة عنها، يجب أن تعي مسؤولياتها الدنيوية قبل الأخروية. وبمؤسسات أخرى في نسيج متكامل وحلقات مترابطة لا يمكن إغفال أية حلقة منها.

فالنظرة التجزيئية تركي الفرقة، وتنجب التشرد، وتفرخ الأحزاب، وتلد الطوائف والجماعات لتحمل السلاح في وجه السلم، وتشر الرعب

في جوف الطمأنينة وتزرع الفساد في حقل الصلاح، يكفر التجزيء بتعاليم العقل، يمشي على رصيف الهدى. قد أحاط التراث بخطوط حمراء مصطنعة ومبتدعة لا تحمل له جينات، وزرع في رحمه إشارات خضراء غير شرعية تبيح اختراق الاتجاهات الممنوعة، تسقي جذور الاختلاف.. ولن تخالفني الرأي عندما أقول إن الإيوان مرتبط بالعقل والعقل كلي لا يقبل التجزيء، غير أن التجزيء المدعوم بالماضي بذل كل ما في وسعه حتى جعل العقل درجات وأوسعها العقل البسيط، لا يمكن أن يخضع لتطوير ولا لإنماء تجده ساذجا يؤمن بالتفاهات وتنظلي عليه الحيل، ويسمي صاحبه سذاجته إيمانا، وهذا شأن من تناقلوا التراث بغير أعمال العقل. وهذا هو العقل الذي تعمل النخب على الترويج له لأنها تعلم أن بقدر ما يكون العقل مركبا معقدا لا يقبل التجزيء يكون يقظا متحفزا لدفع كل ما لا يقبله منطق، ويتسبب لها في افتقاد امتيازاتها. في حين أن هذا ما يجب إرساء بناءه حتى يكون في مستوى التأسيس لبنى الحاضر الذي ينبغي أن تؤمن به الحياة والديار".

شرد "الولي" لحظة وكأنه كان في سبحة سقراطية، عفوا في غرقة تراثية، تُنكر كل اجتهاد عقلي مجرد، تُحرّمه، تُكفر العلماء وتتهم الفلاسفة بالزندقة، وتقتل الكثير منهم رغم أن الله حرم قتل النفس بغير حق. طال شروده حتى ظن "جوهر" أنه يرسم طريقة لاغتياله، ما استيقظ إلا على صفقة سؤال من جوهر:

- أليس لديك أي تعليق أيها الولي؟

- في الحقيقة انشغلت بالتفكير في شخص "نضال" حتى سرحت بعيدا عن محتوى الحكاية. عجبنا لقد وجدت في كفره إيمانا، أو بعبارة أوضح وجدت إيمانه يطغى على كفره. إن له منطقا سليما يدافع عن القيم الراقية. أعجبت بهذا الشخص حتى تمنيت لقاءه. فهل أطمع في التعرف أكثر على شخص "نضال" - لقد طربت لشخصيه وهي من ورق، وأنا أرغب في الاطلاع على سيرة نضال الحقيقية.

- أخفى "جوهر" خلف ابتسامته فخرا، وكأنه عاد من حرب يحمل لواء النصر، وقد عزا طلب الولي إلى انشداده إلى شخصه أولا وإلى منطق التحليل الذي يتمتع به "نضال" ثانيا قبل أن يحرك رأسه بالموافقة، وينطق لسانه قائلا:

- ألا ترى أن سيرَ هذا النوع من الناس تضيق عنها المجلدات، فكيف تريد أن تعرفها في وقت وجيز وعن طريق السمع؟ لقد ولى زمن العننعة، لسْتُ من سأحدثك عن "نضال"، سأترك الفرصة لتبحث عن طريق الدرس لتقف على حياة "نضال" بنفسك.

انتبه جوهر فجأة أن الولي لن يكلف نفسه تعب البحث، بدون شك سيبرر لنفسه تقاعسه بألم في الرأس ثم استدرك: لكن لا بأس ما دمت تصر، يلزمك الاطلاع على كتاب عنوانه "مجمع السير" يجمع كل سير "نضال" أو بعبارة أخرى سيرته كما كتبت بأقلام مختلفة. سأوافيك به قريبا.

الفصل الثامن

التقى "صالح" بن قويدر الموساوي "صمو" منذ نعومة رجليه إلى فرنسا في إطار التجمع العائلي، بشخص يدعى "نضال"، عرفه صديقاً للعائلة، وكان رجلاً يأبى الذل ويرفض الهوان، وينشد العز له ولغيره، دفعه هذا التوجه إلى الانخراط في النقابات العمالية، والعديد من المنظمات المناهضة للاستبداد البشع، والمنظمات الحقوقية الرافضة لاستعباد بني البشر، المناهضة للفساد بشتى أنواعه، والساعية إلى إرساء دعائم المساواة والإنصاف والكرامة الإنسانية، بركوب نهج الديمقراطية ومحاربة الميز بشتى أشكاله، الشيء الذي جر عليه نقمة الأنظمة ذات الطابع الاستبدادي، لقد ظل يزعجها، لم يدخر وسيلة لفضحها، وفي المقابل جدّ- واجتهدت للقضاء عليه.. لما لم يستطع قانونها تجريمه، نصبت له العديد من الكائن، والكثير من الأشرار لم تقو على الإيقاع به؛ لفقت له تهماً أفضت به لحبل المشنقة. وغرفة الغاز، والكرسي المكهرب... حدث أن أعدم مرات عديدة، ولم تَفُضْ كل أرواحه،

خطأ في ضعف هذه الأجهزة والآلات؛ كان الحران يصيب آلات الإعدام، وكثيرا ما كانت تعدم نفسها.. تلقت رحي الإعدام الأمر بالتنفيذ. تقدم الإمام والكاهن قرأ كل منهما ما تيسر من كتابه ودعا للمزمع إعدامه، بحضور لجنة تتكون من كل الأجهزة والسلطات والطوائف والأيديولوجيات. بمجرد أن أشارت الساعة إلى الصفر أصدر السيد رئيس اللجنة أمر رفع مفتاح الكهرباء، انطلقت الالكترونيات عبر الأسلاك الفلزية. فجأة توقفت كوكبتها الأولى لتتعرثر فيها لاحقاتها فاصطدمت ببعضها البعض محدثة فوضى عارمة. تحدث التيار لغة الشرارات وتوقف قبل أن يبلغ جسم "نضال" إكراما لروح النضال. وتراجع التيار الكهربائي القهقري معلنا تمردة ليحرق العداد والمفتاح وما يربطهما من أسلاك. عاشت اللجنة الحدث، لم تصدق ما وقع، رفعت التقرير إلى الجهات العليا بعد أيام أصدرت قرارا بالإعدام في غرفة الغاز. جاء التقنيون من كل صوب من العالم أنشؤوا شبكة خاصة جديدة وقاعة على مستوى عال من التكنولوجيا ودقت ساعة الصفر.. فتح الصنبور، لكن سرعان ما ارتد الغاز مدبرا عوض أن يقبل عبر الجهاز المربوط إلى جسم "نضال".. تسرب إلى القاعة المحصنة من حيث يطل أعضاء اللجنة المشرفة على عملية الإعدام عبر زجاج بعين واحدة، ليهرع الجميع إلى الخارج. فتحت تحقيقات في هذا الشأن.. وفشل الإعدام بالمقصلة.. كما فشل أيضا بحبل المشنقة فسرى الرعب وتسرب الشك إلى النفوس، فأصبح "نضال" بطلا خالدا في الأوساط الاجتماعية العالمية وظاهرة تعلق على العقل قرأت

بمستويات تتراوح بين الأسطورية والشعبية والعلمية، كل حسب ما يمتلك من أدوات ومن دوافع وأهداف. واكتسب "نضال" مكانة محترمة بلغت درجة الأسطورة أحيانا.

لم يجد أعداؤه بدا من اغتياله، وسعوا مرارا يرسمون الخطة والخطة البديلة، سهروا بكل عناية على أن يبدو الاغتيال حادث بسيطا.

على عادته، وصل "نضال" إلى المقهى الذي يرتاده كل يوم على السادسة والنصف مساء قبل أن يلتحق به بعض أصدقائه القلائل بعيد الساعة مساء. لم يلتفت إلى "صمغ" (أي صكوم) الاسم الذي يعرفه به "نضال"، يقف إلى جانب طاولته. ظل بصره مشغولا على شاشة هاتفه قليلا، ظن الواقف علامة استفهام حديثة العهد بالمقهى، يسأله عن مشروبه. في اللحظة التي رفع فيه بصره سمع التحية، فسهل عليه الصوت التعرف على ملامح الوجه، فقام واقفا، مشدوها من المفاجأة، قبل أن ينبس ببنت شفة جالت عيناه في الحديث، وصال ذهنه في الذكريات. ارتقى في حضن ابن صديقه الذي لم يره منذ دهر. طال العناق إلى أن لفت أنظار الكثير من الحاضرين. في هذه الأثناء كان السم السائل من الإبرة المثبتة بإحكام في يد صمغ قد انطلق سائحا عبر شرايين "نضال". أدنى "صمغ" شفثيه من أذن صديقه هامسا: هذا جزء من يقتل ابني... بقي الاثنان ينظران إلى بعضهما... رن تلفون "صمغ" نظر إليه وقف كالمستأذن للرد.. ثم انسحب وكأنه يسمع صوت "نضال" خلفه: "لم أقتل أحدا في حياتي يا مغفل. بل مات العديد من الأحرار من أجلي، قد

يكون ابنك قتل من أجلي، لكن من ابنك هذا؟". كان نضال قد أحس بوخز على مستوى رقبته، ثم بخدر ينتابه، أسرع بإخراج قرص دواء من قارورة صغيرة، ابتلعه، واستقل أول سيارة أجرة مرت بالمقهى...

ظل صدى العبارة يتردد في أذن والدي "صمغ" (لم أقتل أحدا في حياتي.. من يكون ابنك هذا؟).

أما "نضال" فمضى يستعيد، بعض الذكريات التي يشترك فيها مع "صالح" وجدها تقف عند اللحظة التي غادر فيها باريس على إثر الحدث الذي أسال مداد أقلام الصحافة. لم يعد يعرف عنه شيئا.. أخذ يربط بين آخر اغتيال في صفوف محيطه و"صالح": إذا كان آدم ابنك لقد تأخرت كثيرا. لقد قُتل آدم فداء للحق، لقد قدم روحه في سبيل إمطة الأذى عن طريق المقهورين. لقد مات من أجل أخيه "ضمير"، ومن أجل "نضال" ومن أجل "جوهر" ومن أجل أمثالنا وليس من أجلك أو من أجل أمثالك. يبدو أنك والد وأكيد أنك لم تكن أبا البته، لو كنت كذلك لرقص الشبل فرحا وامتلأ وفخرا بمناقب الأسد الذي كان من صلبه.

من جهته أخذ "صمغ" يستعرض شريط علاقته بنضال منذ أن كان طفلا صغير السن، صديقه وصديق العائلة الذي ساهم في تنشئته في باريس، فكثيرا ما ساهم في توعية والده "قويدر" وكثيرا ما نشط إلى جانب زوجة والده "روز"... أخذ الندم يستبد به، إذ كيف صدق أن "نضال" يقتل ابنه؟ "كيف يتبادر إلى ذهني أن نضال يمكن أن يكون مجرما" وكيف فاته أن تكون الجهة

التي اغتالته هي نفسها من اهتمت "نضال"، تسعى إلى ضرب عصفورين بحجر واحد، ولا بد أنها من حرصت ثكلان على الأخذ بثأر ابنه.

لما نزل بصاحبنا سخط من أقنعوه بالانتقام لمقتل ابنه نزول الوبال، أدرك أن "نضال" حي لم يموت، وأحس بارتياح غامض. "آه لو كان نضال قد مات لكان عزائي عزائين".

نظر "الولي" إلى "جواهر" قائلاً، وهو ينتظر تزكية: "إذن كان من حاول اغتيال "نضال" هو صديقه القديم الذي هو والد كل من "ضمير" و"آدم".



كان أخي آدم قيد حياته يستيقظ كل ليلة على كابوس يقض مضجعه، كان يرى في ما يرى وهو نائم، رجلاً عملاقاً، يترأى بأوجه مختلفة، تعلو رأسه قرون ملطخة بالدماء، له أكثر من يدين كالأخطبوط، موصول بحبال كهربائية إلى بطارية عملاقة يحملها على كاهله. يفر "آدم" منه ركضاً يلهث حتى تنقطع أنفاسه وتخرقواه ولا يستطيع حراكاً ولا صراخاً. يلحق به العملاق ينظر إليه نظرة متملق وكأنه يبحث عن مشفق، أو عن مخلص من معاناة عظيمة.. لاحظت الممرضة المشرفة على والدته أنه في الآونة الأخيرة بات لا يطفى نور غرفته طوال الليل، وتهياً لها أنها تسمع ما يشبه الصراخ في كبد الليل دخل غرفته. لما تأكدت من تكرار الأمر أخبرت والدته "نجاة". وفي إحدى جلساته إلى والدته بعد تناول العشاء، نصحته بزيارة الطبيب. فوجئ آدم وتساءل كيف علمت والدته بحاله، لم يكن يستطيع ألا يسرد على

مسمع والدته ما يقع معه عندما طلبت منه ذلك. علمت أن الكابوس يتكرر بنفس السيناريو، هالها في الحكاية أمران؛ ماردا لا يتحرك بطاقة ذاتية، وحالة البؤس التي يصبح عليها لما يقترب من ابنها، وقالت في نفسها: ليس هذا حلما تافها بل لا بد أنه رؤيا ذات بعد. صمتت لم تعلق، ظلت شاردة وكأنها سافرت عبر الأثير بحثا عن تستفتيه رؤيا ابنها؛ تذكرت نجاة أن للا الغالية، أم آدم بالتبني، كانت قد نقلت إليها حديثا عن زوجها أبي آدم بالتبني. قال إنه لما كان على رأس الهيئة الدبلوماسية المالكية بالديار الكعبية التقى برجل أعمال كعبي الجنسية يشبه إلى حد بعيد "صمو" حتى ظن أن له بالشخص معرفة سابقة، وظلت ملامح الشخص على الصورة تدور في مخيلته حتى تذكر أنه سبق له أن رأى صورة زوجها لما ساعدها في بعض الأمور الإدارية التي تخصها وطفليها.

عادت تذكر أيضا كيف غادر زوجها أبو آدم وحواء، حيي بني مالك فجأة، أياكون قد اختطف، أو مورست عليه ضغوط أو ابتزاز أو أنه ضحى من أجل أمر عظيم. أياكون هو العملاق في رؤيا ابنه؟ أياكون البطاريات رمزا للقوة المتحركة في حركته؟ أيايح على زيارة ابنه حتى يساعده على التخلص مما يكون قد وقع فيه من مأزق؟

أما أنا (ضمير) فكنت من حين لآخر أقترح على أخي "آدم" مكتبته وهو منكب على عمله، انتبه لما يدونه، دون أن أفهم منه الكثير رغم أنه كان يكتب بلغة أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل، كنت أحس أن باستطاعتي أن أكون عوناً فعالاً بالنسبة لمشروعه. وأعرف أيضا أنني لا حول لي، أقف

متفرجا، أحاول التدخل لكن من أين لي ذلك؟ لا أدري ما الذي كاد يصيبني من جراء هذا الشلل الذي يقيدني، كانت تراودني فكرة واحدة، أود القدرة على إبلاغه إياها في عبارة قصيرة ولو في عبارة على شكل برقية: "ابحث عن أبيك" أو "السر مع أبيك".

جريا على عادة سنّها على نفسه، اعترافا بفضلها عليه، يقوم بزيارة شهرية لوالديه بالتبني، وكان هما أيضا قد بلغا من الكبر عتيا. أصرت والدته على مرافقته رغم حالتها الصحية، حتى تصل الرحم مع هذه الأسرة الكريمة التي أحسنت إليها وإلى ابنها على وجه الخصوص... حكّت نجاة لللا الغالية عن الكابوس الذي يعقد وجود ابنها وتوسلت إليها أن تحادث زوجها حتى يثير موضوع رجل الأعمال الكعبي مع ابنه ويحثه على البحث عليه قد يكون والده...

بعد تردد دام، قرر آدم السفر، أخبر والده بالتبني بما يقدم عليه، طلب منه هذا الأخير أن يترى قليلا حتى يتواصل مع أصدقائه القدامى هناك يسهلون مهمته ما أمكن.

في هذا الحي الذي أضحى يعيش عدم الاستقرار، استقبل آدم بحفاوة كبيرة، زار مع جماعة مستقبله من معارف والده معالم الحي العمرانية ورأى عن قرب المنشآت التي كانت من تصميم والدنا "صمغ" وإن كان اسمه قبل أن يكون "صمو" كانت الصورة التي بين يديه هي صورة "صمغ" نفسها..

طلب أحد مستقبليه السيد "صمغ" على الهاتف، ليبلغه أن له ضيفا يرغب في مقابلته، لكن العلبة الصوتية تنوب عنه في الرد.

طلبوه على رقم البيت فرد صوت سيدة فيه ضعف واهتزاز، ينمان عن فقدان لتوازن العضلات في الجهاز الصائت. رحبت بالضيف. على عادة أهل الحي... وقف بباب القصر، بعد أن أوصله أحدهم، وودعه على أمل مكالمته بعد إنهاء الزيارة... قبل أن يصل إلى مقصورة الاستقبال صاحبه البواب عبر ممر الحديقة مرورا بالمسبح الذي يتوسطها، فأسلمه لسيدة يبدو أنها مديرة شؤون القصر. شد انتباه آدم سيارتان بألوان أنثوية لم ير لهما مثالا من قبل، أشبه بسيارات السباق. استقبلته والدتي بحضور أخوي عمرو وزيد أكرمته وفق تقاليد الحي، قبل أن تسأله حاجته. كان يحدثها دون أن ينظر إلى ملامحها. كان ينظر إلى ابنيها من حين لآخر، هما علامتا استهلاك، حلاقة غريبة بخطوط وحروف وألوان مختلفة، أحدهما بوجه فتاة تأنق في تجميله، وقلادة صفراء لامعة تتدلى لتبلغ أسفل البطن، لا تختلف في سمكها عن التي تقاد بها الجراء. لباسها ضاق عن جسميها رغم شدة نحافتها، يبدو من خلال حركات أحدهما، وخاصة حك أنفه دون انقطاع مع سحب الهواء عبر الخياشيم أنه مدمن على المنشطات الكولومبية، يتحدثان لغة أغرب، حاول آدم محادثتهما دون أن يفهم من كلامهما شيئا، ربما كان لهما عالمها الخاص. بدا لهما كمن خرج للتو عبر بوابة الزمن الماضي. أما أنا فتمنيت لو وجدتهما كما رأيتهما آخر مرة.

وضع "آدم" بين يدي أمي صورة، قائلا: "أنا بصدد البحث عن والدي"... نظرت المرأة إلى الصورة فوجدت والدي على الصورة في ريعان الشباب، وردت في اندهاش:

- هذه صورة أبي "ضمير".

أعادت النظر، تتفحص الصورة وكررت:

- هذه صورة أبي "ضمير"، فكيف يكون أباك؟

رد عليها جادا:

- هو والدي وليس أبي ..

استدرك بعد ذلك:

- عفوا سيدتي، هذه صورة والدي فكيف يكون أبا "ضمير"؟!

قلت بغير صوت: "يا أخي، أنا أخوك"

قالت تجمع بين التعجب والاستفهام:

- أياكون بينهما تشابه إلى حد التطابق، أم يكونان توأما؟!

- لا أدري يا سيدتي.

ثم طفق يسرد على مسمعها حكاية والده كما سمعها عن أمه، حدثها عن دراسته بفرنسا والشواهد العلمية والمهنية التي حازها، وعن عودته إلى حيه واشتغاله، وزواجه من أمه "نجاه"، دون أن ينسى تواريخ العودة والزواج

و تاريخي ميلاد أخته وميلاده. ووالدي تتابع حديثه باهتمام، وجدت هذه التواريخ كلها سابقة لعهدنا بزوجه، وانتابها الشك، وتوقف تفكيرها لعلها كانت تستعيد أوقاتا أو أحداثا لم تكن توليها اهتماما من قبل وجدت الآن أن لها علاقة بما يحكي ضيفها. وخرجت عن صمتها:

- إذا كان فعلا والدك، فالأمر في غاية الخطورة... ساد الصمت ثم استدركت: ولكن لماذا هجركم وأهملكم؟ ولماذا أنشأ عائلة ثانية؟ ولماذا غير اسمه؟ وكيف غيره على شواهد العلمية وعلى وثائقه وهويته؟ ولماذا حافظ على تاريخ ميلاده دون بقية المعلومات؟ أتمنى أن يكون في الأمر شبه، لأن إذا كان هذا الأمر حقيقة فهي كارثة عظمى. أجل ما السبب الذي أرغمه على هجر عائلته؟ أيكون لأمر ارتكبه كالذي زج به بسببه في السجن؟ وإن يكن لماذا قطع كل اتصال بكم؟ ولماذا حرمت من زيارته في السجن؟... آه رأسي يوشك أن ينفجر.

- سلامتك سيدتي، أعتقد أنني تسببت لك في الانزعاج. أعذر

- لا عليك على العكس فحضورك نبهني لأعيد النظر في أشياء كثيرة. يمكنك استئناف حديثك.

- شكرا سيدتي، كنت على زوجك بأبي "ضمير"، لم أر "ضمير". أهو خارج القصر؟ أرغب في التعرف عليه.

- أعتقد أن الأمر مستحيل..

قالت هذا وصمتت، حتى ظن آدم أنها تبعده عن أنبائها، لكنها سرعان ما استأنفت:

- "ضمير" ليس ابننا لوحدها، هو ظاهرة، مشاع بين كل الناس يحيا حياة اصطناعية منذ أمد بعيد، هو في عداد الموتى لكننا كلنا أمل أن تكتب له العودة إلى الحياة. الأمر في غاية الخطورة، فعودته إلى الوجود مرتبط بشفاء روحه واستعادة حيوية أعضائه. يبدو حسب الحكماء والأطباء أن ضمير هو من يرفض الاستجابة، لأن روحه لم تعثر بعد على العوامل المساعدة على الشفاء. أمر حير كل أطباء الدنيا، لم يصادفوا طوال مساراتهم الطويلة حالة كحالة ضمير. ذلك أن الكسور لم تلتئم والجراح لم تندمل دون أن تفسد أو تتعفن. ولكي يستعيد عافيته وحيويته لا بد من رغبة داخلية، وهذه الرغبة لن تتأتى له إلا إذا رضي على جسمه، أو على الأقل على انسجام أغلبية أعضائه. لا يمكن للأجسام الخارجة كالدواء أن توفرها. فكل عضو من أعضائه يعزف منفردا، يعزف لحنا آخرس، لم تحقق بعد هذه الأعضاء التناغم والانسجام المطلوب. فضمير واع وفي كامل قواه المعنوية، يعي كل شيء من حوله، لكنه عاجز مادام الجسد مسجى بدون حركة، والأعضاء فقدت حيويتها. رغم ما يتهدد الجسد من موت فهو من لا يشعر بالخطر الذي يحرق به.

- لا أدري سيدتي هل يمكنني ... هل كما يقول الأطباء : موت سريري"

- أمر لا أتجرأ على إثباته أو نفيه. فهو بدون شك يفكر، أي نعم ، لكنه غير متواجد على الساحة. ما الذي يُفقد وجوده؟ هل له صوت يُسمع من ذاته ومن غيره، أم أن مطره عقيم، لا يجدي نفعاً؟ هل لحدائقه عقب الزهر أم غزاها عصف الخريف؟ هل لشمسه دفء أم امتصه صقيع الصحراء؟ أَيْظَل فكره مضفراً، وتاريخه تائهاً عن طريق الاخضرار؟

أشفق على كل من أخي ووالدي وكل من يعيشون في محيطي. لكونهم يجهلون ما آلت إليه أحوالي. لا يدركون أن ما حدث معي، كان نتيجة لافتقاد أعضائي فروسية الرفض، ولم يعد لخيولها سهيل، تفرح هذه الأعضاء بالأدوار العرضية على مسرح العالم، تبتهج لحمل حقيبة الأبطال، وتلميع أحذيتهم. تفككت أعضاء الجسد أجزاء، وبقيت (ضمير) في انتظار إطلالة خيط فجر كي أغزله ضحى، فأبسطة نهاراً، وحتى إذا شرف هذا الخيط أخشى عليه من أن يقف سائحا يتفرج على أعضاء تشلّوت تنهشها أنياب الذئاب، يطالها التحلل لتعود إلى تراب. منذ دببتُ على الأرض اكتشفت أن مجيئي كان خطأً. وجدت نفسي في أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل سابحا في بحر جهل، أجهل أنهم أجهل خلق الله على الأرض، يسيطر عليهم جهل ما زال يفخر بكونه أذكى ذي رجلين والعالم من حوله يتحرك راكبا سرعة العقل يحتل مواقع السماء ليوجه من هناك حركة دوران الأرض حسب مصالحه. جهل لوى ذراعي، وشدها إلى الماضي، لم أعد أملك إلا أن أنفرج على نفسي، وسياط العذاب تنال مني وأمواج المؤامرات توجه نحوي

وأنا بين اليقظة والغيوبة تجثم على صدري قوة أراها تخنق أنفاسي، أحاول الصياح لعل مغيثا يهرع لنجدتي، لكن هيهات لا حياة لمن أنادي على الأرض وهل سيسمعني أحد يوما أم يظل صوتي منكنما إلى الأبد...؟

بعد أن حكّت والدتي لأخي نبذة من "لا حياتي"، وعرفت منه جوانب متفرقة من حياته الخاصة والقليل عن والدته وأخته، أخبرته أن والده لم يعد يحمل اسم "صمو"، ولم يعد مالكي الجنسية، أصبح يحمل اسم "صمغ" كعبي الجنسية، اشتغل مهنته... سجن لتورطه في احتراق السوق الروحية، ولم يسمحوا لها بزيارته. بل نفت الإدارة انتهجت سياسة التضييل.. وما تزال والدتي تصدق أنهم سجنوه. والواقع أنهم موهوا الحقيقة لإقناع الرأي العام بما يريد أن يقتنع به. لا أحد غيري يدري بوضعه في السجن وبما آل إليه. إذا كان قد اختفى فجأة من الحي المالكي، وحصل على هوية وجنسية وعمل في الحي الكعبي، فلا مانع أن يحصل على هوية وجنسية جديدين، وبدون أدنى شك أن هويته الحقيقية كانت مختلفة عن كل الهويات التي لبسها والتي سيرتدي غيرها مستقبلا. إلا أن ما بات يؤرق أخي آدم. هما أمران، قد يكونان مفتاح قراءة شخصيته، أولهما عاطفي محض إذ كيف يمكن للمرء أن يفر أهله ويضرب عنهم صفحا وهو يحبهم. لقد أحب زوجته واحترمها وعاملها برقة، كما أحب أبناءه حبا جما كما ورد في حديث أمي معه، والثاني وهو الأخطر، المرء الذي يحصل على هويات وجنسيات وما يتبعها من دقة في حمل

الشواهد الدراسية والمهنية للاسم والهوية والجنسية لا بد أن وراء جهات نافذة لها سلطة ونفوذ كبيرين. وحسب تفكير أخي آدم؛ إذا كان الأمر كذلك فمن هي هذه الجهات؟ أكيد أن والدي ووالد إخوتي أينما كانوا، لا يتحكم في مصيره ولا في حياته، فهو "روبوط" مسخر. لا بد أن وراءه جهة، تعمل على غسل دماغه كلما أرادت تسخير له لأمر خطير، لا يجد تفسيراً لإهماله لعائلته الواحدة تلو الأخرى، وكيف أصبح على هذا الحال وكيف يقبل على نفسه أن يخون أسرته ووطنه. إذا ربطت الرؤيا بالواقع فهو في حال يرثى لها، أداة تبطش بها جهة في منتهى الخطورة ترى ما الجرائم التي حملوه على ارتكابها واستعملوها ضده كي يبقى عبداً لهم. سؤال يؤرق العائلة. آه لو كنت قادراً على إسماعها صوتي لو فرت عليها جهداً كثيراً ولأرحتها من القلق....

لاحظ آدم عدم اكتراث زيد وعمر و لما يجري حولهما، لم يبدى أي اهتمام بضعفهما رغم ما سمعه منه من زعم وادعاء، لاحظ أنها ببرودة صقيع تجاه أمر والدهما. حتى شك أنها لا يعيان ما يدور حولهما أو يكفران بروابط الأسرة، وما تستدعيه من تماسك يساعدها على تجاوز الصعاب. يعيشان مكبلين إلى العوالم الافتراضية، مدمنين، الأذن موصولة إلى جهاز التلفون لا يسمعان من الطبيعة الشاسعة حولهما شيئاً، لا يأبهون لتغريد العصافير، ما دام غارقين في التغريدات الافتراضية، لا يفقهان شيئاً مما يجري حولهما وحول عائلتهما وما يدور في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من حولهما. لو سألت أحدهما، من باب الاختبار فقط، عن صلة القرابة بينه وبين

"آدم" لأجاب: "إنه من أقارب والدي" وهما الاثنان في نفس القصر يعيشان بعيدين عن بعضهما، لا يفكران إلا في نفسيهما. لم يعد للوحدة مكان عندهما، لا منفذ تتسرب منه بالنسبة لهما، يعيشان تطرفا نرجسيا، يتواصلان مع العالم الغربي افتراضيا، ولا يأبهان لمحيطهما من حولها واقعا على غرار الكثير من أبناء الأحياء الطلية. لا مطلب لهم غير المتعة كما يعيشونها ولا أهمية للطريق المؤدي إليها، قد يركبون إليها طرق أموال أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل مستغلين سلطتهم على المستضعفين. زيد وعمرو همهما الإنفاق على نزواتهما بإسراف شديد دون أن يبذلا مجهودا للكسب، ينفقان مما كسبت يد والدنا، وما خلفه من ثروة، وذهنها أفرغ من فؤاد أو موسى.. أما والدي فأصبحت ترفض أن تمس مليها من المال الذي راكمه زوجها، في حسابها الخاص..

استأذنها آدم في عيادة ابنها ضمير(أنا)، فسرها ذلك ورحبت ولو غير مقتنعة بعدُ بأخ أبنائها... وجدني مسجى لا حركة سوى أنفاس فاترة وصدر لا يعلو ولا يميل في حالة موت، رسم قبلة على جبينى، ودعا لي بالشفاء. لاحظ مدى عناية والدي بي، دون أن يعلم أنها تسهر منذ أن تعرضت للحادث المشؤوم، وتقضي إلى جانبي جل أوقاتها حين لم يعد أحد يهتم لي أو يزورني، حتى أخواي باتا يشمئزان من منظري، ويجدانه مقرفا ولم تعد لهما رغبة في زيارتي، ينتظران توبيخ أُمي على عدم سؤالهما وزيارتها.. لم يغادر آدم قبل أن يطلب منها أن تدله على أمانة خَلقية قد تكون على جسد والدنا.

دلته على أمارة جرح عميق على ساقه اليسرى، أمر لم تشر إليه والدته في كل ما جمعه من حديث معها في أمر والده.

- يا جوهر! لقد أذهبت عقلي هذه النبذة الوجيزة حتى تعذر علي الفهم، واحترت في فهم هذا الشخص المتبدل والمتحول إلى كائن عجيب؟ وكيف استطاع النجاة من الموت؟

- لا تستبق الأحداث فأنت لم تقرأ من الحكاية سوى كسر صغير، ودع عنك الكلام وانتبه لما تقرأ من سيرة العظماء الذين يتعين عليك أن تتخذهم قدوة.

الفصل التاسع

وجد والدي في استقباله رجالا غلاظا شدادا، أقلته سيارة رهيبة مريحة غير أنه لا يستطيع أن يرى خارجها شيئا، قطعت به مسافة غير يسيرة، غفا دون أن يدري وجهته... في قاعة ، في فندق راق لا شك أنه ينتمي لسلسلة فنادق "دأسز" جلس على أريكة، مثقلا بالشكل، لم تقو على الصمود تحت ما يبرزح تحته من آلام.. رغم النوافذ المشرعة على سماء حديقة غناء، يبدو له هواؤها محملا بالرصاص. يصارع أمواج المعاناة ويصد هجومات ملل الانتظار، يمسح صورَ ولوحات الغرفة ببصره المعلق إليها دون أن يسأل ألوانها أو يلتفت إلى خطوطها، لا يرى عليها سوى دم ابنه، وآلام ابنته كما فرجوه على شريط الجهاد الذي انخرط فيه، والحادثة المروعة التي تعرض لها ابنه "ضمير" (أنا). انتظر طويلا حتى بدا له جناح الوقت مكسورا، كسر بطؤه أعصابه، عشرات المرات.. شرف شخصان مسلحان بصرامة تنبعث من عيونهما وكأنهما جاءا في مهمة تقديم أو تأجيل موعد الساعة. لكل منهما

من العضلات ما تقوى على رفع فيل.. قاده إلى قاعة الاجتماعات التي كانت غاصة بالحضور. أجلساه في الصف الأمامي، بزيه الرسمي الطلي تحت أنظار الحاضرين. ثم صعد الرجلان السلم، ووقفا على المنصة يتوسطهما كرسي راحة وثير. وما هي إلا لحظات حتى دخلت لجنة تتكون من خمسة أشخاص بزي غربي رسمي يتوسطهم أحد آلهة "دأسز"، يؤمن حراستهم جند من الحرس الخاص.. سرعان ما افتتحت الجلسة، وأخذ الكلمة أوسط الخمسة: نحن نمسك بزمام العالم وليتراجع كل من تسول له نفسه أن يكون ندا لنا ويسوس له وهمه أن يمسك بطرف من عنانه، فهذا درس إنذاري لمن تسول له نفسه الوقوف في طريقنا. فهذا هو العالم يرتعد، ويخر ساجدا لنا وسيبقى كذلك على الدوام. فإذا كان العالم في ما مضى لم يسجد لنا فلقد آن الأوان أن يمارس القضاء، ويزيد عليه الكفارة، يقضي كل ما عليه، وعليه أن يبقى راکعا في الحاضر والمستقبل، بما فيه من أعداء وأصدقاء وحلفاء، لا فرق لهذا على ذاك إلا بالولاء والولاء التام، علما أننا لا نلتزم مع أحد منهم، قد نوليّه ظهرنا متى شئنا. ألسنا على حق؟... بلى... لم يهتم صمفس بل شرد يستعرض أشرطة البؤس والذل الذي عاناها في أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل وما زالت انعكاساتها ترخي بقتامة سوادها على حياته. يستعرض بؤسه جراء فصله عن عائلته، والآلام التي لحقت بزوجه وطفليه. يستعرض ألبوم تصوره لوضع عائلته التي لا يسمح له بالتفكير فيها. يستعرض الأشرطة التي كانت تعرض أمام عينيه جاءه قصد إنعاش نشاطه ومدّه بطاقة جديدة، وعلى رأس القائمة شريط يؤرخ لكل لحظة من

المدة التي قضتها حواء في أحضان "المجاهدين" الذين استمتعوا بجنسها واستمتعوا بتعذيب روحها. يؤرخ لآلامها ومعاناتها، إذ لم يكن الأزواج المتعاقبون على مر الساعة يكتفون بالمتعة الجنسية الطبيعية بل كانوا يستعينون في إيلاهم بأعضاء اصطناعية ذات أحجام أكبر من أن يستوعبها قبل أو دبر. فيعود القهقري بربرتواره حيث تلك الصبية المفعمة بالحياة التي تخلى عنها قسراً، وتمنى لو لم يهاجر، لو لم يلتق بـ "روز" ولم يتربّ في حضنها، لو رفض الرفقة التي اختارتها له، لو لم يؤمن بما آمنوا به. تمنى لو لم يتزوج حتى لا يعرض نسله لما تعرض له أبناؤه في مختلف الأحياء والديار...

يتذكر نسله واحداً واحداً كل يوم وكل ساعة وكل لحظة. كان لا يجزؤ على الحديث عنهم خشية مما قد يصيبهم من شر إن قرأوا ما يجول في قلبه من حنين... فجأة تذكر الوعيد الذي تلقاه على إثر انبهاره وسقوطه على الأرض وفشل تنفيذ عملية اغتيال أحد علماء السياسة والإجرام، الذي ألف كتاباً يفضح فيه نوايا مؤامرة "دأسز".

انهار الرجل، وفقد كل قدرة على الكلام والتفكير والسمع والحركة، كان يعتقد أن انصياعه للأوامر وتنفيذه للجرائم يحول دون وقوع ما لم يتوقع أن يصيب أبناؤه الخمسة. أما وقد اغتالوا ابنه البكر وفعلوا بحواء ما رأى فلا بد أن مكرهم قد لحق إخوانها وأميها.

كادت روحه أن تفيض، تمنى لو كان مكانها يتحمل عنها الألم، تتلوى روحه كما تتلوى الدودة في الوحل، أطرق وكأنه يتحاشى النظر إلى هذه الوحشية

التي تتمزق لها بشرة طفلة البريئة، والتي تزهق روح ابنه لا يطيق نفسه التي بررت آنذاك خذل أبنائه بالحرص على السمعة من جهة وتلافي شر "دأسز" بالدرجة الأولى، وكأنه لم يقرأ قول من قال: "فداء لأبنائهم وأوطانهم يموت الرجال". اتضح له جنبه وأنانيته وانتصبا واقفين وهو بينهما شأنه شأن كرة مضرب في مباراة النهاية. لعنة الأبناء ولعنة الأوطان معا. ظلال الصورة غزت الجهاز البصري والتصقت به، بل استوطنته، واستولت على مساحاته وفضاءاته وأبعاده. وسرت عبر الشرايين والشعيرات نحو أصغر خلية. ترى الرجل فقد التحكم في أعضائه، بطريقة آلية، يحرك رأسه يميناً وشمالاً كمن يرفض فكرة مزعجة تصر على شغل البال، يمسك بأصابعه ويعيد الضغط عليها حتى تسمع لها طقطقات دون أن ينتبه، يحرك شفثيه فتصدر أصواتا تعبر بتلقائية من خلف ستار الوعي على حال يرثى لصاحبها، يزفر كمدخنة فرن عال، وقوده إحساس بجحيم ذنب أبوة تقاعست عن أداء واجبها...

لم يعد من شروده إلا مع سماع اسمه يردده صدى القاعة الفسيحة الأرجاء، تحت تصنيفات الحاضرين. وكان الإله رئيس الجلسة يعدد إنجازات "صكوم" في ديار كعب. وإنجازات "صمو" في حي بني مالك ليفاجئ الجميع بأن كل تلك الإنجازات على حد تعبيره في الحقيقة كانت من إنجاز شخص واحد فقط إنه المهندس المقندر في قطاعات مختلفة أهمها البناء والبترو، والفلاحة... إنه صالح بن قويدر الموساوي، فليقف حتى يراه الجميع. تحت وابل التصنيفات لم يجد بدا من الوقوف. لما رأوا هندامه لم يستسغ الكثير منهم مظهره الذي لا يتماشى مع إنجازاته

لم تؤثر فيه هذه الإشادة في شيء، بل على العكس استغرقه الإحساس بالذنب. حسب قناعاته ليس الثناء عليه والإشادة بمناقبه سوى تمويه على من هم خارج القاعة، ريثما يحملونه على تنفيذ مشروع كارثة مرتقبة. تراه الآن يفكر في حجم المصيبة التي يعدون لها وفي من سيكون ضحيتها، ولن يكون الجنرال الذي يشرف على تنفيذ العملية على أرض الواقع أحدا غيره. فاجتماع الإله بأنصاف الآلهة لا يعقد عادة إلا إذا اشتد الأمر. لا بد أن هذا الثناء ليس إلا تمهيدا للزج بصاحبنا في مصيبة جديدة. بقي ينتظر أن ينادى عليه بقلب يكاد يغادر موضعه. لما نودي عليه قام من مكانه تحت تصفيقات الحاضرين صعد إلى المنصة بخطى متثاقلة، أمام هذا الجمع الغفير من أنصاف الآلهة المسؤولين في "دأسز". بدا عليه العياء وهو لا يقوى على النظر إلى صوره المعروضة على الشاشة. بقي واقفا، ينظر إلى الجموع وخلفه راية ليست راية رسمية ولا طللية لا تشترك مع لواءات بني طلل وبني عبد رسم إلا في البياض المزعوم. تقابله صور معلقة لأناس بلا عمامة أو عقال أو حتى كمة أو طربوش.. شعور بغربة تنخر كيانه. أقبلت نحوه ثلاث شقراوات، حاملات ثلاث صوان على كل صينية هدية لتكريم والذي على ما قدمه من خدمات جلى للبشرية! وقف إله "دأسز" حيا عبده المطيع بحرارة تنم على رضاه، وأحاط رقبته بقلادة تحمل درع "دأسز" (الدرع الأزرق السداسي الزوايا) ولا أحد غيره يحس أن رقبته أحيطت بحبل أنشودة على الدوام. أما الهدية الثانية فقام بتسليمها أحد أنصاف الإلهة، وهي عبارة عن صينية مستديرة عليها خريطة العالم الذي يسعى "دأسز" إلى السيطرة عليه، تتوسطه

رايته بلونيهـا الأبيـض والأزرق. وأما الهدية الثالثة فتمثال والدي، غير أن الغريب هو أن لا قفا لهذه للرأس ولا أذنين هي أربعة أوجه لوالدي... وعليه الآن أن يتقاعد، وعليه أن يلتزم بالتعليـمات المكتوبة التي زوده بها إله "دأسز" شخصيا. وقف الإله الأكبر من جديد قائلاً:

نظرا لما قدمه هذا الشخص من خدمات جلى لمنظمتنا العظيمة ارتأت أن تصنع له تمثالا بساحة الدم وسط عاصمة بلادنا المرتقبة، وارتأت اللجنة أن يكون للتمثال رؤوس أربعة بعدد أبرز الشخصيات التي تقمصها أثناء أداء مهامه. وعند موضع قدميه سينشر كتاب يحوي كل إنجازاته. لم يبق في القاعة ذرة صمت امتلأت عن آخرها بالتصفيقات والصفيـر.. كان آخر ما سمعه قبل أن يخرج على الأرض... تمدد، أحاط به من كان قريين منه، لكنهم سرعان ما افرنقوا من حوله لما شاهدوا جسده يطول ويعرض، لباسه يغدو خرقا ملقاة. وما زال جسده يكبر وأطرافه تطول...

ترعرع والدي "صكُوم" في عائلة تتكون من أب مهاجر، لا سلاح له غير ما حبته به الطبيعة من أمية، صقلتها السنين، ومن جهل، رعته ظروف ساقها إليه القدر متضافرة. حتى تلك الحرفة البسيطة التي تشرّبها والده (جدي) قبل هجرته لم تفده في شيء، ولو في إدراك وحدات القياس الحديثة، إذ كان الطول يذرع والعرض يشبر. ولج أروقة الحياة الغربية أعزل. في شوارع النور، يمشي في الظلام، على المرمر يتعثّر ويكبو بل يسقط. والحالة هذه لم

يكن له بد من البقاء بعيدا، يقبع في ضواحي الحياة، يعيش على هامشها راضيا مرضيا، تقتات روحه التي روضت جماعها على الكفاف من فتات المعرفة الساذجة، يلقطها من نفايات الفكر، ومن أخبار الجلسات، وما يدور من لغو في مجالس العمال، أو من عبارة طائشة من شفاه هذا أو ذاك، كل ما حباه الله به من طاقات، من حواس ومن عقل في عطلة طويلة الأمد، وتتجدد العطلة بكل تلقائية، ما علم قط بفن السمع ولا بقوة الملاحظة، ولا بملكة النقد، عبارة عن مادة خام في كهف مظلم، إذا قدر له أن يلج مخبر التحليلات الثقافية وجدت ثقافته لا تتجاوز أنساقها ما تسمح به الرسوم ولم يسمح لها أن تقفز خارج سور الأطلال. قد تعهدته عناكب الماضي بأنسجة علاها الغبار، لديه فقر شديد لطاقة الحاضر، أما المستقبل عنده غيب والغيب من أمر الله والتفكير فيه شرك به. هذه المزايا مجتمعة أهلته ليكون عاملا يقوم عمله على الجهد العضلي وحده. لقد حبته الطبيعة بجسد قوي زاد من قوته العمل المضني. وجدت فيه "روز" إحدى الفرنسيات الذكر المثالي، لما أنعمت به عليه الطبيعة من وسائل المعاشرة والمواقعة، أهلته أن تتخذ منه زوجا لها، بعد الحادثة التي أفقدته زوجته "ليلا" وابنته "مريم". ولم ينج معه سوى والدي صالح بن قدور المساوي "صكوم"، قبل أن يتغير ويصبح "صمو" صالح بن محمد الورتاسي ثم بعد ذلك وبدون حفل عقيقة أصبح اسم والدي "صمغ" الصلت بن معاذ الغافري، وهو الذي سيصبح من بعد "صمفس".

كان لحادثة المرور أثر بالغ على صحة جدّي إن على الجانب الجسدي وإن على المستوى النفسي. كان صديقه نضال الذي عرفه وهو ما يزال في ريعان شبابه قبل أن يتعرض للحادث بكثير، يزوره كثيرا ويطمئن عليه، ويسدي له كل ما كان يحتاجه من خدمات. لم يكن جدي يستفيد كثيرا من توجيهات صديقه، ربما لبعد المستويين عن بعضهما، قد كان ذهن جدي يقتات على كل ما يأتي من الماضي الشرقي في حين كان "نضال" لا يتغذى إلا على الطازج من الأفكار الحية. كان والدي "صكوم" أكثر حظا من أبيه، عاش محاطا من جهة بـ "روز" زوجة أبيه الفرنسية، ومن ثانية بـ "نضال" صديق والده الذي كان يرعاه ويرعى حقوقه. لا يبتعد عنهما إلا أوقات المدرسة، وأوقات النوم. بين نضال وروز، رسمت معالم حياته، الأول متشبع بالقيم المادية يؤمن بالفكر الأحمر، ساخط على الأنظمة المستبدّة، ناظم على الباترونا، ينادي بالتحرّر من ربقة الفكر الظلامي، همه تغيير نظام الكون وتحويل اتجاه دوران الأرض وإعادتها إلى مسارها الصحيح، قناعته أكيدة ولا رب للوجود غير المادة ...

أما "روز" التي كانت تعاني من العزلة، قبل أن تلتقي بجدي "قويدر"، فقد أضحت حسب ادعائها وحسب تنقلاتها فاعلة جمعية، حصدت العديد من شواهد التقدير ومن الجوائز. تظهر خلاف ما تضرمر. تحظى بتقدير أنصاف الآلهة، لها مكائنها عند أتباع "دأسز" أحالتها ظروف حياتها الجديدة ممثلة بارعة تظهر للمحيط الذي تعيش فيه عكس ما تضرمر، تتقن التمثيل، تحيل الظلام نورا، لها قدرة على تحويل اللجنة جحيما وقدرة موازية على تحويل

الحجيم جنات. سيرة عادية لا شواهد عالية ولا دبلومات غير أنها كانت تسافر بين العواصم الأوروبية بحكم الأنشطة التي تمارسها كما تزعم في محيطها، تحمل حقيبتها مساء يوم الجمعة لتعود متأخرة ليلة الإثنين.

في محيطه هذا فتح "صكوم" عينيه. تكفلت "روز" بالإشراف على تربيته. كان حلم الوالد أن يحظى ابنه بفرصة التعلم وتبوء مكانة اجتماعية يشار إليه بالبنان بكنيته "ابن قويدر" وكانت روز تطمئن أن ابنه سيكون عضوا فعالا، لا في مجتمعه فحسب بل في العالم ككل، شريطة أن لا يتدخل هو في تربيته وتوجيهه إلا في حدود تخصصه. تدرج صالح في أقسام المدرسة الفرنسية منذ أن وفد عليها. يكبر زملاءه في الصف بأكثر من سنتين خطأ عدم إلمامه بلغة البلد نتيجة عدم تدرسه في حيه الأصلي لظروف بُعد المدرسة مسافة.. لم يكن متفوقا، كانت "روز" تدعمه، ترتق نقائصه وتسرع تقدمه في تعلم اللغة، تزج به بين الصبيان الفرنسيين في الأماكن الخاصة بهم، حتى يحدثونه ويحدثهم، ويتعلم منهم. كانت تصحبه كلما أتاحت الفرصة في زيارتها لصديقاتها وأصدقائها وإلى مقرات المنظمات والجمعيات التي تنشط فيها، فتعرف "صالح" على العديد من المنظمات ونشط تحت ألويتها ولم يدر أنه لن يكون سوى حجر على رقعة الشطرنج. ظلت "روز" تحضنه بأفكارها وتوجهاتها يستظهر في حضرته ما لقتته من دروس إلى أن تخرج مهندسا، ونشط في حقل العمل وكان محاطا بزمرة من الأصدقاء، يقضي معهم معظم أوقات فراغه، يقيمون السهرات وينظمون السفرات يستمتعون بما

تقدمه لهم الحياة. كان أصدقاؤه منذ أيام المدرسة يختزلون اسمه الثلاثي "صالح بن كويدر الموساوي" (تعسف فرنسي على القاف، كويدر= كويدر) في "صكوم".

بعد ليلة عطلة نهاية الأسبوع، قضاها "صكوم" رفقة ثلة من أصدقائه، إناثا وذكورا، في طريق العودة إلى البيت، أصيبت سيارته بأزمة محركة مفاجئة، وأبى المحرك أن يستجيب للصدمات الكهربائية حتى كادت البطارية أن تستنفذ طاقتها. فكَّ جسمه من حزام الأمان، بذل جهدا في إيجاد صاحب غطاء المحرك اليدوي، جراء تلاعب المخدر بدماعه. حمل نفسه على الخروج من السيارة، وكأنه يحتاج إلى قوة خارجية تساعد على سحب كتلته خارج علبة السيارة. بعد جهد جهيد، رفع الغطاء، رفع القضيب المعدني المعقوف يحاول إدخاله في الخرم لتثبيت الغطاء، خانة التركيز، لم يفلح إلا بعد محاولات متكررة، ثبته في وقت قياسي وأخذ ينظر إلى المحرك نظرة من لا يرى شيئا، أو يرى الأجزاء قطعة واحدة، قبل أن يسدل الغطاء بعنف. مرت بذهنه فكرة طلب إسعاف السيارات، تغاضى عنها مقررًا أن يطلب طاكسي ويترك عربته حيث هي. أدخل يده في جيب سترته بحثا على هاتفه دون أن يعثر عليه. فتح بوابة السيارة من جديد يعتزم شحن جسده فيها تحاشيا لبرودة الصباح دون أن يتنبه لسيدة نزلت من سيارة فارهة، ما كاد يستيقظ على عطرها السافر حتى لَفَّتْه في صوتها الساحر تسأله هل بإمكانها مساعدته، لحن ملائكي نسخ سكره ليدخله في سكر من نوع ثان، فانقاد دون شرط أو قيد، حال سكره دون أن يسأل.. شحنته في سيارتها وانطلقت به إلى حيث لا يعلم...

زوال اليوم نفسه استيقظ على المين فظيعين، ألم بالرأس، وكأن شهبا يخرقه
أفقيا في كلا الاتجاهين، وألم مثناة امتلأت حتى كادت تنفجر. نظر من حوله
وهو لا يقوى على رفع رأسه إلا بجهد... غرفة ليست غرفة نومه، عبرت
ذهنه فكرة أنها غرفة مشفى.. استدرك بسرعة لما انتبه إلى السرير العريض،
وغلالة حمراء أرق من نسمة الصباح ملقاة على فراش فقد توضييه وكأنه كان
مضمار صراع. تبادر إلى ذهنه أنها غرفة فندق، انتبه إلى نفسه لقد كان عاري
الصدر إلا مما يغطيه من شعر يحتل منه مساحة كبيرة، يستر أسفله غطاء
من حرير يضاهي الحضن نعومة. صمت رهيب يخيم، اللهم حفيف نسيم
يحتك بستارة الشباك الشفيفة بين الفينة والأخرى. قام متفضا، لف نصفه
السفلي في الإزار، أطل من الشباك، منظر مسبح علت ماء أوراق خريف
تطفو في غير تعب، حوله مساحة من العشب الأخضر اختلط لونه بصفرة
أوراق تحت أشجار باسقة الطول، يُسمع لها أنين ثكلى تبكي فراق أوراقها.
ليس فندقا. أصيب "صكوم" بدوار كاد يسقط أرضا لكنه استطاع أن يبلغ
السرير، أحس بغثيان، قام متثاقلا مشى متكئا على الحائط يلتمس طريقه إلى
دورة المياه، ما عثر عليها إلا بصعوبة... ترى لمن الأسبقية، الإفراغ المثناة أم
لإفراغ المعدة أم يتم إفراغهما معا في المكان والزمان نفسييهما؟ أعتقد أن المثناة
كانت صبوراً واستعانت بتمددتها. أدلى برأسه في المرحاض ليفرغ أحشاءه،
يبدل كل قواه حتى يتخلص عبثا مما يثير غثيانه... أحس وكأن أمعاءه تحترق
الغشاء الفاصل بين محتوى البطن ومحتوى الصدر معلنة عدم تحملها. لم يقو
على البقاء راكعا فهو ساجدا على ركبتيه ورأسه لا يغادر البالوعة، مر من

الوقت ما لم ينتبه له قبل أن يحس بالقليل من الراحة مكتته من التفكير في أخذ حمام ساخن، ضغط على الزر وفتح صنوبر الحمام لم ينتظر حتى يمتلئ الحوض، بل علق الرشاش وجلس تحته يستطيب وقع الماء الدافئ على جسده المنهك. ارتدى منشفة كانت معلقة تغطي رأسه وتهوي إلى مستوى ركبتيه وعاد إلى الغرفة. استلقى على السرير ينظر إلى السقف، يحصي عدد المصابيح المثبتة عليه، استرعى انتباهه مصابيح ثلاثة لا تشبه الأغلبية، وكانت قريبة من الزوايا على شكل مثلث. وهو يبحث عن ملابسه عشر على قصاصة من ورق كتب عليها "شكرا لك لقد كنت رائعا". أنزل القصاصة مقلوبة بعد أن دون عليها رقم هاتفه الخاص. لا يذكر شيئا من موضوع الشكر، كل ما استطاعت ذاكرته أن تحفظه هو حسن المرأة التي أقلته ورخامة صوتها. أما ما بعد ذلك فلا علم له بشيء منه. ارتدى ملابسه شارد الذهن يفكر في ما حدث ولماذا يحدث معه. ومضى يتفحص المكان، فإذا هو فيلا عتيقة يوحى منظرها الخارجي أنها مهجورة... وجد سيارته في مخرج السكن قريبة من الباب، لا بد أن الحسنة التي أقلته كفلت مساعدتها بإصلاحها.. أدار محركها، نظر من حوله لف حول السيارة أوقف حركة المحرك وعاد من جديد يطوف بالبيت لعله يجد أحدا لكن لا حياة في الجوار. عاد إلى السيارة أدار المحرك، وضع رأسه على المقود لحظات قبل أن يرفعه وينطلق...

كانت زوجة أبيه "روز" تساعد على منح كائنات ذهنه إجازة قصيرة، لتستغله جنسيا حتى جعلت منه عشيقا، في غياب فعالية زوجها الذي

تقاعد قبل السن القانوني. خلال الإشراف على تربيته، عملت على هندسة دماغه، وفق ما يخدم برنامجها، بل برنامج المنظمة التي تنشط لصالحها. هيات له من حيث لا يعلم بطانة من الشباب ذكورا وإناثا يتمون لجماعة، تنشط تحت اللواء نفسه الذي تنشط فيه، يستمتعون بما تقدمه الحياة الباريسية من ملذات، وهم بمهمتهم عارفون ولها مستعدون وفي إتقانها الغالي والنفيس يبذلون...

ذات ليلة في بيت بضیعة بضواحي باريس لإحدى رفيقاتهم تدعى "مارغريت" تنحدر من أسرة جد ثرية، يقع وسط جنة جرت أنهارها ليلتها خمرًا، وفاحت حورها شبقًا، وتهادت جُمعًا، تراكمت الأجساد العارية في ممراتها وعلى أعشابها، بمناسبة احتفال "مارغريت" بعيد ميلادها الخامس والعشرين، أفرط حفيد "لفقير موسى" في الشرب، حيثما ولى وجهه، وقبل أن تفرغ كأسه يجد أمامه نادلا يناوله كأسًا مترعة، تسقي الدماغ خذرا وكأن مهمة النادلين ليلتها انصبت على طرد وعي الرجل بعيدا، ودفعه للتصرف العفوي في غياب رقابة الوعي..

في اليوم الموالي، استيقظت باريس على خبر انفجار سيارة ملغومة قرب السفارة البولندية. لم يستيقظ "صكوم" يومها من نومه إلا مع غروب الشمس، بألم فظيع على مستوى ساقه. وجد الجماعة تطرق باب الغرفة التي تحتويه بالقصر. وهو نصف نائم، شغل أصدقاؤه جهاز الفيديو فإذا بهم يتفرجون على "صكوم" وهو يضغط على زر أداة تحكم في يده اليمنى.. ويقع

على الأرض، ليسرع نحو ثلاثة من أصدقائه ينقلونه إلى سيارة عبارة عن "ميني باص" ويلوذوا بالفرار . كلهم كانوا ملثمين إلا هو فقد ظل سافر الوجه.

صدم بالمشهد، ما فكر يوما ولا مر بباله أن يقوم بعمل إجرامي. ولا يذكر أنه خطط مع أصدقائه، أو تتدارس معهم حرق السفارة بأية طريقة، وليس لديه أي دافع لارتكاب هذا الفعل...

- انتظروا، اشرحوا لي ماذا حدث ومتى كان ذلك؟ ومن أين لكم بهذا التسجيل؟ أي..أي.. ما الذي أصاب ساقِي؟ ساقِي تؤلمني.

- مع كامل الأسف هذا ما حدث ليلة أمس، أما الشريط فوصلنا من جهة مجهولة. لم تكشف على هويتها.

- ما هذه المهزلة السخيفة؟ لا بد أنها عصابة ابتزاز، لبوا مطلبهم، وارتاحوا منهم، قبل أن تتعقد الأمور، رغم أنني لست مصدقا لما بين أيديكم. ما يقلقني هو تأكيدكم من أنكم الفاعلون. أما أنا فمتأكد أنني لم أشارك في ما تزعمون.

- نحن متورطون أنظر إلى ساقك، أتذكر أيضا أنها ليست الشظية التي انطلقت شاردة في اتجاهك لولا حسن حظك لكنت مستقرة في عظم ساقك؟ ستجر علينا ويلا لم نعد له أي حساب، كيف سمحت لنفسك بإزالة غطاء وجهك أيها المورو...؟

- حبذا لو كانت أصابتنى فى صميم القلب.. كيف أقحمتونى فى هذه المصيبة؟ لم أسمع، بل لم يخطر للحظة على بالى أنكم تخططون لعمل إجرامى، لسنا عصابة شر، نحن نشيطون فى الحياة العملية ونساهم فى تنمية البلاد، فكيف أنخرط فى عمل كهذا؟ لا لست أنا لا بد أن شخصا غيرى من فعل، لا يمكننى أن أجهز على ذبابة فكيف لى أن أفجر سيارة أو أحرق سفارة؟ لا أصدق شيئا مما يحدث.

بدأ صكوم يشك فى المجموعة من حوله، لكن فى ما ينفعه الشك مادام متورطا.. تبادر إلى ذهنه أن يسلم نفسه ويورط الجماعة قد ينجو، لكن كيف وقد فجر السيارة لتشب النار فى مبنى السفارة؟

- لا فائدة من النحيب، الواقع كما ترى وتشاهد.

عاش صكوم قلقا ما عاش كسرا منه من قبل، تلازمه تعاسة يتلوها وجهه جهرا، تصفها خطاه، تترجمها حركات لا إرادية تصدر عنه. كانت "روز" تنتظر أن يأتىها منكسرا، وتظاهرت بعدم الملاحظة وبعدم الاكتراث. لم يستطع أن يتحمل، فهو إطار معروف. من أول نظرة تلقيها الشرطة على الفيديو ستصل إليه دون صعوبة. أضحى فريسة لكوابيس اليقظة قبل كوابيس النوم. ولم يجد بدا أن يخبر "روز".

تصنعت حالة من نزل عليها الخبر نزول الصاعقة. أخذت تعبر البيت جيئة وذهابا، تقبض يمينها على رأسها تارة وعلى أسفل ذقنها أخرى، تحرك

رأسها كمن يرفض أمرا. تعود إليه قائلة أطمئن سأجد لك حلا يخرجك من هذا المأزق.

كانت "روز" قبل أن تنجرف وتتنمي إلى "دأسز"، تعيش كباقي المواطنين تؤدي وظيفة عملها تنعم بحياة هادئة. كانت الوحدة رفيقتها وكلبها أنيسها قبل أن تلتقي بـ"قويدر" العامل المهاجر الوافد على باريس من وراء البحر، الذي اتخذت منه عشيقا ملأ عليها فراغها الجسدي... رقت لحاله ولحال ابنه، وأشرفت على رعاية ابنه الذي فجع في والدته وهو في أمس الحاجة إلى عطفها وحنائها. غير أن مع مرور الأيام انتبهت "روز" أن الحياة الزوجية تستدعي أمورا أكثر قيمة من الجسد بكثير، الشيء الذي لا يمكن لـ"قويدر" أن يمنحه لها. وأخذت تبحث عنه خارج مؤسسة الزواج. انخرطت في جمعيات ومنظمات تفر إليها من الفراغ النفسي والروحي ساعية لتحقيق ذاتها.

لم يستطع "صكوم" أن يذهب للعمل، ولا استطاع البقاء في البيت، وفي وقت قياسي جاءته "روز" بجواز سفر يحمل اسم "صمو" (صالح بن محمد الورطاسي) وكذا جاءت شواهد الدراسة والمهنية وأوراقه الإدارية حاملة هذا الاسم بشكل لا يدع مجالا للشك. وعاد إلى حيه. وتدبرت أمر اجتيازه الحدود بسلام.. حج إلى حيه الأصلي وهو على يقين أنه غدا في منأى عن كل شبهة، وسيحاول الاستقرار في ربع من ربوع حيه الأصلي، غير منشأ والده، احتراسا وزيادة في الحيلة والحذر.

في حي مالك الأشعري، لم يجد "صمو" صعوبة في إيجاد عمل، كما لم يكن أمر الحصول على رخصة فتح مكتب خاص به لاحقاً عسيراً... تزوج من فتاة ظهرت في مقدمة الحركات الطلابية في الحي، تنحدر من عائلة معدمة.. أقنعها بالبقاء في البيت والتفرغ له، مادام معه من المال ما يغطي المصاريف، وأن مهنته تدر عليه من حيث لا يحتسب.. في وقت قياسي أنتجت علاقتهما صبية وطفلاً...

رحل الزوج "صمو" فجأة، مدعياً التزامات العمل التي لا ترحم.. طال غيابه خارج حي مالك الأشعري، كان في بداية الأمر يربط المكالمات مع زوجته، ولا يستقبلها منها، ولما تعاتبه زوجته "نجاه"، كان يجد أعذاراً... بعد فترة انقطع التواصل، لم يعد يتصل بها لم يعد يسأل على صغيره... عاشت أوقاتاً عصيبة، فريسة للحيرة...

لم تكن "نجاه" أهلت نفسها لمثل هذا الظرف، تبعات الحدث حمل ثقيل، لم تفكر من قبل في الاستعداد له. اليوم تستفيق من غيبوبتها، لقد أنهكت كل مدخراتها في غياب أي إمداد من طرف زوجها الذي ابتلعه الأرض. وجدت نفسها عاجزة على أداء واجب الكراء، بل عاجزة على سد متطلبات الحياة الأساسية في غياب زوج لا تعرف ما الذي أصابه، تحلى عن مسؤولياته تجاه عائلته. وفي غياب طريق توصلها إلى بر الأمان، التجأت لحضن والدها

المعوز الذي يعجز جيبه أن يسع ثلاثة بطون إضافية أمام تدهور صحته، وقلة فرص الشغل؛ بعد صلاة الفجر يلتحق بـ "الموقف"^(١)، وقد يحصل على أجر يوم، وقد يعود خاوي الوفاض. أعيائها السعي لدى الإدارات قد تدلها على بصيص أمل، وبالموازاة خرجت للبحث عن عمل تعول صغيرها. رغم شهادتها التعليمية المحترمة كان طلبها يُرفض أو يلقي في سلة المهملات. في غمرة الوعود وطول الانتظار، ضاق بها الحال وحاصرتها الحاجة التي لا ترحم، وأحاطت بها من كل جانب، وفي كل يوم يشتد حولها الخناق أكثر.. تحولت من قائدة ترفع الشعارات وتواجه السلطات وتزرع الأمل في النفوس إلى ربة بيت، زوجة مهندس أعجب بشخصيتها النضالية خارج الحياة الزوجية أما داخلها فخشي منها على نفسه أن تسأله من حين لآخر عن دراسته وشواهد وأنشطته... تغيرت حياتها بسرعة كبيرة من طالبة مناضلة، إلى زوجة مهندس تنعم بالحياة، إلى يأس يمشي على الأرض. لم تعد تفهم شيئاً مما يجري حولها. من أصدقائها القلائل لم يعد لها أحد، من بعيد تسافر تعليقات حول وضعها ومصيرها: "ظلمها القدر إذ سجل اسمها في اللائحة السوداء، وربما كان ما آل إليه وضعها من إملاء "أهل الحال" .. أمام بؤسها، الذي تطوره الأيام وترفعه درجات وأمام تضور صغيرها إلى درجة أضحت سحنتها أقل من عمرهما، قبلت وظيفة في أحد البيوت، تشرف على رعاية

(١) (مكان تجمع العمال في انتظار من يحتاج ليد عاملة من أرباب الورشات أو أرباب الضياع والحقول).

امراة عجوز. سقيمة، ما يزال أثر الحسن مرتسما على محياها، وآثار النعمة بادية عليها، استحوذ أبنائها على أموالها وممتلكاتها، وإقطاعها عن طريق الحجر عليها. فقدت على إثر ذلك حركتها، وصوتها...

صغيران، "آدم" و"حواء"، هامت بهما على وجهها في غياب قوة الحق، وقيم التضامن، واختفاء أسباب الكرامة الإنسانية؛ فمن جهة، وضعها في محيطها لا يسمح لها برفع دعوى ضد زوجها، ومن أخرى لا أثر لعمّر في مجتمع ظل قاضيه دائما طرفا في القضية ما لم يكن المدعي مريدا له.. ارتمت بهما في أحضان فقر، ألقي بها في وظيفة لا تدر عليها ما يكفيها لتجاوز أعباء حياة، قست عليها حتى باتت تتشبث بالقذى تأمل فيه منجاة...

كانت تعتني بالعجوز، في بيت ابنها الذي يشغل منصبا ساميا، زوجته تشتغل في حقل التعليم، لكنها لم تلتحق يوما بمقر عملها، بل لا تعرف موقعه ولا الطريق المؤدي إليه. بل كان محضر الدخول يأتيها طائعا إلى غاية البيت لتوقعه في بداية السنة الدراسية، وكذلك كان يفعل محضر الخروج مع نهاية السنة الدراسية. تتوصل بأجرها من المال العام قبل نهاية كل شهر. تقضي وقتها مع الصديقات والأصدقاء وفي الرحلات الجماعية التي تنظمها جهات ريفية المستوى، تمارس السياحة الداخلية والخارجية...

اشتغلت نجاة في بيت هذه العائلة ما يقرب من ثلاث سنوات، كانت من حين لآخر تضطر لأن يرافقها صغيرها إلى مقر عملها، كان طفلا في الثالثة من عمره، صبح الوجه، وكأن عليه أمارة النباهة، كانت السيدة تلاعبه

في حديقة البيت لما تكون في عطلة من السياحة، تهديه من حين لآخر لعباً وملابس، حتى أضحت تطلب من نجاة أن تصحبه، وكانت الأم ترتاح لهذا، لكون ابنها يظل بجانبها ومحاطاً بالرعاية التي حرّمه منها أبوه... لم تعد للا الغالية قادرة على بعد آدم عنها كانت تلمح لنجاة أن آدم سيحقق مستقبلاً زاهراً، وكانت تناديه "ابني". لم تكن نجاة تعلم أن العائلة بحكم منصب الزوج مدعوة للرحيل إلى اتجاه آخر، وكانت قد واعدت للا الغالية على أن تدع لها آدم لتتبناه ظناً منها أن العائلة المشغلة ستظل بالمدينة ولن تغادرها..

دعتها العائلة لمرافقتها للعيش معها إلى جانب ابنها وتنعم برؤيته يكبر إلى جانبها في بحبوحة من العز، حرن عقلها لم يستطع التفكير، كانت لما تسأل من طرف مشغلتها تجيب بالإثبات، باتت ليالي طوالاً على القضيض.

- لن تقبل العائلة بابنتي وحتى مع افتراض قبولها ماذا عن مصير والدي اللذين أصبحا مسؤوليتي المادية، خاصة بعد عجز والدي عن العمل، أتكفي أجرتي مصاريفي ومصاريف ابنتي هناك ومصاريف والدي هنا؟ وبعد هل أبقى إلى جانب والدي وابني بعيد عني؟ يا إلهي اليوم فقط التجئ إليك في تيسير أمري، لا أطلب أن ترزقني إلا سداد الرأي، وحسن التفكير، وحسبة توفيق بين اعتنائي بصغيري واعتنائي بوالدي... بعد موافقتها على مرافقة العائلة على أن تترك الطفلة مع جديها؛ عادت لتنقض العهد. لكن المشغلة ظلت حريصة على اصطحاب آدم، سخرت كل طاقاتها لتطمئن نجاة على مستقبل ابنها، واعدتها أن ترسل لها من حين لآخر بعض المال وتذكّره سفر

لزيارة ابنها كما واعدتها أن تحمله إليها من حين لآخر حتى تذهب وحشتها. كانت السيدة قد وقعت شيكا باسم نجاة كتعويض لها على ما قدمته لها من خدمات إن لم يكن ثمن كفكفة دموعها على فراق ابنها... عادت نجاة في اليوم الموالي وقد اتخذت قرارا حاسما، سألت المشغلة عن المبلغ الذي تنوي أن تبعث لها به في ظرف سنة، بعد إجابة السيدة، سألتها:

- هل تضيفين هذا المبلغ لأجرتي مقسما على شهور السنة؟

أجابت السيدة:

- بكل تأكيد.

- إذن اعتبريني من الآن مسافرة معك، سأستأجر غرفة أسكنها مع ابنتي وأستطيع أن أمد والدي ببعض المال على رأس كل شهر..

سافرت وهي تعلم أن العائلة لا تستقر في مدينة أكثر من أربع سنوات...

الفصل العاشر

كانت "حواء" على موعد تسليم البضاعة... في الصباح الباكر اتصل عميلها في الخارج... اتفقا على وقت التسليم والاستلام بالثانية... زيادة في الحرص والاطمئنان اتصلت بمموليها، طمأنوها على البضاعة، وأكدت معهم موعد الاستلام... انتقل ساعدها الأيمن لمعاينة البضاعة... حضرت شاحنة نقل دولي معبأة بالحوامض، دخلت مستودعا عملاقا حيث توجد صناديق بنفس لون وحجم وعلامة الصناديق التي تحملها، ثم إنزال عدد كبير من الصناديق المحملة على متن الشاحنة، وتم تعويضها بالتي كانت في الانتظار. يبلغ وزن ما تم شحنه خمسة أطنان.

- أخبرني بالتفاصيل...

- تم تسليم البضاعة واستلام المال دون لفت أي انتباه...

نزلت حواء من الباب الخلفي لسيارة سوداء اللون، رباعية الدفع، حديثة الصنع، بدت فتاة في ريعان شبابها، قامة فارعة، بخصر رقيق وأرداف مكتنزة وصدر نافر، وخذ أسيل، وعينين حوراوين، جمال وجه من صنع يد مبدعة، غطت مواد التجميل ما حفرت عليه الأيام من أخاديد، وما تركه المرض عليه من آثار. غير أن رشاقة قوامها، بل العناية الفائقة بمحياها لن يستطيعا محو آثار ما أحدثته صروف الدهر ونوائبه في النفس من شروخ.. تمشي بخطى ثابتة، كلما مرت بجانب أحدهم، وقف وألقى التحية مع نوع من الإطراق يبعث على الاستفهام: أهو مجرد احترام وتقدير للمشغل أم خوف أم حرص على المنصب وراتبه المغري؟... مستخدمون كلهم من جنس الذكور ملتحنون، كلهم كتلة من العضلات المفتولة.. ضغط أحدهم على الزر، انفتح الباب ركبت المصعد، ضغط على الرقم سبعة دون أن يركب إلى جانبها، شرع الباب في الانغلاق وشرع الرجل يتسلق السلم. لما انفتح باب المصعد كان الرجل واقفا يداري أنفاسه، سبقها نحو الباب. في انحناءة، وضع يده على المقبض، دخل خلفها وجرى نحو النافذة يفتحها ويعدل ستائرهما، اتجهت نحو الشباك، نظرت إلى أبعد مدى حيث التقت زرقة البحر بزرقة السماء، أخذت نفسا عميقا، ثم زفرت كأنها تفرغ حولة، تثقل كاهلها منذ عهد بعيد. جلست جلسة شريري أفلام "الوسترن". عجيزتها على الكرسي وساقاها ممددان على المكتب يحمل أحدهما الآخر، وكعب حذاءها موجه كإصبع الوسطى إلى كل من دخل عليها. على مكتبها العريض المصقول، سبع سماعات بسبعة خطوط، توحى للزائر بعظمة المكان وعظمة العمل الذي لا يتوقف..

رن الخليوي، سحبته، نظرت إلى شاشته، رفعتة إلى مستوى أذنها، أنصت لحظات، وقالت: اطلبني على... نادت على أحدهم، نظرت إليه. نبس: هل كالعادة سيدتي؟... ما كاد يغلق الباب خلفه حتى عاد، مدها بورقة مطوية، قرأتها وأحرقتها على مطفأة السجائر... رن المحمول في أناة ودون اكتراث انتظرت وقتا قد يكون طالها فقد كل صبره... رفعت التلفون إلى مستوى الأذن... وقفت فجأة زفرت وأردفت: وأخيرا.

- أين؟... أعرف المكان... المرفأ القديم... أجل... هل البضاعة جاهزة؟
...كم؟...

وضعت إصبعها على زر الجرس، فدخل أحدهم:

- جهزوا السيارة، وانتظروا.

وهي تنهياً لتسحب الباب من الداخل، فتحه أحدهم من الخارج يحمل إليها الفطور، وقع تصادم طفيف هرق بعضا من اللبن على حذائها الأسود... انحنى الرجل، وبمحرمة وردية تدلت من فمه لحس الحذاء وجففه بلحيته - واللحية أول شرط ينبغي أن يتوفر في كل مرشح، ذكر للعمل ضمن طاقمها، أما الإناث فأول شرط لقبولهن هو السفور - وهي تنظر إليه شزرا، تستعرض من خلاله أزواجهها. ما اعتدل ولا استقام إلا بأمر منها، ومد تلقائيا خده، ليتلقى صفعة...

عادت من الموعد إلى المكتب، تنفست الصعداء.. ألفت بمعطفها كيفما

اتفق.. ركبت رقما، أصدرت أمرا.. استلقت على كنبه، مدت ساقيهما العاريتين على ذراعه، وكأنها تسهل الدورة الدموية، وضعت يديها تحت قفاها وراحت تنظر إلى السقف...، ضغطت على زر الجرس المثبت على المكتب... دخل ماسح الحذاء... أشارت نحو خزانة خلفها، أخرج زجاجة فوق صينية بيضوية الشكل إلى جانبها كأس يتيمة... صب من الزجاجة قليلا من السائل ثم اتجه نحو ثلاجة مثبتة في جدار، أخرج الثلج، بملقط وضع بعض القطع في الكأس ثم ركض إلى خزانة، سحب سوطا وجاء به إليها، وجرى نحو الباب أحكم إغلاقه ثم انحنى على الطاولة بعد أن خفض سرواله إلى مستوى الركب. قامت الرئيسة، مخلفة إياه على نفس الوضع، واتجهت نحو الشباك المطل على البحر، أطالت النظر إلى البحر وكأنها تتحداه كما تحدتها طفولتها وشبابها. التفتت المرأة فجأة وكأنها تذكرت أمرا ما، فاجأها الرجل ماسح الحذاء وقد سقط سرواله إلى مستوى قدميه، يحمل الصينية على كف يده اليمنى، أما اليسرى فخلف ظهره المنحني انحناءة عبد، وآثار السوط بادية على مؤخرته، أمرته بالانبطاح على ظهره، لتشغل موسيقى السوط وعلى إيقاعها بطريقة "زورو" تحاول أن تتمرن على رسم حرف الحاء على أسفل بطنه.

قضت الأمسية في المكتب.. وبعد الدوام بقيت تنتظر أحدهم... بعد انصراف كل المستخدمين، أغلقت المكتب، أخرجت الزجاجة من الخزانة ومن البراد سطل الثلج، وراحت تقول وداعا رشدي، الليلة يحق لي أن أرى

الإنسان دولارا.. أنا من قهرت الزمان فانزاح عن مساري... أنا من على
صباي الدهر جار... رفعت صوت الجهاز وقامت ترقص على إيقاع غربي...
نظرت إلى المحمول: خمس نداءات!

أسرعت بإجراء اتصال... وبعد بضع دقائق فتحت الباب ليدخل رجل في
غاية الأناقة.. اندفع وجهه نحو خدها، أبعدت رأسها إلى الخلف وهي تقول:
- تفوح منك رائحة نتنة.

- أمدح هذا أم ذم؟ أم غزل حديث؟

- اسمع يا هذا لقد رأيت من الرجال ما لا يمكنك أن تتصور كلهم
وبدون استثناء لا يطاقون، وليكن في علمك أن كل من يدنو من سور
حديثي محبوب لا محالة.

تراجع الرجل خطى معنوية إلى الخلف وقال:

- لدي خمسة مشاريع مدرة.

- كان عليك أن تتحدث "بزنس" منذ الوهلة الأولى... لا بد أنك تمزح،
كيف تفوز أنت بخمسة مشاريع في زحمة السوق، قل كلاما غير هذا ولا
تحاول أن تهين ذكائي مرة أخرى، اجمع أبعاضك واغرب عن وجهي.

- لحظة من فضلك.

- قل بسرعة، ولا تعكر مزاجي أكثر ألا ترى أنني أحاول أن أعيد له

توازنه.

- جئتكم بمشروع استثمار جاهز وبكل الضمانات، مشروع السكن الاجتماعي. ما عليكم إلا فتح وكالة عقارية وسط المدينة، يؤثث بمكتب أو مكتبين وجهازين إعلاميين وخزانة، وعلى كل مكتب ثلاث سماعات تلفون وأثاث براق، يبهر الزبناء... وطاقم بشري يشترط فيه الأناقة وبلاغة الإقناع... وخارج المكتب فتيات، لتوزيع البطاقات الإشهارية في الأحياء الهامشية ونساء من الأحياء يعملن على تشجيع الناس للإقبال على اقتناء سكنهم الخاص وإقناعهم بذلك. وبقدر سخائكم معهن تكون المردودية.. لا يريد أولياء النعمة أن تخلفوا وراءكم أثرا يدل عليهم أو يقود إليهم، فأنتم شركة محترمة تشتغل وفق القانون، وبالتالي لن تسمحوا بما قد يسيء لسمعتكم في السوق.

كان لا بد لها من موعد مع بعض القامات الطوال في البلاد، والأأيادي النافذة. كان عددهم ستة وهي سابعتهم، تداولوا المشروع من جميع جوانبه بدءا بالغلاف الزمني لإنجاز المشروع... نوقشت الأسعار وروعي فيها مستوى القدرة الشرائية عفوا الاستدراجية، حدد سقف ثمن الشقة في مائة وخمسين ألف وحدة نقدية، والدفعة الأولى لا تقل عن عشرين ألف، حتى يستهوي العرض أكبر عدد من الضحايا. كما نص الاتفاق أن تكون الاستفادة من المشروع للفقراء والمعوزين والأرامل وحدهم.

خلف مكتب مصقول، يجلس رجل في منتصف العمر، يرتدي بذلة سوداء

يضع رابطة عنق حمراء قانية، يكاد طولها لا يتجاوز طول لحيته، يبدو للناس منشغلا في ركام من الأوراق.. وإلى جانبه فتاة في ريعان الشباب، منشغلة تتحدث إلى أحد الزبائن وعلى كرسي مقابل، تنتظر امرأة تحمل رضيعا بين يديها وآخر يلعب إلى جانبها، في حين يقف رجل أمام الشابة، ينظر إلى جيبتها أكثر مما ينتبه إلى ما يجري من حوله.

- تفضل يا سيدي، هل من خدمة؟

- أريد أن أحجز سكنا..

- هل أحضرت كل الأوراق المتعلقة بملف الطلب؟

- ها هو ذا.

أخذت تقلب الأوراق، طوت الملف، وقالت ينقصك "شهادة الاحتياج".

بصره غارق في الفج أما ذهنه فحملة رفقة صاحبة الجيب في نزهة جسدية، لم يستيقظ إلا على صوتها يناديه: سيدي، سيدي "الرجوع لله"، لا يدري ما تفوه به:

- هل الحمام جاهز؟

- استيقظ عن أي حمام تتحدث؟ قلت لك ملفك ناقص، لا بد لك من شهادة تثبت أنك من المحتاجين.

- أهى ضرورة إلى هذا الحد؟

- أجل سيدي لكي تستفيد من الدعم الذي تقدمه وزارة الإسكان

مساعدة للفقراء.

- ألا يمكن أن تقبلي الملف حتى أوافيكم بالشهادة.

- لحظة، أعرض الملف على المسؤول.

خطت ثلاث خطوات، همست للمسؤول، وأوما لها أن تلتحق بمكتبها، أخذ يتصفح الملف، وهو يقول في سره: هذا هو النوع المستهدف.. رفع بصره الذي ظل مطرقا ونادى باسم الرجل، هم واقفا يحمل الملف في يده دون إنزاله...

- ملفك ناقص "ألشي بوزنك" ضروري أن يحتوي على شهادة الاحتياج، سنقبله مؤقتا حتى توافينا بالشهادة.

- هل..الدفعة الأولى متوفرة؟

- نعم سيدي.

عد الرجل عشرين ألف وحدة نقدية، كلها أوراق من فئة مائة وحدة،

- الوصل ستستلمه بعد إتمام الملف.

قال هذا عمدا بصوت مرتفع، حتى تسمع المرأة، والسيدان اللذان دخلا للتو...

عشرات الراغبين يفدون يوميا على المكتب، في سباق محموم للحصول على شقة بتكاليف في متناولهم، في زمن ارتفع فيه سوق العقار، سعر القبر المربع

يبلغ رقما فلكيا. بل منهم من يحضر في الصباح الباكر خشية أن تنفذ الشقق ويعود بخفي حنين، ومنهم من يحاول إرشاء المستخدمين حتى يحظى بأكثر من شقة، يحتكر ليسود أيام المستضعفين... في ظرف شهرين بلغت المبيعات أكثر من ثلاثة آلاف شقة... دعت الرئيسة إلى عقد اجتماع مع مستخدميها، تدارست معهم أبعاد المشروع، والآفاق المرسومة، أجمع المستخدمون أن عدد الشقق المعلن عنه سينفذ قبل أربعة أشهر... أهم نقطة أثرت تتعلق بإلحاح الكثير من المستفيدين/ المنصوب عليهم على إيصال مقابل ما دفعوا من مال... كانت الرئيسة قد أحضرت تواصل بتوقيعات مختلفة بأسماء للضحايا مكتوب بشكل خطأ حتى تعاد للإصلاح ربعا للوقت...

سألت أم الخير عن المسؤول، فعلمت أن الشخصين أمامها مجرد مستخدمين... تجهل أن مهمتهما تقتصر على استلام النقود، وكتابة اسم المستفيد خطأ، ومدح أصحاب المشروع الذين يرافون بالمحتاجين ويتقون الله في عباده الضعفاء...

سألت عن بطاقة الشركة، ادعيا نفاذها، سألت عن رقم تلفون، فأعطيت رقم محمول، انتبهت إلى الوصل تبحث عن رقم الهاتف لتسأل عن التطورات دون أن تكلف نفسها مشقة التنقل، دون أن تنتبه لاسمها. اتصلت بالرقم فردت المستخدمة على المحمول قائلة: المكتب العقاري...

كان المستخدمون يتركون مكانهم لغيرهم كل بضعة أيام، إذا جاء أحد المستفيدين الضحايا وكان قد طرح الملف منقوصا ريثما يدلي بما ينقصه، رده المستخدم الجديد بدعوى أن سابقه المكلف بملفه مسافر في مهمة قد تطول،

وينصحه أن يعود مرة كل أسبوعين قد يكون صاحبه قد أنهى مهمته...
بعد مواعيد التأجيل، حان موعد الاستلام أخذت أم الخير تتردد على
المكتب تسأل غيرها من المستفيدين الضحايا... لتهدئة اضطراب الأجواء
قبل أوانها... ضُرب موعد مع الضحايا، كان ذلك يوم أحد... شحن
المستفيدون المستغفلون في شاحنة رمال واتجهت نحو ورشة بناء لا زالت
الأشغال بها قائمة... ولما وصلوا استقبلهم حارسا الورشة الكبيرة...
وبيديهما لائحة بأسماء المستفيدين... وأخذ كل منهما ينادي بأسماء الضحايا:
- عبد السلام لمقرصن.

...لم يحضر

- ابراهيم لمحير، شقة رقم سبعة في الجناح الخامس (وأضاف) يمكنك
الصعود للمعاينة أسرع سأغادر بعد لحظات...

- أخذ المنادى عليهم الحاضرون يزورون الشقق...

صبيحة يوم الإثنين تجمع عدد من الموعودين بالنصب، ضُرب لهم موعد
الزيارة في نهاية الأسبوع...

كذلك كان بالنسبة لمن احتجوا خلال الأيام الموالية... كان عدد الموعودين
بالزيارة كبيرا..

رفض حراس الورشة الاستمرار في اللعبة بهذا العدد، والمغامرة من أجل
بعض المال، وراحوا يطلبون تفويض السياح بحيث لا يتعدى الفوج عشرين

زائرا في نهاية كل أسبوع... تفاقم الوضع. وتعدّر التسوييف... وفجأة أصبح المكتب مغلقا، علق عليه إعلان يحمل العبارة "مغلق لمدة أسبوعين قصد الإصلاح والترميم".

أخذ الشك يأخذ طريقه نحو النفوس... أمام باب المكتب المغلق، دون أي مؤشر على الإصلاح، التقى بعض المنصوب عليهم، كتبوا إعلانا يخبرون الآخرين ويطلبون الاتصال بأرقام هاتفية دونوها على الإعلان لهذا الغرض، سرى الخبر بين الناس سريان النار في الهشيم...

لما أرادوا الاتصال بصاحب المشروع، عن طريق المعلومات المثبتة على التواصل، لاحظوا أن كل توصيل يحمل معلومات مختلفة... حتى اسماءهم كتبت بشكل خاطئ، كان إذا التفت أحدهم إلى ذلك، أقنعه المستخدم أن الأهم هو الرقم، ويحثه على حفظه حتى إذا ما ضاع التوصيل سهل إيجاد الملف عن طريق الرقم... وكلها أشباح ليس لها من دليل مادي.

ليس لهم أي خيط رابط بمن نصب عليهم، غير ما يذكرون من شكل وصوت المستخدمين الذين كانوا في المكتب...

أمام هذا العجز لم يعد لديهم غير رفع تظلمهم للقضاء... وجدوا أنفسهم يواجهون شبعا لا يعرفون عن غريمهم أدنى شيء... سئلوا عن كل شيء دون أن تحظى مؤسسة القضاء باسم أو عنوان أو رقم تلفون... لم يعد لهم من قشة يتمسكون بها غير البحث عن الجهة التي اكتري منها المحل الذي استخدم مكتباً...

صاحب المحل تاجر يقطن بالمهجر... نصحبهم أهل القضاء بتوكيل محام... بعد مدة من الزمن استطاع المنصوب عليهم أن يوافقوا عمليا...
لجأ المحامي إلى الجهات الرسمية المختصة في الإشراف على توقيعات العقود، وإلى مصلحة الضرائب حيث مكتب جباية الضرائب عن رسوم الكراء... كل ما ظفر به المحامي هو اسم ورقم بطاقة وصورة لا علاقة بينها بل صورة رجل واسم رجل على جهة، واسم امرأة من الجهة الأخرى...
حتى النساء الوسيطات المعروفات من قبل أهل الأحياء ليس لديهن من إشارة سوى ملامح أشخاص يمكنهن التعرف عليهم إذا رأينهم أو رأين صورهم..

كان ابن "أم الخير" إحدى الزبائن قد التقط لها صورة في الوكالة، وهي تتحدث إلى المستخدم ذي اللحية، والمرأة جالسة ترتب ملفا. اقترح الابن على أبيه أن يفيد المنصوب عليهم بالصورة، سمعت الأم حديثهما وأمرت أن لا يفعل حتى يفكروا في الموضوع مليا.
قال الأب: قد توصلنا هذه الصور عن طريق هذين الشخصين إلى من نصبوا علينا.

اعترضت الأم قائلة: هب أن ما اقترحته يوصلنا إلى المقاول، سيحاكم ويسجن أما الشقة فلن تحصل عليها وحتى الدفعتين لن تسترجع منها مليا واحدا، أعتقد أن هؤلاء المنصوب عليهم إذا وجدوا طريقة يستردون بها ما ضاع منهم سيستشيرونك؟ لا بالطبع.

استحسن الرجل وجهة نظر زوجته، واستفسر: وما العمل؟ قالت الزوجة: أرى أن نستغل هذه الصور لاسترداد ما ضاع منا أولاً بل نسخرها لابتزازهما، وبعد ذلك نصطف مع المنسوب عليهم. استفسر الرجل وكيف ذلك؟ ردت بنرفزة: فكر يا أخي، كفى اعتمادا علي في كل شيء، جد طريقة ذكية تسترد بها نقودك! تتحدث وكأنها امتلكت عصا سحرية تسترد بها حقها ولن تعلم يوما أنها وقعت بين فكي ست كواسر وسابعتهم لبوءة شرسة روحها مثخنة بالجراح، كل من اقترب منها أو اقترب منه، كل من دق بابها أو طرقت بابه، كل من دنا من سياج روحها كان خصيا مخصيا أو حاملا لفيروس أخبث مرض. كل واحد من الستة يحرس بابا لا يترك منفذا للحق. يأسرون الفاروق، بعد أن قتلوا المرسلين وفصلوا الوجود عن الله. تفوح من الداخل روائح الفساد بشتى أنواعه، الجريمة والنصب والاستيلاء على ممتلكات الناس بغير حق، والاستحواذ على ما لهم. أما هي فتجزل لكل واحد منهم العطاء وتأتيه حقه كاملا، تزيد عليه ليلة حمراء تقاسمه فيها نصيبها من العدوى التي تكرم به عليها الجهاد الذي خاضت غماره.

في أحد الفنادق الراقية، الذي تتردد عليه بين الفينة والأخرى رmqته لثاني مرة. لا بد أنه يضع ذاته في طريقها عمدا. بذلت طاقة حتى تحمل نفسها على إخفاء الاضطراب واصطناع الهدوء وعدم الاكتراث لأمره، بل صممت على أن تتجاهله وتظاهر أنها لا قبل لها به. لكن بداخلها تعصف صرصر

من الماضي الأليم تعبت في عنف شديد بمصراعي بوابته، بين حنايا الصدر يسطكان حتى كادت ستائر النفس أن تذهب أدراجها لولا لطف من السماء تداركها. لم تشك لحظة واحدة في هوية الوحش الذي أخل بتوازن حياتها، وغير مجراها، ألقى بها في متاهة لم تجد لنفسها فيها موطئ قدم، وهي ما تزال فنناً غصّاً طيعاً، تعاني من فقر عاطفي أحدث اضطراباً في النفس، تنقب عن حنان والدها، بين شظايا حياتها التي عبثت بها الأيام دون جدوى. تبحث له عن ملامح لتركب له صورة، لكن هيهات، فقدت اللعبة الكثير من لونها ومن أجزائها، إذا تهيأ لها أنها عثرت له على عين، لم يسعفها الخيال على رسم العين الثانية بنفس خصائص الأولى، ولذلك لما تنظر إليه يصيبها الهلع. وحينما تبحث عن والدتها تجدها بين عجوز عافها الموت وألقى بها نحوها تشرف على كل حاجياتها، ومشغلة لا تتعب من إصدار الأوامر، وإذا ما عادت إلى غرفتها التي تقطنها مع صغيرتها وصلت منهكة لا تقوى على حمل جسدها لتتحول الفتاة عندئذ إلى مشرفة على والدتها التي لم يعد لها طاقة للاهتمام بها. أما إذا ما بحثت عن أخيها فتجد المسافة بينهما بعيدة شتان بين مائتين أحدهما معالج مر عبر المصفاة والثاني صار إلى المجاري. وهي على هذه الحال من الضياع وضعت الأقدار في طريقها الشاب الذي ارتدى ثوب الورع والتقوى، وزين لها الآخرة والزهد في الدنيا ودلها على طريق إنجيها من العذاب وعلى تجارة لا تبور. غير مجراها وقلبها رأساً على عقب، من فتاة مراهرة تنقصها التجربة والخبرة في الحياة إلى رئيسة عصابة.

كان لها عشاء عمل، نضدت طاولات في صهاريج يبلغ الماء فيها مستوى منتصف الساق، يجري بطريقة آلية تحركه طاقة مبرمجة تدفعه ببطء تارة وبسرعة أخرى وبعنف الأنواء مرة ثالثة، تحت لعبة الأضواء المتراقصة. أما عشب الحديقة فأعد مضمارا للرقص... على إيقاع موسيقى هادئة هدوء الفجر، كانت تراقص أحدهم.. من الخلف أحست بيد تربت على كتفها، قبل أن تلتفت وطلت النفس على الوثوق والتعالي مهما كان الشخص، أخذت نفسا والتفت بحركة بطيئة، لتجد نفسها وجها لوجه معه. رغم انخلاع قلبها لم تبد اضطرابا. استأذنت من مراقصها. نظر أبو زيان إلى وجهها مبتسما، ماذا يده للمصافحة، كاشفا عن هويته. قابلت ابتسامته بابتسامة خفيفة مدت يدها قائلة: "لبنى السعداوي". أعاد تقديم نفسه من جديد: "أبو زيان" وبادر بالكلام قائلا:

- سمعت بأنشطتك، وبنجاحك المبهر في ميدان الأعمال الحرة، اسمحي لي أن أعبر لك عن إعجابي، لقد استطعت أن تنجحي حيث فشل الكثير من الرجال.

- وما الفرق بين الرجل والمرأة في التجارة والمال؟ وأضافت في مزاح ساخر: أما زلت من المعتمدين على السمع في معرفة ما يدور حولك؟ لا بد أنك تؤمن أن المرأة لا تحسن العد من واحد إلى عشرة؟

- مقبولة منك لكن لم يكن قصدي كان ذلك إعجابا وليس استخفافا.

اعتذرت منه، وانسحبت منصرفة إلى غيره.

تابعها ببصره خطوات، ثم ولاها ظهره مبتسما ساحبا المستوى الأيمن من شفتيه إلى الخلف، ابتسامة غامضة الفحوى، تنم على خبث دفين، وإعجاب شديد، وخيبة أمل ظرفية، وشك في كونها ضحيته. وأنها تعرفت عليه رغم إنكارها. نعم أحس بنوع من خيبة الأمل، فقد معها بعض اتزانها، أو بعبارة أدق اعترف في قرارة نفسه أنه انهزم، وكان عزاءه أن ما حدث ما هو إلى معركة من حرب ستطول.

في غفلة منه قالت لأحد رجالها الملتحين:

"انظر مليا إلى ذاك الوجه واحفظ ملامحه، وجئني بملفه كاملا دون أن ينقصه شيء ولو كان تافها." ما كان عليه إلا أن يتصل بهُدهد من هداهدا الذين يتحكمون في مفاتيح أبواب الحي، الأربعة شرقيا وغربيا جنوبيا وشماليا ليأتيه بطلبه قبل بزوغ فجر اليوم الموالي. من إحدى المديريات جاءها بسيرته مفصلة، لكن لما اطلعت عليها لاحظت، أن اسم والده غريب، دون أن تدرك أنه أعجمي كما لاحظت أن الحلقة التي وردت فيها حكايته معها بقيت ناقصة، وفيها لغز حياته. هل المخبرات تعجز عن الوصول إلى هذه الحلقة؟ أم أنها تملك المعرفة بكل صغيرة وكبيرة وأخفت ذلك عن حواء ما دامت في آخر المطاف مجرد رئيسة عصابة، لا تُعطى من المعلومات إلا ما لا يضير المسؤولين على هرم السلطة؟ في كل الأحوال يبقى الملف منقوصا. كونه رجل أعمال، تنشط شركته في الاستيراد والتصدير، أمر يهضم، لكن أن يشغل مصب رئيس مديرية الاستشارة في التجارة والملاحة في وزارة التجارة

الخارجية ، وهو عميل لجهات إرهابية فأمر خطير، لا يُتقاعس عنه، سواء أكانت سلطات البلاد عاملة بمهمته أو جاهلة بها، فأنا من ستتولى أمره..

أصبحت حواء تراه في كل أمسيات العمل تقريبا، وكانت تعتمد ارتداء الأزياء المثيرة، وكان كلما كلمها أثنى على ذكائها وأسلوب عملها، وكانت تنتظر أن يثني على شكلها ويهتم به، ويغازلها.

في إحدى الليالي دنا منها وهي تتصنع عدم الاكتراث، واقترح عليها أن تشاركه مشروعا تجاريا، تصنعت بعض الترنح وهمست له أنها ليست في حالة تسمح لها بالحديث في المشاريع.

لم يمض من الوقت كثيرا، تلقت منه مكالمة هاتفية، ما أن نبس حتى اصطنعت حديث من أثرت عليه الكحول بدرجة كبيرة. علم أنها ما تزال في المكتب. اقترح عليها أن يلتحق بها حيث هي، تلطفت في ردها بدعوى أن حالتها لا تسمح. ألح على الحضور حتى بدا لها من حديثه أنه استوى على نار هادئة. واكتفت بقولها: ما دمت تصر عليك أن تحضر قبل انصرافي...

وبعد ثلاثة لقاءات كان فيها الشيطان ثالثهما، ارتاح لها ووثق فيها وتأكد أنها ليست حواء. بكل تلقائية وجدته يسرد عليها حكايته مع حواء كان زمان ومكان الحدث واقعيًا والشخصيات حقيقية لكن الأحداث كلها منحولة وملفقة. استوقفته قائلة:

"لاحظت أنك لا تحكي بصدق، هناك أشياء لا ترتبط ببعضها، ما بك تحرف مسار الحدث الحقيقي، هل من دوافع تدعوك إلى ذلك؟"

توقف الرجل عن الحكي فجأة، وشرد؛ لا بد أنها حواء نفسها!!! أيعقل أن يكون ما قالته مجرد استنتاج، لا.. لا بد أنه صادر عن معرفة مفصلة بالحدث؟"

عاد من سبخته على آخر جملة من حديث لم يسمعه: "رحم حواء أضحى مسرحا لجوقة الأمراض تحت قيادة المايسترو "إيدز".

لم يستطع تجميع جملة مفيدة، كل ما استطاع أن ينسب به: "ماذا قلت؟ إيدز؟ حواء؟ أنت؟" ثم قام وقد ازدحمت هذه الكلمات في ذهنه، تصطدم ببعضها، تحتك فتصدر عنها شرارات تحرق أنفاسه حتى يضيق عنها زفره...

بعث برجلين من رجاله في إثرها، لم يعد منهما أحد. صخب أبو زيان وضج، واتهم رجاله بالعجز، توعدهم بالموت إن لم يعثروا على الرجلين. أما عنها فبعث في إثرها خبرا يرصد مكان تواجدها...

رَبَّتْ على كتفه، التفت إليها قدمت نفسها، باسمها الحقيقي، "حواء الورطاسي" واقتربت عليه مراقبتها على موسيقى غربية. أبدى أبو زيان ترددا قبل أن يلبي.

- ما بك ألم تراقص فتاة من قبل؟

قبل أن يجيبها سمع صوتا بداخله. "كيف فاتك مكرها، إذا صح كلامها عن الإصابة، فأنا أحمل الآن نطفة من الفيروس؟"

- لم أعد أجيد الرقص مع السيدات.

قهقهت.. "أعلم أن منذ آخر لقاء لنا لم تعد تفعل". ثم انفجرت ضحكا تتشي بمتعة بداية الانتصار، حتى لفتت انتباه الحاضرين، توقفت عن الضحك قليلا ثم انتابها ضحكة هستيرية من جديد، تستلذ طعم ما يدور في خلدتها من إحساس بنشوة الانتقام، قبل أن تردف: "لم أعهدك فحلا!"

تذكر أن المهمة التي كانت موكولة إليه تقتضي منه أن يبدو طاهرا عفيفا، في كامل التقوى والورع، لذلك لم يمسسها ولم ينبس بكلمة غزلية قبل أن يرسلها للجحيم.

قالت تستغزه: "لا بد أنك تجيد الرقص مع الفتيات القاصرات."

لم يكن ينتظر مثل هذه الضحكة التي أحس معها بصغر حجمه إلى جانبها ولا هذا التعليق القاتل. فلم يجد من القول سوى:

- أراك ترتدين قميص الهجوم؟

- هل أحمل رقم تسعة على ظهري؟ نحن في حلبة رقص وليس في ملعب كرة.

- كلاهما سيان، قد أخسر شوطا، لكن لم يسبق لي أن دخلت مباراة وخسرتها.

- أما أنا فتعلمت ألا أستسلم للخسارة مهما كان الثمن.

توقفت الموسيقى وعادت به إلى مجلسها وما لبثت أن أخذت مكانها في المجلس حتى أشارت للنادل طالبة قنينة غريبة الاسم. فتحها وصب من

محتواها في الكؤوس، وقدم لكل نديم كأسه، رفعت بصرها نحو النادل فأوماً لها بالإثبات قبل أن يذهب لحال سبيله.

استيقظ رجلاً أبي زيان على منظر رئيسهما مكبلاً تتدلى رأسه داخل شبه زنزانة مقابلة للزنزانة التي تأويهما في دهليز. على الأبواب زبانية تلقوا تدريبات على أساليب التعذيب. كانت الأوامر أن يخير الرجلان بين الموت والخضوع لعملية الخصى. أما بالنسبة لأبي زيان فقصت الأوامر أن يخضع للاغتصاب المستمر حتى إشعار آخر، قد يخصى وقد يخضع للتعذيب عن طريق حرق أعصابه تدريجياً، وقد يحوزهما معا حتى يعترف تحت كاميرات التصوير بانتائه المشبوه وأنشطته التجسسية، ولأي جهة عدوة تسعى لتخريب الحي يشتغل. كمواطنة شريفة تقدم الحجة على خدمة وطنها. وكمستثمرة ستفتح لها وطنيتها أبواب النجاح.

لما طال انتظار حواء اعترافات أبي زيان أمرت رجالها بتغيير آلات وآليات الاغتصاب عن طريق استعمال وسائل تم اقتناؤها لغرض الدفع به إلى الاعتراف. تتعاوره طيلة الليل على مدار الأيام بواسطة رجال شداد. تحمل في ذلك ويلات العذاب، وفي الليلة الثالثة استسلم. طلب مقابلتها ليبوح في حضورها. انتظرها طيلة ليل دون أن يريحه زبانية الدهليز من العذاب. وفي نهاية ليلة قضتها حمراء عرجت على المعتقل، محاطة ببعض رجالها. لقد كان منهك القوى. ما أن رآته ولاحظت قدرته على التحمل حتى أمرت

بمضاعفة التعذيب وغادرت بسرعة دون أن تعطيه فرصة الكلام، تاركة إياه
يذوق جزاء ما قدمت يداه...

لما يؤس من مكالماتها أخذ ييوح تلقائيا كشف عن هويته الحقيقية، وكيف
حصل على الهوية المزيفة، وعن الجهة التي يشتغل لحسابها، وعن أسماء ومهام
نخب أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل العميلة التي تتواطئ معه.

نظرت إلى أبي زيان، كان في حالة لا يحسد عليها، لا يقوى على رفع بصره،
ثقلت حركاته، رد التحية بصوت لا يكاد يسمع.

- أخبرني من أنت، ولأية جهة تشتغل؟

- إسحاق بنيمين، حفيد تاجر السلطان ومستشاره، أشتغل لخدمة وطني.

- أليس حي مالك الذي فتح لك حدوده ودرجت في ربوعه وعلمك
ومنحك منصبا هو وطنك؟ وهل تعلم السلطات العليا في الحي بأنشطتك؟

- أليست من عيتني مستشارا بظهير؟ لن تفهمي طبيعة عملي وأنشطتي،
ما لم تفهمي جيدا أن السلطات العليا لها مصالحها الخاصة تسعى من خلالها
إلى تحقيق أهدافها ولو استدعى ذلك أن تتحالف مع شياطين الأرض كلها.

- أنت لا تخدم سلطات البلاد العليا بإخلاص، بل تلعب على حبلين وأكثر.

- في الحقيقة أمقت حي مالك وكل أحياء بني عبد رسم لكونهم أهانوا
بني ديني واحتقروهم، شردوهم أخرجوهم من ديارهم، مهبط رسالتهم.

ونحن نسعى إلى استعادة أرضنا التي وعدنا بها الله. وحاكم حيكم هذا، لما كنا في أمس الحاجة للنزول بثقل في البقعة التي نزل بها ديننا، لم يرخص لنا بالمغادرة. لولا الإغراءات المادية، والامتيازات الدولية، والمنح الخيالية التي طعم بها "دأسز" حسابات حاكمكم في مختلف حساباته بعاصمة "داسز" ما كان ليسمح لنا بالمغادرة

- ومن هو "دأسز"؟

- هو "الدرع الأزرق السداسي الزوايا" يمتلك رأس مال كوكب الأرض، إن شاء رفع وإن شاء خفض.

- ما علاقتي أنا بهذا وبالبحيم الذي بعثني إليه؟

- كانت الجهة المسؤولة من فعلت بك ذلك، لم يطلعوني على التفاصيل، أسندت لي مهمة محدودة، كان علي أن أنهيها، وفعلنا انتهت عندما جئتك بتذكرة السفر، أما ما حدث بعد ذلك، فلا علم لي به. لم أعلم إلا مؤخرا أنك بنت بيدق على الرقعة التي يسعى "دأسز" إلى رسم خريطة جغرافية جديدة لها. وكان والدك بحكم ما يتمتع به من قدرات هو الرجل المناسب لكل المهام الصعبة، ولتنفيذها كنت أنت وغيرك من عائلته أدوات نستفزه بها. لم يعد خافيا على عاقل مشروعا، لكي نتمكن من تحقيقه لا بد من ضرب كل قوة روحية أولا حتى يتسنى لنا مواجهة القوى المادية. ولما كان الدين أهم دعامة للوحدة، ضربناه في أنحاء المعمور وها نحن اليوم لا ندخر جهدا

في هدم دينكم، بالمال والجنس، وتمويل الطوائف بل وخلق الجماعات، ولن نتوانى في خلق كل ما يساعدنا على تحقيق أهدافنا...

- كيف حصلت على منصبك الحالي؟

كنت أنتظر منك أن تسأليني عن مصير أخيك "آدم"، والأزمة التي أودت بحياة والدتك أم أنك تعيشين في عالم لا علاقة له بما يجري على أرض الواقع، ومع ذلك أجيبك على سؤالك: اعتبري أن تعييني في وظيفة سامية سمحت بها هشاشة النظام في حيكم؛ أحمل جنسية مالكية، سلكت مسارا سياسيا كباقي المواطنين.

- انخرطت في الحزب ذي التوجه الديني بالطبع، وكنت مناضلا فيه عليه، ومن خلاله احتللت منصبا ساميا يمكنك من خدمة حيك وتخريب حيي، أليس كذلك؟

- ما رأيك في العذاب الذي تحيا عليه؟

- يهون في سبيل الوطن الذي سيحكم العالم، شرف كبير أن أبذل الغالي والنفيس في سبيله. أنظنين أننا مثلكم حاشا، فالشباب منكم يفجر نفسه قبل أن يقدم خدمة ذكية لحيه. أما أمثالي ونحن كثيرون، نضحى بحياتنا في سبيل قضيتنا، لكن بعد أن نقدم أقصى ما يمكن تقديمه، حتى إذا اكتشف أمرنا ووقعنا في يد أعدائنا لا نتوانى في الارتقاء في أحضان الموت.

لا تفرحي بهذا الانتصار، لأنك يا حواء أنت ورجالك لستم بالدهاء الذي يخول لكم كشف نوايانا، فإن كنت قد اعترفت لك بما سمعت فلأني على يقين أن ما سمعته، وصورته وسجلته لن يتعدى هذا المكان، فنحن الآن تحت مجهر "دأسز" الذي لا تدخر قواه وسعا في نسف كل من سولت له نفسه الاقتراب من أسلاك محيطه الشائكة المكهربة... آه نسيت عندي لك مفاجأة. أتدرين من مهندس الهجوم الذي سينسف هذا المكان بعد لحظات قليلة؟ إنه ابنك.

ما كاد ينتهي من كلامه حتى انفجر المكان، بل نسف حتى انقلبت أسافله أعاليه ملأت أصوات الانفجارات المحيط، نزلت بالمكان رشاشات ترمي كل حركة أو نفس.

الفصل الحادي عشر

رن الجوال، إنه الولي..

- "هل عاد للحديث عن زواج الجهل بالأمية أم يرغب في مناقشة أمر ما؟ تردد "جوهر" في فتح الخط.. كرر طلب المكاملة... فتح الخط وقبل أن ينبس جوهر مرحباً سمع:

- السلام عليكم.

ليرد التحية:

- مرحبا وليّنا، كيف تسير أحوالك؟

- أين أنت يا صانع الأوهام؟ لم أحظ بإطلالة منك منذ أحلتني على الكتاب الذي خلق بي في عوالم لا حدود لها، عوالم أرحب مما ارتدته طيلة حياتي. لا أخفيك أني أحس بفراغ عميق ولذلك لم أجد بدا من مكالمتك. لقد

رفض الجهل أن يتزوج من الأمية، مشرطا عليها التحرر من ولايتي، وهذا نتيجة تحريضك.

- أرايت أيها الولي، حتى الجهل الذي قضيت حياتك تدافع عنه، قد أبدى قابلية للتطور، وطلب الانعتاق من قيود الماضي، ساعيا إلى الانخراط في الحاضر، لا بد أن هذه الهزة العنيفة التي ألت به جعلته يدرك هشاشته.. تطور مهم، لكن لدي من الأولويات ما يحول دون رؤيتك الآن، هلا أجلت الموضوع إلى وقت لاحق، أنا الآن في طريقي لعيادة نضال فهو طريق الفراش...

- هلا انتظرتني، لدي رغبة في لقائه بعد كل ما عرفته عن شخصه ولعل هذه فرصتي؟

- شريطة أن تعدني.

- بماذا أعدك؟

- ألا تأتيه بتميمة...

- ساحمك الله، لقد ولى عهد التمايم، ولن أفتح لائحة معارفي الجدد إلا بما يتناسب مع أزيائهم.

- مرحبا أنا بانتظارك، لكن أسرع فالمسافة طويلة بين الماضي والحاضر لا تبطئ، استقل وسيلة نقل سريعة.

- لا عليك أتواجد على الحدود بينهما.

...

كان قلب نضال موصولاً إلى آلة ترسم سير نبضه بواسطة أسلاك مثبتة إلى صدره.

- كيف حالك يا قاهر الزمان؟ هذا "ولينا".

- تشرفت يا ولينا.

- كل الشرف لي، ما عرفته عن مسارك، ولدي رغبة عارمة في التعرف إليك. كيف حالك سيد نضال؟ أتمنى أن تمر الوعكة برداً وسلاماً بإذن الله، وأن يرفع عنك الضرر... لا يتبلى الله إلا عباده الصالحين... المؤمن مصاب... و...

- ألم أقل لك لا للتائم؟!

تدخل المريش:

- لا عليه يا "جوهر"، لكل منا خطابه، دعه يعبر عن ذاته...

أطعم رثتيه عن طريق إلقاء بوز بنّاخ في فمه، وأضاف:

- لقد عمرت طويلاً، وهواء أحيائنا خانق قل وندر أن تحمل لك ريحه جرة أكسجين، كله رطوبة ولوث وصقيع وهذا ما جعلني أعاني من الربو منذ حلولي به، أضحيت لا أتنفس إلا إذا استعنت بعبوات تأتيني من بلاد

الكفر الكريم. وها دمائي اليوم تتعثر في شراييني، جراء ما تعرضت له، إلى درجة تعذر عليها الوصول إلى الخلايا الهامشية والنائية، وكأن الإصابة الأخيرة وضعت عمدا متاريس سدت طريقها، لا لتقتل الجسد بل لتحمل الروح على هجره، وتستفيد منه النخب التي ستعمل على تحنيطه وتضعه في المتحف فرجة للسائح مقابل العملات الذليلة.

- هل أسمح لنفسي أن أسألك أن تحدثني عن النخب؟

قال "جواهر" يحاول أن يثنيه عن إزعاج المريض:

- ألا ترى يا ولينا أن المقام لا يسمح بذلك.

غير أن نضال يأبى إلا أن يؤدي رسالته التي كرس نفسه لها.

- دعه يا جواهر، قد لا تكون أمامه فرصة أخرى سانحة ليكون فكرة واضحة عن نخب بني عبد رسم وبني طلل، الطاعنة في الخيانة، الضالعة في النفاق. تشتري بالعقيدة ثمنا قليلا

- النخب يا ولينا هي كل أولئك الذين تعتقد أنهم أصواتٌ فاعلة، تجلجل، تصول وتجول وهي تؤمن بباطل أكل عليه الدهر وشرب، تدعي أنه أجدى سلاح في الزمان والمكان، غير مدركة أنه الهشاشة عينها تقف عند حدود الماضي، تحرم على نفسها الاشرئباب إلى الحاضر. ودون خجل أو حياء، تؤمن بصحة ما أبطله العقل السليم، لا لشيء سوى أنها تؤمن بأساطير

الأولين. تسلك طريقا يسير في الاتجاه المعاكس لحركة الحاضر... والأدهى أنها تنتمي إلى نفس التوجه، وتتراشق فيما بينها بالاتهامات، شيئا فشيئا تصعد في التراشق حتى إذا انسحب النزر القليل من العقل اليسير عن جماجمهم، لاح غيلان القوة العضلية والنارية، يحرق سلاح الحوار الذي لم يسمح لها مالك رقها باستيراد سوى أضعفه، أو الذي نال منه الصدا. تحجز بياهض الأثمان مقاعد في الصفوف الأخيرة في المحافل الدولية، وتدفع ثمن كل جزء ثانية، أو مساحة حرف في وسائل الاتصال والإعلام لتوهم القواعد أن لها أصواتا تقوم عليها الأركان، وعليها يشيد البنيان، بل هي أوتاد الزمان. وما هي في الحقيقة إلا أصداء من رعا، لأصوات جهات تملك رقبهم ورجع لها يخدم مآرب الأسياد، تحدث إيقاعات رنانة في الأذن، لكنها سرعان ما تتبدد وتتلاشى في الهواء.

نظر إليه الولي بإعجاب وبصم يزكي:

- صدقت والله.

- أما عن حالي الصحي يا ولينا، فلا خوف علي، اعتبرني من الآن معافي، لقد توصلت اللحظة برسالة إلكترونية تفيد أنني خضعت لعملية زرع قلب الخلود وبعد أيام سأخضع لزرع رئتي الخلود أيضا. كما نصح الأطباء بحمية تقضي بالتقليل من زيارة أحياء بني عبد رسم وبني طلل. والإكثار من الاحتجاجات، والاتصال بكل الأحرار في العالم.

هنا "جوهر" على نجاح العملية والتماثل للشفاء. والولي في شذوه فاغر فاه، لم يستسغ الخبر، لم يفهم شيئاً مما سمع للتو على لسان "نضال". لبسته الحيرة، لم يتمالك نفسه، همس في أذن جوهر:

- هل، فقد نضال صوابه، أم هو يهذي أم هو الموت؟ طمئني، أتصدق ما قاله للتو؟ كيف يخضع لعملية معقدة كهذه وهو أماننا يخادثنا؟ أيمنه أن يتواجد في نفس الزمن في مكانين متباعدين؟

- أما عن فقدان صوابه فهو أعقل مني، وأما عن الهذيان فأنت من كنت دائماً تهذي، وأما عن تصديقي لما قاله، فلا تنس أن الإعدام على اختلاف أساليبه وتنوع وسائله لم يستطع النيل من "نضال"

- كيف يخضع لعملية جراحية، بل لزرع القلب في بلاد الكفر الكريم - كما أسماه - وهو معنا هنا؟ أيمنه أن يحتل مكانين متباعدين في الوقت نفسه؟ بل كيف يخادثنا وهو تحت رحمة طاقم الأطباء يخضع لعملية زرع القلب؟

- هذا ما لا يستطيع إدراكه من يسجن نفسه في قوقعة الماضي، ويضع أسلاكاً مشحونة بالتيار الكهربائي بينه وبين الحاضر والمستقبل. سأحاول أن أشرح لك بما تستطيع أن تفهمه؛ هل تركب سيارة حديثة الصنع، ألا تفتحها عن بعد؟ ألا تستعمل بطاقة لتشغيل المحرك؟ ألا تستعمل الهاتف تتوصل من خلاله بالصوت والصورة؟ بل هل رأيت أشخاصاً خضعوا لعمليات

طبية بدون جراحة بل هل سمعت بطائرة دون طيار؟ بل هل لديك فكرة كيف يدرس أهل الأرض الكواكب والنجوم....؟

- أم م مم.

ظننت أنه "أم" لكونه منشغلا بربط قول نضال بالمثل المادي الأقرب إليه، لكنه فاجأني:

- هذا شبيه بمفعول التثائم، فكم من مريض، حكم عليه الأطباء بالموت مدعين أن مرضه لا يشفى، لجأ إلى أولياء الله المداوين عن طريق بعض التعاويذ وعن طريق تعليق التثائم بعد دفنها في مطرح النفايات لسبع ليال مقمرات...

قاطع "جوهر" رفيقه في العيادة بالشروع في قراءة الفاتحة.

تلا العائدان سورة الفاتحة ترهما على روح آدم، وعين نضال تنز. ثم ودّعا المريض داعيين له بالشفاء العاجل، وعلى أمل اللقاء... توقفا عند مفترق الزمان، تذكر جوهر أن الولي كان يرغب في محادثته في شأن العروسين وقال:

- كلي أذان صاغية، حدثني ماذا وراءك يا أخ الأولياء؟

- كنت أود محادثتك في شأن الشاب الذي كان من المفروض أن يتزوج قريبتى، لقد بدل رأيه.

- ألم أقل لك أن هذا النوع من الشباب ليس راشدا والدليل أنه بدل رأيه دون أن تواجهه أية صعوبة، فما بالك لو عشقته بنات الدهر؟ لكن لا بأس فهو يؤثر على رفضه للمهشاشة.

- هو لم يراجع عن الزواج فحسب، بل اشترط شرطا خطيرا.

- وما الشرط يا ترى؟

- أن تتحرر زوجة المستقبل من الولاية.

- دعنا منه، وقل لي ما رأيك أنت؟

- كيف أتخلى عن شرط أساسي في زواجنا، وجدنا آباءنا يعملون به كما وجدوا آباءهم يعملون به. لا يصح الخروج عن كل ما يشكل هويتنا، لست أنا من سنتتها. لا ورب الكعبة لن أفعل.

- ألم تدرك بعد أن في الماضي لها وقشورا، كما أن في الحاضر كذلك لها وقشورا؟ وبعد ألم تقل إنها راشدان؟

- بلى، هما راشدان.

- وما رأيك في موقف الشاب أليس نوعا من الرشد؟

- أي رشد هذا؟

- يريد زوجة حرة في تفكيرها في اختيارها في اتخاذ قرارها بكل حرية.

- ولكنها لا تعرف كيف تتصرف في أمر الزواج.

- هل علمها ذووها كيف تتصرف بحرية؟ وهل ستتصرف وفق ما تمليه عليها أنت وهي في بيت زوجها؟

- لا بالطبع.

- ولم لا تدعها تكون ولي نفسها؟ يا ولينا، كيف تعتقد أن المرأة لا تحسن التصرف في حياتها، ولا بد لها من ولي يتولى أمرها؟

- لا يهم ماذا أعتقد، المهم أنها ناقصة عقلا ودينا.

- باعتبار هذا النقص لا يمكن أن يرشدين، وغير العاقل يرفع عليه القلم، ولماذا نجدهن يوم القيامة يسري عليهن ما يسري على الرجل؟ وبعد دعنا من الغيب ولنبق في الدنيا، عندما يشتد المرض بزوجتك ألا تعرضها على طبيب؟
- بلى، أعرضها، لكن على طيبة، وليس على طبيب.

ابتسم، بل ضحك، قبل أن يستأنف:

- أليست الطيبة امرأة لا يختلف حكمها عن حكم من تتولى أمرها؟ ألا ترى أن الكثير من الأمم تقودها نساء بيد من حديد كآل جرمان وغيرها كشي؟ ما قولك فيهن؟

- هل تصدق بالله؟

- ونعم بالله.

- لم أعد أفهم شيئا وأكثر من هذا إن رأسي بدأت تجعني.

- أمر طبيعي أن تجعك، فحينما يقضي المرء عمرا وهو يعيش على الإرث، دون أن يعمل العقل تؤلمه رأسه عند أول اصطدام يقع في دماغه بين الموروث والواقع.

- أمدح هذا أم قدح؟

- لا هذا ولا ذاك، كل ما في الأمر أن الماضي يضع لك خطوطا حمراء مزيفة، ويبني بينك وبين الواقع أسوارا عالية من المغالطات، وأنت لا تستطيع القفز خارجها، بل لا تجرؤ على التفكير في ذلك رغم أن بداخلك صوتا يتحفز للوثوب لكنه يخشى تمزيق شرنقتها، أتدري لماذا؟ لأنك لا تفتأ تردد أساطير الأولين.

- لا أعرف من الأساطير غير أساطير اليونان والرومان وأساطير الحضارات القديمة، وكلها شرك وأوثان.

- هناك أساطير تؤمن بها وتجهل أنها أساطير، لأن الأسوار التي لا تستطيع القفز عليها هي من تحجب عنك الرؤية، بل هناك أساطير ترتبط بالحاضر والمستقبل.

- لو لم تكن رأسي تؤلمني لناقشت معك موضوع الأسطورة.

- أحسنت رأسك فعلا، فنحن واقفان على مفترق الطرق كما كنا دائما، ولكل منا وجهته.

الفصل الثاني عشر

جسدي المسجى!

احترتُ في أمري، أو بالأحرى في أمرنا معا. لما أتجرد منك، وأوصد بابك خلفي، أنطلق حرا طليقا، قادرا على أن أجوب أقطار السماء والأرض، قادرا في يسر على اختراق بوابات الزمان، تنفتح أمامي بشكل آلي، أعبر إن شئت إلى الماضي وإن أردت توجهت نحو المستقبل، وإن رغبت في الحاضر اختلفت إلى البوابة الوسطى، لا حارس عليها حاملا عصاه، يسألني تأشيرة المرور، ولا آلة تفتيش آلية، لا كراهية ولا عنف ولا حقد ولا إغلاق حدود، ولا رقيب يقتفي خطاي حذو النعل بالنعل يسجل حركاتي وسكناتي، يعد تقريرا حولي بما في أو ليس في، يسلمه لمن يهمهم أمري. أجوب أروقتها، أقف على ما يخر به الزمان من إنجازات، يحفظ لكل ذي حق حقه، وكل شيء مسجل في كتاب معلوم ومن نجاحات وإخفاقات... وعندما يحملني الشوق إلى العودة إليك، لتحتويني وأنعم بدفئك أجدني أسيرا لديك، لا أقوى على

الحركة، أعيش تحت رحمتك تحركني أنت في مجالك الضيق، أتوجه عكس مشييتي، والعالم من حولنا لا يتوقف عن الحركة ساعيا بين الماضي والمستقبل بحثا عن متكأ في الحاضر. فتعوقني وتحرمني من الاطلاع عن كتب عما يجري في كل العوالم الواسعة والأكوان الزاخرة بالحركة. أعود إليك وقبل أن أفتح بابك الجليدي أجذك ساكنا لا تقوى على الاعتناء بنفسك، وأنت تدعي القوة، رغم معرفتي بك، ومعرفتي بروحي أتساءل عن السر الذي يربطنا ببعضنا طوال المدة المنصرمة، لماذا لم تصارع النفس من أجل استقلالها لتحبي حرة طليقة، وأعود وأقول لا بد أن في ذلك الاقتران حكمة. حاولت كثيرا أن أجعلوها لكن دون جدوى. ليتك تستوعب ما أنا بصدد التفكير فيه، أفكر في التحرر مما نحن فيه. حبذا لو كنت موافقا على مساعدتي. لأنني وأنا محتواك، إذا رغبت في التحليق، أو اضطررت للتخلص منك، اعترض على نيتي -بوجودك- قانونٌ غير قانون الجاذبية، فاحتجت إلى آلة.. أتدري أيها الجسد المسجى الذي تتناوب على إنعاشك الآلات القاتلة، والذي تطعم من أكياس الدم الملوثة، المهداة من جهات محبي الخير لأنفسهم، ومن طرف من تحركهم حاجة في نفوسهم. تمر بك ملائكتهم لتقيس حرارتك وبرودتك وضغطك ودرجات انبطاحك، لتدوينها في صحيفة على ضوءها يقرر المختصون العارفون نسبة عجزك، التي تخول لهم صلاحية إبقائنا في سلك الحياة أوثانا، وأدوات يعودون إليها متى دعتهم الحاجة إلينا حتى يحققوا من خلالنا ما خططوا له منذ وقت طويل. إن الحادثة التي تعرضت أو تعرضنا لها

معا كانت رسالة واضحة لمن يرغب في ركوب السرعة لبلوغ مستوى الكبار والاطلاع على خفاياهم وأسرارهم.

اليوم يا جسدي، وجدتني في مفترق الطرق، أمام خيارين لا ثالث لهما، وكلاهما قد يقف في وجه الرسالة التي آليت على نفسي حملها، وأنت أكيد جزء من هذه القضية. ومع ذلك سأسألك بماذا تشير عليّ في شأن الانفصال عنك إراديا إلى الأبد أو الالتحام بك وعدم الانفصال عنك إلى أن أتوصل باستدعاء من السماوات العلا، علما أن الاختيار الأول بالنسبة لك يعني الفناء العاجل وهذا ما لا أتمناه، رغم أن ودائع والدي وحساب أمني باتا في خزان "دأسز"، وزمن بقائك في المصححة بات وشيك الانتهاء. والعناية التي كنت مخصصا بها من لدن من يحرصون على بقائك مسجى لإشباع حاجاتهم الأنانية، أو لأن في بقائك حيا استفادتهم مما قد لا يخطر لنا على بال.

جسدي المسجى، أمرُ الاعتياد على الخروج المؤقت منك أتاح لي فرصة الاطلاع على ما لا يمكن للإنسان على الأرض الاطلاع عليه، حقائق القوى المتحركة في العالم وأنصاف الآلهة المتفانين في خدمتها يذلون لها الوفاء والإخلاص. كما أتاح لي فرصة الاطلاع على فساد نُخب أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل التي تترجم أحلام قوى الشر إلى واقع؛ وتحيل مشاريعها حقيقة، تسوّق نواياهم، تروّج لها في أوساط أبناء أحيائها وقد ربتهم على الكفر بالعقل، وعلى الإيمان بالاتكال وعلى الرضوخ للقهر، ورسمت لهم الانبطاح منهاجا يسيرون عليه في حياتهم، حتى حولتهم إلى آلات تنفيذ،

تستقبل كل شيء دون تمحّص أو غربلة وترجمها إلى حقيقة واقعية. حتى أوضحت أحياء تذبذب بجهلها وغفلتها وسذاجتها في حق نفسها وتعلق نتائج ما يصيبها على من تعتبرهم أعداءها منذ الأزل، وإن كانوا أبرياء.

الانفصال عنك والتحرر من عبئك انخراط في حرية كبيرة في الزمان والمكان تمكّني من الاطلاع على ما بين أيدي الزمان وما خلفه وما فوق المكان وما تحته، وتتيح لي ربط علاقات أجدى من العلاقات الافتراضية على شبكات التواصل الاجتماعية، تمكّني من اكتساب معارف كثيرة ما ظهر منها وما بطن وتحوّل لي الاطلاع على حقائق التاريخ الملوّث الذي نقلت له قوى الشر فيروسات كل العصور حتى شوه الحقائق الناصعة. لكن في هذا الاختيار عقم كبير رغم ما يتيح لي من امتيازات، لأن أمني أن يستفيد من المعلومات التي أحيط بها أحرار أحياء بني عبد رسم وأحرار ديار بني طلل، قد تحرّروا من رسميتهم ومن طلليتهم. فمن حيث أتموقع اليوم يستحيل التواصل مع أهل الأحياء وخاصة من يغارون عليها وتهتمهم مصلحتها العامة، ويعملون على استئصال الورم الذي ينخر كيانها. وفي الوقت نفسه يتتابني شك في عدم وجود وسائل اتصال تربط عالم الأجساد في الأرض بعالم الأرواح في السماء. أحيانا أكاد أجزم بوجودها لكنها تبقى حكرًا عند صانعي قرار العالم الأرضي.

أما الاختيار الثاني، الذي هو الالتحام بك نهائيًا والبقاء على الأرض دون القدرة على الانطلاق في العالم العلوي إلى أن أتلقى استدعائي للعبور إلى

العالم الآخر، فهو الاختيار المرجح عندي، رغم أن أمر التواصل الذي من خلاله أنشد إيصال كلمتي إلى بني جلدتي غير مضمون، ليس لدي أية ضمانة على بقاء معلوماتي محفوظة في ربرتواري لما ألتحم بك وأستقر داخلك، وأخشى أن تتبخر كلياً، ولن أفيد في شيء. وأنا مدرك أنني سأضحى روح جسدي ممسوخ، مثير للضحك قبل الشفقة. فتكون الخسارة مضاعفة.

لقد سمعت صوت الأرض تشكو ما أصابها جراء غلظة أبنائها، لما ارتسم أمامي هيكلها الممتد بين المحيط والخليج، يكاد الناظر إليها يجزم أنها تعاني من الأوبئة جميعها. لما ظهرت على ملامحها علامات الخصب الطبيعي وكانت في قمة العطاء، انتظرت فرسانها الذين طالما تغنوا بأعجائهم - رغم درايتها بتحليلهم على التاريخ. لتغدق عليهم بنات باطنها، يوزعونها بالتساوي بينهم، الأبرار منهم والأشرار، الرفيع منهم والوضيع، خبيوا ظنّها، لما أسلموا بكارتها لآل سام، زوجها به زواج متعة، لبيعوها في سوق النخاسة جارية لتجار قطعان البقر الوافدين من الغرب البعيد.

استيقظت وكأن رأسي زيد في وزنها أرطالا.. حملت نفسي على الالتفات، "أي ي ي" حاولت أن أتحرّك من مكاني.. أن أتملّص.. أن أنزاح قيد أنملة: "هيهات" وجدّنتي لا أقوى على حركة، تمنعني آلام شتى. وجدت بصري معلقاً إلى السقف، لا أقوى على الالتفات، رغبة عميقة في رؤية ما يوجد على يميني "أي ي ي.. رقبتي !!! سقطت رأسي دون أن أقوى على حملها

وإعادتها إلى وضعها". أجهدت نفسي دون طائل. في بحر ألم فظيع في عيني وبجهد كبير استطعت أن أتبين على مستوى منخفض بالنسبة لبصري أجهزة طبية مصاييحها تنبض وتتموج. طار صوايي، ممدد على سرير مرتفع "أين أنا؟" في مستشفى!!! رفعت يدي فلم ترتفع، حاولت مع اليد اليسرى أبت أن تنصاع للأمر، أحسست بتعب مجهد، وعدت إلى سريري أقعّره بكل ثقلي النفسي، أحسست بضيق يكبر في صدري، أنفاسي تتواصل إلى حد الانقطاع، ولا رائحة في المكان، لا أشم ريحا. ساقاي مشلولتان، تحولت الحركة كلها إلى داخل صدري، يعلو ويميد ارتفعت سرعة نبضي، إلى أن ضاق تماما وأحسست باختناق يصاحبه أنين، يتحول ويكبر تدريجيا إلى أن أصبح شخيرا ثم انفجارا أشعل فتيل الدمع الذي كسر أقفال المقلة فهمى بدون انقطاع وكأنه فر من عقال طال أمده.

لا أدري هل سمعتُ، أم بلغها صوت شخيري، لتسرع نحوي ممرضة. وصاحت كمن خانها صوابها وفقدت كل لباقتها "استفاق.. استفاق.. استفاق.. وهي تجري نحو الباب ثم لا تلبث أن تعود نحوي. سلوك أفرعني إلى حد كبير وبعث في نفسي نوعا من الإحساس الغامض، خلفه ازدهمت عشرات الأسئلة تستبق شفتي لعلها تجد منفذا نحو سمع المرأة، غير أن اندفاع أسئلتي ظل حبيس دواخلي دون أن يقوى على حل عقدة لساني... رغبت في استفسارها فلم أستطع النطق... حالة غريبة لم أجد لها تفسيراً. لا أستطيع كفكفة دموعي. بقيت وقتاً غير يسير أنتظر عودة المرأة، والأسئلة

تشرّب من خلف البكم الذي أصابني. أعيد محاولاتي الفاشلة في تحريك طرف من أطرافي دون جدوى. أحاول أن أتعرف على الأشياء في الغرفة لكن بصري لم يكن يسعفني، كأن الأشياء من حولي كانت محاطة بالضباب.. لم أسمع خطئ ولا أصواتا لطاقم لطبي، ولا أننا لمرضى، غير صمت رهيب يملأ أرجاء الغرفة.

لاحت أُمي في باب الغرفة، ما رأيتهَا، بل سمعت صوتها ينادي: ابني ابني... وهو يخترق الصمت، أسرع نحوِي، كادت تسقط قبل بلوغها سريري، ما رأيتهَا لكنني أدركت ذلك لما حدث في صوتها اضطراب جراء الكبوة، حتى كادت الحروف أن تفقد ترتيبها في ما تنطق به من كلمات.. كادت ترتمي علي لولا أن تذكرت في آخر وهلة حالي، عانقتني في رفق، شممت ريحها وتحسست أنفاسها. رفعت عينها تنظر إلي راعتي التجاعيد التي غزت محياها، ورسمت طلائع الشيخوخة على وجهها. بدت أكثر من عمرها بكثير، مررت يديها الكريمتين على وجهي، أحسست وكأنهما تحدثان نوعا من الحفيف كالذي يحدثه "الورق الزجاجي" وهو يحك على الخشب لصقله. التجاعيد التي غزت وجه أُمي نبهتني إلى عنصر الزمان "رباه من أنا؟" حاولت الحركة، وجدت أعضائي مشلولة. كم أبلغ من العمر؟ أنا لا أبلغ من العمر إلا أربع عشرة سنة. كل ما أذكره أني كنت مهرولا نحو البيت، أنا أنا، أم أني أحد غيري؟ تمنيت لو كانت والدتي تحكي عما أصابني عوض التقبيل والحمد والشكر... آه لو استطعت الكلام! كان وجه أُمي

يعكس سني وجدت فيه تفسيراً لما أحسسته وهي تمرر يدها على وجهي، دون أن أهضمه، أو أستسيغه. انحنت عليّ من جديد تطبع على خدي قبلات تلو القبلات، وتشكر الله على عودتي إليها، تسألني عن حالي دون أن أستطيع الإجابة، تنظر إلى عيني الدامعتين بعينين تذرّفان باستمرار. ألف سؤال يوجع دماغي، يزيده ألماً تعطل لساني، وشل حركتي، أكاد لا أرى من الأشياء إلا أعاليها.

شيئاً فشيئاً أخذت الأصوات تملأ الحجرة. يبدو أن طبيبا قد حضر. دخل مع أمي في حديث عن الترويض والعناية والمحافظة على الهدوء النفسي للمريض. خرجت والدتي من دائرة الاستماع لتسأله عن المدة القصوى للترويض، تتدارك أنه لم يعد معي سوى حاسة السمع وطلب منها أن تلحق به خارج الغرفة...

أخذت والدتي تحكي ما ابتليت به... لقد خضع جسدي لعمليات جراحية معقدة، على مستوى الرأس، وعلى مستوى الأطراف... تمت الاستعانة فيها بمواد معدنية تشد فتات العظام. لم أكن أدري أنني فقدت عينا حتى سمعت والدتي تردد على مسمعي ما طمأنها به الطبيب فيما يخص العين التي فقدتها. انفطر قلبي "كيف سينظر إلي الشباب وخاصة الشبياء؟" كيف أواجه المجتمع، ولم يخطر ببالي أن تقول لي كم لبثت من السنوات على الحالة التي كنت عليها. أرادت والدتي أن تطعمني، فرفضت لأنني كنت متخما بما أطعمني به اكتشافاتي لحالتي. دخل أخواي؛ زيد وعمرو، دون حماس أو اندفاع. حظيت بزيارة

خالي وزوجته، وعلمت منهما أن ابنهما يعيش باليابان دون أن يطلعوني على أخبار الشفاء. لا بد أنها تزوجت وأنجبت ولا بد أن تزورني إن كانت تعيش بالربع.. لماذا تأخر والدي؟

كانت والدتي نجمة في هذا اليوم بين السيدات، يهنئنها ويواسينها في الوقت نفسه وهي تحكي لهذه معاناتها، وهي تشرف علي وتعتني بي. أما أخوي فقد كبرا واشتد عودهما دون أن تشتد مروءتهما وما تستدعيه من تحمل للمسؤولية اكتفيا بالسلام والترحيب بي ثم انصرفا. أما أنا فلدي مئات الأسئلة معلقة مادامت عقدة لساني لم تحل بعد. وكان على العائدين أن يكونوا خفاف الظل ويتركوا للمريض متنفسا للاستراحة والنوم.

بعيني حاولت أن أسأل والدتي وأستفسر عن والدي الذي لم يزرني ولم أر له أثرا في البيت وعن حالي وعمما وقع معي، وكم من الوقت لبثت في المستشفى، وماذا يقول الأطباء عن حالتي. وكانت تردد: "متى أسمع صوتك؟ لا تجهد نفسك يا كبدي، اخلد للراحة الآن". "أية راحة يا أماه، ورأسي تزدحم بها حركة الأسئلة التي لا تتوقف مئات الأسئلة تصطدم برأسي، وتزعج نفسي وقد أحس بنوع من الراحة إن أشركتك فيما يقض مضجعي".

عمر كامل مر بياضا على بياض، لم أحقق فيه شيئا. نمت طيلة سنين، وما أحسست بشيء حولي، وها أنا أعاني من الإعاقة، بلا حركة وبنصف بصر وبلا مستقبل، لكن أمني تزعم أن للأطباء أملا كبيرا في شفائي وعودتي إلى الحياة الطبيعية، إلا أن التكاليف جد باهظة، ويتطلب العلاج زمنا طويلا،

ويستدعي أيضا إيجاد أعضاء من الوسط العائلي يضحى بها أبناء جلدتي. وإلا أصبحت ضميرا بدون ميم.

كانت والدتي تقضي جل وقتها بجانبني، تحدثني، دون أن تحس بما أنا في حاجة لسماعه. أرغب في معرفة الذي حدث مع والدي، لماذا لا يعيش في البيت هل هو مسافر؟ هل حدث معه هو الآخر مكروه؟ لماذا لا تحدثني والدتي عنه؟ فكرت في الاستعانة بورقة وقلم أو بلوحة إلكترونية، كانت ستكون فكرة جيدة لو كانت يداي سليمتين. من حين لآخر أحس أنها تنتظر ردي على كلامها، كانت تقصد بدون شك أن تصدمني، أو أن الطبيب نصحها بذلك وأقنعها أنه يدخل ضمن العلاج. فاجأتني ذات مساء تعلمني أن لي أخا وأختا، يدعى الذكر آدم وتدعى الأنثى حواء. فكرت أن فترة غيابي الطويلة عن الوجود كانت كافية لإنجاب أكثر من طفلين، لكنني لم أرهما، أين هما هل في مدرسة داخلية أم بيت آخر يعيشان بعيدا، افترت شفتاي عن ابتسامة ذابلة دون أن أستطيع أن أبارك لأمي مجيء أخويّ.

أخضع يوميا لحصة الترويض، تقوم بها والدتي.

"ضمير" يخضع للترويض من طرف والدته؟ أليس في البلاد كلها مروض متخصص؟

أليس والدي مهندسا أغر؟ لا بد أن وراء الأمر سرا! أخذت ألتفت من حولي، مستعملا البصيص المتبقي من نور عيني، كلما استطعت بلوغه هو ملاحظة أن الغرفة ليست غرفتي.. لا أحد يريد أن يصارحني.

تعرضت للإعاقة، وهل يصلح الترويض ما أفسدته الحادثة؟ هل سيعود البصر كما كان؟ تصوروا معي "ضمير" بعين واحدة، يبحث عن كلية. من سيتقبله ومن سيرتاح إليه ويجعله رقيقا في حياته؟ "ضمير" مقعد أو حتى أعرج أو أشول، ضمير لا يستطيع الالتفات لا إلى يمينه ولا إلى شماله، ضمير أبكم؟ راح ضمير وانتهى.

أخذت أمثائل للشفاء تدريجيا والفضل يعود لطاغم الترويض المحلي المكون من امرأة أسبوية إلى جانب والدتي، طاغم يحترم مواعيده، ويحرص على أداء مهامه بإتقان عال، شعاره خدمة الغبن "ضمير"، والعمل على إدخال السعادة إلى قلبه وقلوب ذويهم، مثال في الاحترام والتقدير... تعلمني الأسبوية أبجديات النطق، إلى أن استعدت بنسبة ضئيلة إمكانياتي في النطق، أنطق بعض الحروف ثم بعض الكلمات متقطعة وها أنا بهذه الكلمات المتقطعة أحاول أن أتواصل مع محيطي، سألت بصعوبة عن والدي وسر غيابه، عن أخوي، وعن البيت المتواضع الذي نعيش فيه، فقصت علي والدتي حياته قبل اختفائه وكيف أجبر على هجرة عائلته الأولى، تاركا صغيره "آدم" و"حواء"، وأن أخي آدم زارني في المستشفى، في رحلته للبحث عن والده. حدثتني كيف عاش معهم وكيف اختفى عنهم دون العثور له على أثر. وكيف رفعت ثروته بين عشية وضحاها وبيعت ممتلكاته لتجد عائلته نفسها في الشارع. بقيت فارغا أمام ما علمته عن والدي الحنون، مثال التفاني في العمل والإخلاص له، ذي السمعة التي لا تضاهى في الحي... وأشفقت على والدتي التي عادت للعمل في مدارس خاصة بنصف أجر..

بعد مدة من تعبير مرتبة السرير، انتقلت إلى التدريب على المسك بالعصوين، ثم محاولة الاستناد عليهما للبقاء واقفا للحظات، مرحلة كاد فيها اليأس أن يحتلني لولا إصرار طاقم الترويض... استطعت القيام بجر قدمي بعض المسافة شيئاً فشيئاً أخذ الكرسي المتحرك يستغني عني، وبسرعة حسب المروضين، وخلال زمن نفسي مشلول، أصبحت أقف على قدمي وأستعين بما يشبه عربة أدفعها نحو الأمام. أبذل قصارى الجهد محاولاً أن استعيد ولو جزءاً من قدرتي على تولي أموري بنفسني، أما عيني فوضع في محجرها عين من بلور.. في الوقت ذاته أخضعتُ لعملية تجميل قبحت صورتني...

أحاول المشي وحدي، معتمداً على نفسي، أخرج من البيت، أقف في الشارع، أستريح بعض الوقت. أجلس لحظات إلى كرسي مقهى، أو مصطبة حديقة، يلقي علي الكثير من الناس التحية، لا أعرف أغلبهم، وأسعد لكونهم يعرفونني، منهم من يطيل النظر إليّ، يتفحصني، كأنه يرى في مخلوقاً غريباً، تنقصه أعضاء حتى يصير على هيئة إنسان، أو يراني تحولت إلى مسخ جزاء لما قدمت يدي، ويعلق: "سبحان مبدل الأحوال، أهذا ضمير؟ أو يقارن صورتني قبل وبعد الحادث فلا يعثر لي على هيئة "ضمير" لا غرو، تستمر الحياة ب"ضمير" سالماً أو مشوها وتستمر بدونه. وما رفع أذى عينيه من عليّ، حتى كبا وكاد يقع على الأرض. أو كان يقف عند كل ما وقع على هيكلي من تغيير، وعلى أثره في نفسي حتى ينقل حالتي لمن يهمهم أمر عجزني. أو يحبي ويتسم ويمضي لحال سبيله، لكن القليل منهم يهتني على مقاومتي للموت،

وينصحني بعدم الاهتمام للشكل، والاعتناء بالجوهر، فالأول يفنى والثاني يبقى. وحذرنى من الضعف رغم ظروف المقاومة الضعيفة، ورغم الحركة شبه المنعدمة، والنقص في التعبير اللفظي، وما علموا أي عقدت العزم على عدم الاستسلام وأني ماض غير آبه للتشوهات التي لحقت جسدي.

سئمت حياة البيت ورتابتها، أصبح على حركة الفراغ في نفسي وأمسي على ما يأتيه أخوي من سلوك، وأنشطتها الليلية، بلباس غريب، سر وال يعرقل الخطى منخفض الى ما تحت الخصر، إذا انحنى لابس به إلى الأمام احترقت ورقة التوت، أما الرأس فرقة للفن التشكيلي، وأما الأذنان فقد أغلقتا بقليلين بيضاوين، وأما الحركة فتقول حاشا أن يكون هذان ذكرين إن هما إلا أنثيان، وعلامتان من علامات الساعة.

أتواطأ معها بصمتي. وأظل تحت ضغط حركات والدتي وتعليماتها تحاول إخفائي عن الأنظار ما استطاعت. هل كانت تفعل إشفاقا علي من نفسي وأنا خارج البيت فرجة للناس، أم لأن منظري في اعتقادها يبعث على الاشمئزاز، خاصة لما أعلمتها أنني أتعرض لاستفزازات الصبيان وشيطاناتهم وأني لا أرتاح لنظرة الناس إلي، وأن صورتي أصبحت تنفر الكثير من الناس، تبعث فيهم الاشمئزاز وأن منهم من يشفق علي بطريقة غريبة لا علاقة لها بنفسيتي. يحبي، ينظر إلي طويلا وبعد أن يتجاوزني بخطوات يعود أدراجه ويضع في جيب سترتي بعضا من المال، مع صعوبة النطق التي ما تزال تكمم فمي، وبطء حركتي الحائلين بين رد الفعل السريع أجدني مغلوبا على أمري.

لم أستطع استيعاب سبب تعامل هؤلاء معي بهذه الطريقة، فلا لباسي، ولا الوسائل التي أستعين بها تشي بفقرتي، أيكون الشكل الذي أصبحت عليه؟ أم أنهم يرونني أقرب إلى الموت وهم بفعلهم ذلك يجعلون يدهم تقدم لنفسها ما ينفعها في آخرتها؟ يا لسخافة هؤلاء الناس إن كانوا يعتبرونني ساعي بريد، يبعثون معي بعض عملة يعتقدون أنها تنفعهم في آخرتهم أحملها إلى الآخرة حيث سيجدونها قد تحولت إلى قصر أو جنة أو نهر. وكأن الآخرة حيث البقاء، في اعتقادهم تنتظر من الدنيا حيث الفناء طعامها وكساءها أو أموالا لا متلاك إقطاعات وجنات. لو كان ينبغي غير ذلك، لو كان يسعى لغير إرضاء أنانيته لكان قد أتاني بما أنا في حاجة إليه من مساندة معنوية حتى أرمم صورة "ضمير" حتى أؤدي مهمتي. ولذلك كنت أرفض أن أكون همزة وصل بين الدنيا والآخرة كما يتصورونها. والحالة هذه، عقدت العزم على الانطلاق من عقالي، أجوب الأرض طولا وعرضا؛ مدنها وقراها وأسواقها، أعيش حرا طليقا مرفوع الهامة بحكم تصلب رقبتني رغم ما خضعت له من تمارين ترويضية.

حاولت والدتي أن تثني عزمي، لحقت بي مرارا، عدت فيها معها إلى البيت، لكن لما ضعفت حيلتها استسلمت للأمر الواقع إلى حين... جبت أقطار الأرض، أبحث عن ذاتي، أو على الأصح أعيد ترميمها، لم يعد يربطني بأخوي سبب، لهما عالمها الذي تفصلني عنه مئات السنوات الضوئية، كما وهت علاقتي بوالدتي... كان شوقي لوالدي يملأ قلبي، يتهيا إلي أحيانا

أنه شوق لا يطفئه سوى دفء حضنه؟ وأحيانا أخرى يتهيأ إلي أني أرغب في لقائه لأطفئ سعي غضبٍ يملأ صدري، لن يخبو إلا إذا نظرت إليه شزرا؟ لا شيء يدل على وجوده، رغم كل التطور الذي عرفته وسائل التواصل والاتصال.

واللافت للنظر أن هناك أسطورة عجيبة غريبة كثيرة التداول على صفحات التواصل الاجتماعي. يتداولونها على أنها واقعية لا علاقة لها بالخيال. فقررت أن أزور المدينة التي كانت مسرحا لهذه الأسطورة التي أضحت حسب وسائل الاتصال الاجتماعي قبلة للسياح والعلماء والباحثين. حيثما توجهت كنت أسمع بهذه الأسطورة التي أصبحت تروى وتكتب وتقرأ وتشاهد بجميع اللغات وبجميع أدوات التعبير.

تحكي الأسطورة التي تفرعت عنها أساطير، أن عملاقا لم يُر مثله في الكون، عبر تاريخ البشرية الطويل، ولم تُتناقل صورته أو أشرطته عبر وسائل الاتصال والتواصل الحديثة، لكون أبعاد جسمه تفوق عتبات البصر.. خرج من عمق الأرض من تحت أعلى بناية وأكبرها في مدينة "زسأد" مدينة المال بدون أعمال. حوّلها إلى ركام من تراب. عملاق على هيئة بشر، بقامة أكثر علوا وأسبق طولاً وأشد غرضاً من العمارة لا تطال منها عدسات الكاميرات سوى بقعة صغيرة. حجم العملاق. ليست لها أدنى قدرة على تغطية ولو طرف من أطرافه. فوق رقبة بارتفاع البرج المائل ربض رأسه جبلا يضيوي الشكل تغطيه غابة كثيفة، حاجباه حزمان أخضران يحيطان ببحيرتين متناظرتين،

خيشوماه نفقان على طريق سيار تحت سلسلة جبلية. تحاول كل رواية أن تمنحه نسبا وتعطيه اسما، تقول البعض منها أنه كان إنسانا عاديا عانى من القهر والتعذيب، وألقي في غياهب السجن كقطعة خردة. وتقول غيرها: كان قبل أن يصير إلى ما هو عليه اليد اليمنى لأحد التجار الأغنياء طيلة زمن، وعلى إثر اكتشاف المنظمة الدولية التي ينتمي إليها هذا التاجر خيانتة نفته تحت الأرض... ويقول آخرون هو ابن حاكم كهف الواحة وحفيد "للا مارغريت" زوجة أحد حكام ربع من ربوع حي مالك الأشعري. وقد أعدته جدته أحسن إعداد لخدمة مشروع كبير يرمي لإسقاط عروش أحياء بني عبد رسم وديار بني طلل، وقد اكتشفت عيون المؤامرة العالمية انحيازه لآله بني عبد رسم فدفن حيا في الزمان، وبعد شهر أو شهرين، خرجت والدته ليلا وحفرت موئده لتخرجه وتدفن عظامه في قبر أعدته لها داخل بيتها، وهي تحفر لم تعثر على جثته فاستمرت في الحفر حتى وجدت نفسها في فوهة سرداب ابتلعها، خرج منه العملاق.. ومن الروايات الرسمية ما تنسبه لبني كعب ومنها ما تجعله ينحدر من بني مالك ومنها ما تذهب إلى أنه عميل من بلاد الأفرنجة اندس في أحياء بني عبد رسم ليعخدم المؤامرة العالمية، التي اكتشفت أنه يتآمر عليها مع شيوخ الأحياء والديار، وضعته في الطابق تحت أرضي وأخذت تحقنه بمواد تضعف رقابة عقله وتنشط لا وعيه حتى يعترف بما ارتكبه في حقهم من جرائم..

كما يُروى أن عمارة تعانق السحاب تحولت فجأة إلى ركام انتصب مكانها عملاق كلما خطا تزلزلت الأرض زلزلة عنيفة، خرج عن كل القياسات،

وشبت الحرائق. بعد بضع خطوات كانت الأرض يابا.. بلغ العملاق البحر، بقدر ما تغوص قدمه في الماء يعلو الموج، ويضرب اليابسة، ومع كل خطوة تغرق المدينة الخراب. مضت في أثر العملاق طائرات مروحية، ترميه بوابل من القذائف، وأخرى محملة بكاميرات التصوير، ما كادت أن تصيبه أو تلحق به أذى أو تلتقط له صورة واضحة حتى حرك ذراعه لتطوح ريح عاصفة بالمروحيات فتقع في عرض البحر. وكلما هوى أكثر في عمق البحر ارتفع مستوى الماء، وفاض على الردم، إلى أن أخذ يختفي شيئا فشيئا، وبقدر ما يختفي كان مستوى الماء يرتفع فوق ما كان مدينة. غاب جسده عن الأنظار التي كتب لأصحابها النجاة بمعجزة ولم يعد يرى منه غير رأسه التي بدورها صارت تختفي تدريجيا، وذراعه تلامس السحاب وهي تختفي في الماء تدريجيا، ولما لم يبق ظاهرا غير كفه، ثنى الإبهام والوسطى والخنصر والبنصر، وأبقى على السبابة مستقيمة، يحركها في شكل دائري متكرر، قرأ من كتبت له النجاة إشارته تلك وأجمع من شاهدوها أنه كان يقول "سأعود" حتى أضحت الأسطورة تدعى أسطورة "العملاق المنتظر" أما المدينة فعامت.

حسب ما روته والدتي عن الغموض الذي يحيط بظروف حياة والدي وعن طبيعة عمله المشبوه، والحلم الذي ظل يفرض نفسه على أخي آدم طيلة مدة، ومصيره المحاط بالغموض، وقبل ذلك الحادث الرهيب الذي تعرضت له وقلب حياتي رأسا على عقب، وما آل إليه أخوي عمرو وزيد من لامبالاة وانغماس في مظاهر الحياة المستوردة، وما آلت إليه العائلة من كفاف

عيش بعد حياة رغدة، لا أستبعد أن يكون العملاق الذي صنعه قوى الشر هو والدي، أو على الأقل كانت تربطه به علاقة. خاصة وأن صوتا غريبا كأنه ينبعث من فجاج أعماقي يهزني بعنف شديد كلما طاف طائف والدي بمخيلتي. أياكون بطل الأسطورة هو "صكوم" - كما سمعت حكايته من والدتي - هاجر طفلا رفقة عائلته إلى فرنسا حيث درس، وتخرج واشتغل مهندسا، قبل أن يعود إلى حي بني مالك حيه الأصلي، ويصير اسمه "صمو" أب آدم وحواء. ثم سرعان ما يرحل إلى ديار بني كعب فيتحول إلى "صمغ" والدي، وقبل أن يرحل دون أن يعلم أحد وجهته ويرغم على اتخاذ هويات مختلفة. لأنه كان والدي أعماقي الضوء القوي في المنعطف، لأنه لما كان والد آدم تعرض الأخير للاغتيال في الشارع، لأنه لما كان والد حواء اختفت؟ لم تكن هذه الأحداث المرتبطة بعائلته من قبيل الصدفة !!! لا بد أن وراء ذلك سرا خطيرا...

تهت ضاربا في الأرض، لعلني أسمع صدى لصوت والدي يتردد في زاوية من زوايا الكون. أفكر عبثا في الأسباب التي تجعل الرجل يفر عائلته ويقطع صلته بها، بل يجد له هوية جديدة بكل بساطة ودون عناء، أفكر في الأسرار الدفينة في صدره، تارة أغضب منه غضبا شديدا وأخرى أجده مثيرا للشفقة لا يجد حوله من يخلصه أو يساعده على التخلص مما يأسر إرادته ويملك رقه. أمضي في طريقي دائم الشرود من حي إلى حي أعيش على ما يوجد به علي الناس، منهم من يستضيفني مدة يطعمني ويكسوني منهم من يمنحني

بعض ما يعينني في طريقي من مال، وكان الكثير يقلني من ربع إلى ربع أو مسافة معينة بدون مقابل. وكلهم يسألونني عن ديارى وعن السبب فى ما آلى إله شكلى، ويستغربون. سألىنى أحد أصحاب العربات الذين ينقلون الناس دون ترخيص. بعد أن أطلعتة على هويتى ونسبى وحيى، عن مكانة والدى فى مجتمعنا ورددت تلقائيا:

- أنا تائه أبحث عن والدى.

- كيف تبحث عنه بهذه الطريقة ووسائل الاتصال والتواصل كفيلة بأن تساعدك بشكل سريع؟

بماذا أجيب؟ هل أطلعه على شكوكى فى شخص والدى؟ لا لن أفعل.. فاستدركت.

- إن معى صورة له أستعين بها.

فتحت محفظتى وأخرجت الصورة، والسائق منشغل بالقيادة، قال:

- ضعها قبالتى حتى أتمكن من رؤيتها؟

ركز بصره عليها كثيرا دون أن ينبس، حتى ظننت أنه لا يبالى. نظرت إله فوجدته يمعن فى الصورة، ويحرك رأسه تارة، وينقر بأصابعه على جبينه مرة أخرى كمن يريد أن يستحث ذاكرته. فجأة سألىنى:

- أكان والدك يرتدى مثل هذا الزي؟

- لم أره يوما إلا بزي غربي أنيق عاري الرأس...

- يخلق من الشبه أربعين!!!

- أعرفت أحدا يشبهه؟

- أذكر أن رجلا منا عاش بعيدا عن ربنا وعاد يوما بثراء واسع استطاع أن يشتري من سلطات الاستعمار أراضي شاسعة أعادت الأمل إلى نفوس العشائر... غير أنه ذهب في رحلة استشفاء ولم يعد... اغتتم المشرفون على أملاكه هذا الغياب وراحوا يسلبون منا أراضينا بحجة الديون التي كانت لـ"صبفس" على كل فلاحي الربع. يبيعونها لسلطات الاستيطان التي هجرتنا وبنت عليها مئات العمارات، واستقدمت إليها أبناءها من كل أنحاء العالم... وها أنت ترى الحال التي أصبحت عليها، وهي حال أفضل بكثير من أحوال أبناء قريتي وما كان يحيط بها من ضياع...

- قلت أنه كان يدعى "صبفس"؟

- أجل

- لاحظت فجأة أن كل أسماء والدي كانت تبدأ بحرف الصاد (صكوم - صمو - صمغ صبفس) وهل يكون هذا أيضا اسمه؟!؟!؟! - هل لديك فكرة عن وجهته؟ هل يمكن أن تدلني على اسمه الثلاثي، واسم القرية أو الكفر الذي كان ينتمي إليه.

- أما عن وجهته فلا أحد يعرف وأما عن اسمه فهو: "صلاح أبو الفتح السعيد" أم القرية فقريتي واسمها "كفر واحة الزيتون" لكن الطريق إليه شائك والوصول أمر صعب.

- سأحاول مهها كلفني ذلك قد أجد له صورة هناك عند أحدهم تقطع الشك باليقين، حتى إذا تأكدت من أنه هو والذي اقتفيت أثره وجددت في البحث عليه. شكرا لك أخي...

- اسمي: عماد العبد الله ..

- أنا ضمير بن الصلت الغافري

... بلغت المكان، إنه مدينة حديثة بعمارات شاهقة وأسواق مغطاة كبيرة، تحيط بها ضياع وغابات من الأشجار المثمرة، يشغل بها أبناء هذه التربة التي تنكرت لهم وعشقت غيرهم. استطعت الاحتكاك ببعض منهم وأطلعتهم على حاجتي للعمل حتى أضمن قوت يومي.. كان معظمهم ينظرون إلي بعين مشفقة، وكأنهم يقولون: كيف تقوى على العمل وأنت شبه معوق؟... بعد أيام لقيت فيها حفاوة من طرف العمال الطليين أبلغني أحدهم أن أحد كبار الفلاحين المحتلين من ذوي الضياع الواسعة يحتاج من يمسك له دفتر الحسابات لكن يشترط أن يكون عارفا باستعمال الكمبيوتر. كنت المرشح الوحيد...

ربطت علاقات مع إخواني في الطليعة، ولما لاحظوا آثار الوحدة علي، وجدوا دوائي في الزواج، لكنني بددت قلقهم أنا الذي أعيش بينهم أعزب، وفي الوقت نفسه زدتهم إشفاقا علي لما أعلمتهم أني فقدت فحولتي ولا سبيل إلى الزواج، والحقيقة أني لم أكن أرغب في إنجاب ضمائر تختلف فيما بينها...

كان السؤال عن النسب وعن الأسباب التي غيرت خلقتي والأسباب التي دفعتني للرحلة يلاحقني حيثما حللت، وفي المقابل كنت أغتني الفرصة لأسأل بدوري عن "صبنفس" أثناء حديثي مع رفقاء العمل.

- أرى أن هذه المدينة حديثة العهد، لا بد أن الأرض التي أقيمت عليها كانت فلاحية، يفلحها أهلها الحقيقيون ولا بد أنهم أرغموا على بيعها وأجبروا على تركها، والرحيل بعيدا..

- يحكى أن جل الأراضي الفلاحية كان يسطو عليها المحتل، ولما ظهر "صبنفس" على مسرح الأحداث استطاع أن يشتري من المعمر بعض القطع واستطاع أن يحوز مساحات شاسعة من فلاحينا الذين أنهكهم الجفاف والضرائب ونضوب ماء الواحة.

- أيعقل أن يبيع المحتل الأرض لمن يحاربه ويدفع روحه وكل غال ونفيس ثمناها كي يستردها منه؟

- لا تتسرع، في الاستنتاج، هذا الشخص الذي تسأل عنه، يحكى أنه ذهب في رحلة استشفاء لكنه لم يعد، ولا شاع خبر وفاته ولا ظهر لزوجته ولا

لورثته أثر، بل اجتهد المشرفون على أملاكه في انتزاع الأرض من الفلاحين نتيجة لعجزهم عن دفع ما عليهم من ديون لزبانية "صبنفس" لتجد الآلات طريقها إلى كفر واحة الزيتون.

- حكاية لا أساس لها ولا ترابط بين أحداثها، رجل يظهر من العدم، لا أب له ولا أخ ولا ولد، يحوز كل الأراضي بما فيها التي استحوذ عليها المحتل، يصبح من كبار الفلاحين و يختفي فجأة إلى الأبد، دون أن يتوصل باستدعاء من السماء.. إذا كانت الرحلة فعلا رحلة استشفاء رافقته فيها زوجته لا بد أن أغراضها بقيت في البيت. لم يأخذها معها سوى ما يحتاجه لغرض الاستشفاء. لا بد أن في البيت ما يثبت هويته. لن يهدأ لي بال حتى أصل إليه.

- لا أعتقد، حسب علمي لم يول أحد اهتماما لأغراضه، الكل يسلم أنه أخذها معه.

- ليس من المنطق لطالب الاستشفاء أن يرحل ويأخذ كل أغراضه. هذا أمر لا يصدق.

- لم ير له أحد صورة، لكن ما يزال أحد أهل الكفر ممن كانت لهم علاقة محدودة بهذا الشخص، على قيد الحياة قد يفيدك أكثر.

- هل يمكنني أن أزوره؟

- سأرافقك في عطلة نهاية الأسبوع.

في جولة أزور معالم هذا الحي الذي يحيا هادئاً فوق بركان، في ممر الراجلين لأجتاز الطريق وأنا أجر ساقِي، باغتني نفس النور الذي باغتني في المنعطف ليلتها وأنا يافع، لأجدني من جديد موصولاً بأنابيب إلى أجهزة هي الأخرى موصولة بحبال كهربائية، وجدتني مرفوع الساقين مغلول ذراع، منصوب أخرى، وأسمع صوتاً ضعيفاً، كأنه يصعد من بئر عميقة يسألني عن هويتي، وأنا أجيب بصوت لا يكاد يسمع أنا ضمير بني عبد رسم وبني طلل، لأبي هويات تتغير حسب المكان والزمان. تحت أقدامه ترزح حرية والدتي. وتسحق كيانات إخوتي.

- أنا الجسد الذي قضيت العمر مسجى، وسأبقى كذلك ما طلعت الشمس. إلى أن يكتب للأعضاء أن تقف على قدميها وتحرك أطرافها، وتعمل جاهدة على ترويض نفسها بنفسها وتحقق التناغم فيما بينها، وتجتهد في إنتاج مناعتها الذاتية. فيبدو أن جسدي يعاني من حساسية كبرى تجاهي. يبدو أنه لا يطيقني أو أن هناك من يرغمه على هذا الموقف. ويرى أن ما يصيبه من حوادث هو نتيجة لاحتوائه لي. طالما تدمر مني يعتقد أنه منذ عرفني، مذ اقترنت به، والمصائب تتعاوره من كل جانب، ويبدو أننا لم نخلق لنألف، ويرى أننا إذ استمررنا على هذه الحال، عُمّرنا طويلاً تحت سوط العذاب. ولذا ما فتئ يلتمس مني الانسحاب الفوري، قد تحل به روح جديدة تخلصه من الحوادث المتكررة التي ألت به بسببي. حسب تقديري وتقدير جوهر وتقدير نضال لست السبب فيما ألم به. السبب المباشر هي روح الماضي التي

تحتل الجزء الأكبر منه. سكتته منذ عهد بعيد روح منبسطة تستجيب لما يملئ عليه من الخارج. تقعده أرضاء، وتمدده على السرير دون أن يقوم منه وإن تقعر... هكذا طردني شر طردة، أخذ ينصعق كما ألفت منه ذلك كلما أراد طردي خارجه.

وبعد لحظات قلائل، وجدنتي مدفوعا خارجه حتى أفي لم أستطع أن أوصد بابه خلفي..

انطلقت في الفضاء ملء حريتي، مثقلا بهوم بني عبد رسم، وبني عبد طلل. أحياء برغم كل ما تدعيه نخبها، ليست سوى اللقمة السائغة المعروضة على طبق من ذهب لأحد الغريين القريب أو البعيد. يعيشون تحت رحمة من يعتبرونهم رموزا عزتهم، وضامني أسباب كرامتهم، والساهرين على رعايتهم. غير مدركين أن النخب هي من تنشر جبروتها في الأحياء، تزرع أعضاءها بين ثنايا الناس، وتخفي عملاءها بين الأهالي. أعضاء هذه النخب وعملاؤها هم من يبيعون الأحياء في سوق النخاسة والناس غافلون، بل وهم لهم طائعون طاعة العبيد. واثقون وثوق الطفل، ظنا منهم أنهم الأعدل والأقوى والأعطف ولأقدر، غير آبهين لألاعيهم الحقيرة، وضعفهم أمام سلطة المال وجبروت الجنس وقبضة الجاه، يرمون بفلذات كبدهم في النار لقاء الحفاظ على جاه مبني على العمالة، وسلطة لا صلاحية لها سوى أن تسلط على رقاب أبنائهم السيوف. حكام يشيعون الخلاف والفرقة بين أبنائهم، يختلقون لهم العداوات حتى يشغلهم عنهم؛ يبيحون لهم السطو،

والإغارة والسرقة والاستيلاء على أموال وممتلكات من هم أضعف منهم. تحت مسوغات واهية، يشنون ضد بعضهم حروبا تحرق الأخضر واليابس. فيضعفون ويساقون قطعانا إلى أسر أبدي يستحيل الانعتاق منه. و ساستهم يدفعون للملكي رقبهم، والمتحكمين في زفرهم وشهقهم، دماء الأبناء.

لقد تفنن هذا النوع من الساسة ومن خلفهم من قوى في إبداع قوالب تسعفهم في تصنيع أرذل أنواع البشر، اخترعوا رجالا طوروا الكسل ونوعوا أساليبه، أفعالهم بقيت لازمة، لا تستطيع التعدي. تجد لحاهم طالت وليسوا من أنبتوها، نموها لا يكلفهم مالا ولا عناء ولا مجهودا. لو كانت تتطلب منهم ذلك ما فعلوا لأن مجرد التشذيب تقاعسوا عنه. لقد فطن ساستهم إلى استيراد أدوات الكسل، عمموها في صفوف النشء، تربت على أذهانهم، توفر لهم كل ما يحتاجونه، دون أن تكلفهم أدنى مجهود. نجحت أدواتهم في تجميد المواد المكونة لأذهانهم، تعمل على إبعاد كل وضعية قد تستدعي حركة الدهن. بقيت على حالها، على فطرتها، دون استفزاز يستدعي منها استجابة. وهكذا تكون العقل الطلي الرسمي. فكائناتهم الذهنية آخذة في الاختفاء عن طريق الانقراض، وليس عن طريق الاستبدال الذي يؤدي إلى التجدد كما هو مطلوب. ولا أدل على ذلك من أنهم يعجزون عن حياكة لباسهم ، يلبسون زيا مستوردة أجزاؤه من مختلف الجهات؛ عباءة من الشرق، يخطبها شرقي فوق العباءة معطف غربي، وحذاء شمالي قل ونذر أن يتلاءم مع مقاس القدم.

برعوا في نحت تماثيل بشرية، بل دُمى بشرية؛ من جلد وعظم لا يتحركون من أماكنهم بطاقة ذاتية داخلية، بل تحركهم طاقة خارجية يُتحكم فيها عن بعد، ولا حول لهم على بذل مجهود شخصي أو ذاتي، مكتوفو الأيدي، مهيضو الجناح. ساجدون لغير الله من قوى الحاضر على الدوام؛ مؤخرتهم مرفوعة، موجهة إلى الفضاء، وأنوفهم مدفونة في الرمال. لقد سئموا من الأنف؛ لا يتنفسون، لا يتجدد الهواء في رئاتهم، لا منفذ للأكسجين، تحترق الخلايا داخل أجسامهم بنيران الماضي، ولا حياة لمن تنادي. يعيشون حياة مقلوبة، مخارجهم استحالت مداخِل... وترى كلاب البشر المقبلة من بعيد تدنو منهم، بخطى ثابتة، تكشف عن عزم قوي، فترفع قوائمها الخلفية لتسقيهم بولا. وإذا سألت الكلب عن السر في ما يأتيه أجاب: "لقد رقت لحال هؤلاء الذين يقضون عمرهم رافعين عجيزتهم، دون رفع عقيرتهم، ودون أن يحاولوا البحث عن بديل عملي، فاجتمعنا نحن معشر الكلاب ونظرنا في أمر هؤلاء الأصدقاء اللدودين، لنجد لهم طريقا نعيدهم بها إلى الحياة، وكان الرأي أن نسقيهم بولا نافعا ونرفع عنهم القنط. ولقد استطاب خمولهم غيشتا، وأدمنوا عليه، حتى أضحت تعوزهم القدرة على الاستغناء عنا. الأمر الذي جعلهم يسلموننا مفاتيح سلطتهم، ولتسيير شؤونهم عمدنا إلى الاستعانة بأبناء جنسنا من ذئاب ومن ابن آوى وغالبا ما نلجأ إلى الخنازير في الأمور الشائكة، لأن بني عبد رسم أقزام يخافون أن تدوسهم الخوافر والمناسم. وحاكمهم عملاق الأقزام، وقرم العملاقة، يدعي العدل في

حيه، ويتباهى بسداد رأيه، وحسن سياسته لرعيته. في مجالس العمالقة يزعم أنه محيط بكل ما يجري في ربوع حيه؛ صغيره قبل كبيره، وهم على علم أنه لا يكذبهم وإنما يكذب نفسه، ويصدق كذبه على نفسه. فهو يدعي الإمام بكل شيء منذ خروجه.. بل قبل خروجه من الرحم عليم بجميع الأمور الدنوية والأخروية. يؤمنون حتى النخاع أن نسلهم :

"إذا بلغ الفطام لنا صبي *** يخر له الجبابر ساجدين"

ويقدسون صاحب القول، ويعتقدون أن القوة عطاء خصّهم بها المعطي دون غيرهم. يعتقدون مخطئين أن جنسهم مقدس، إيمانهم راسخ أنه قبل أن يصير علقه، كان محيطا بها جاء به السابقون وبها لن يبلغه اللاحقون. يدعي أنه قبل أن يصير نطفة، خبر الحياة وتشرب العلوم وتجول في عرض الجنة. وأنه قبل أن يصير مضغة كان داعية إلى المعروف ناه عن المنكر. أنه قبل أن يولد بلغ من العلم درجات لم يبلغها إنس ولا جان وأطلع على قواعد العالم وسننه وما خلفه وما بين يديه.. من هنا وجدت الهشاشة أبوابهم مشرعة، فدخل بجميع صيغها، وأقامت في أحيائهم وديارهم، واستقرت فيها حتى أضحت إحدى بنيات الشخصية الرسمية الطللية الرئيسة، وأحد مكونات هويتها. في الوقت الذي طردها الآخر، وحرّمها من تأشيرة السياحة في أرضه، يتوعدّها بالشبور إن هي اقتربت من هوامش شخصيته.

لقد سئمت منهم الأرض التي منحتهم الحياة، وأغدقت عليهم بما يجود بطنها من استغلالهم لحنانها عليهم ورفقها بهم وإفسادهم فيها. كما تسأم الأم

من نسلها الذي يستغلها والذي يبتزها والذي يبيع شرفها. في لطفها المعهود وفي اتزانها المشهود وبحكمة من خبرت الحياة ملايين القرون خاطبتهم : أنتم يا أبنائي ما زلتم خارج عتبيّ الرشد، وما دمتم كذلك لا يمكنكم أن تعوا واقعكم ولن تفرقوا أبدا بين الهشاشة التي تتحكم في مصائركم والقوة التي أخرجت الآخر من الظلمات إلى النور. لقد نفذ صبر أمكم وأعيائها ركوبكم الهشاشة سبيلا إلى الخلاص. تمضي بكم إلى الهاوية. من الخلف يدفعها مالك رقكم وأنتم له ممجدون... لقد عققتم أمكم الأرض، وفرطتم فيها تفريطا لا مثيل له، سلمتم مقدساتها هدايا ملفوفة في شرفها لمن يتحكم في شهيقكم. لم تنصفها قوانينكم التي وضعها لكم مسيروكم. وحان الوقت لترفع دعوى إلى السماء تبغي قطرة إنصاف. فانتظروا استدعاءات لحضور جلسات المحاكمة...

النهاية